د. علي سليمان المقداد

لبنان
مِنَ الطوائف إلى الطّائف

المركز العربي للأبحاث والتوثيق



د. علي سليمان المقداد

لبنان
مِنَ الطوائف إلى الطائف

المركز العربي للأبحاث والتوثيق

الطبعة الأولى
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٩

بيروت ـ شارع مار الياس ـ تجاه ثكنة الحلو ـ بناية صالح
هاتف وفاكس: ٠١/٣٠٥١٥٨ ص.ب: ١٤/٥٠٦٨

MER MEDITERRANEE
البحر الأبيض المتوسط

TRIPOLI
طرابلس

LIBAN - NORD
شمال لبنان

MONT - LIBAN
سلسلة جبال لبنان الغربية

BEKAA
البقاع

ANTI - LIBAN
سلسلة جبال لبنان الشرقية

BEYROUTH
بيروت

SAÏDA
(SIDON)
صيدا

دمشق
DAMAS

HERMON
جبال حرمون

LIBAN - SUD
جنوب لبنان

SOUR
(TYR)
صور

GALILEE
الجليل



إهداء

إلى والدي وروح والدي اللذين حُرما نور العلم وضحّيا برفاهيتهما في سبيل تعليم أبنائهما . . . وإلى شهداء لبنان .

الدكتور علي سليمان المقداد
ڤيشي ١٥/ ٩/ ١٩٩٩
فرنسا



مقدمة المؤلف

ماذا يجري في لبنان؟

سؤال يتردد دائماً، كنت أسمعه عدة مرات في اليوم من معارفي وأصدقائي ومرضاي الفرنسيين، وبما أنني لم أكن قادراً على الإجابة، فبدوري أردت أن أفهم لماذا جرى ويجري كل هذا في بلدي؟

بلد الطبيعة الجميلة، لبنان الجبال المهيبة والوديان الساحرة، والقرى البسيطة العامرة بالعواطف والحب. . . بلد التباين والتناقض حيث يتعايش الثراء الفاحش مع الفقر المدقع، الشرق مع الغرب، الهدوء مع الانفعال، الحرب مع السلم، بلد المثقفين البنائين، الذي يحولهم انفعالهم وغضبهم إلى جهلاء هدامين ومخربين.

حاولت أن أبحث وأتفهم الأسباب، فتبين لي أنني لا أعرف بلدي حق المعرفة، وما تلقنته في المدرسة عن تاريخ وطني، يشوبه الغموض وتسيطر عليه علامات الاستفهام، فتناسيت كل ما علق في ذهني من حقائق ومُغالطات، وعدت إلى الجذور، إلى فجر التاريخ، وتابعت العصور أبحث عن أسرار تكوين لبنان، الملتصق بنشوء وتطورات الديانات السماوية الثلاث في الأرض المقدسة. . . إلى أن وصلت إلى القرن العشرين، وتبين لي كيف قسَّمت القوى العظمى الشرق الأوسط وكيف رسمت الحدود وأوجدت الدول والدويلات حسب رغبة ومصالح دول الانتداب، وطبعاً ردات فعل فرض قيام «دولة إسرائيل» وتفتيت فلسطين وتشريد الفلسطينيين.

على ضوء التاريخ أخيراً استطعت أن أجد جواباً على السؤال الذي يطرحه الجميع، وعن الأسباب التي رمت بلبنان في أتون الحروب الأهلية الدورية. أثناء الأحداث مثلي مثل الكثيرين من المواطنين طغت علينا لعنة الحرب وجرتنا في زوبعتها إلى الفعل وردة الفعل، وسكت الكلام أمام الرصاص، وطغى الشر على الخير، وضاع العقل والمنطق أمام الانفعال، وللأسف على ضوء التاريخ لم أعد أتعجب لما حدث، لأنه تبين لي أن كل هذه الحروب كانت نتيجة حتمية لتراكم تفاعلات العوامل

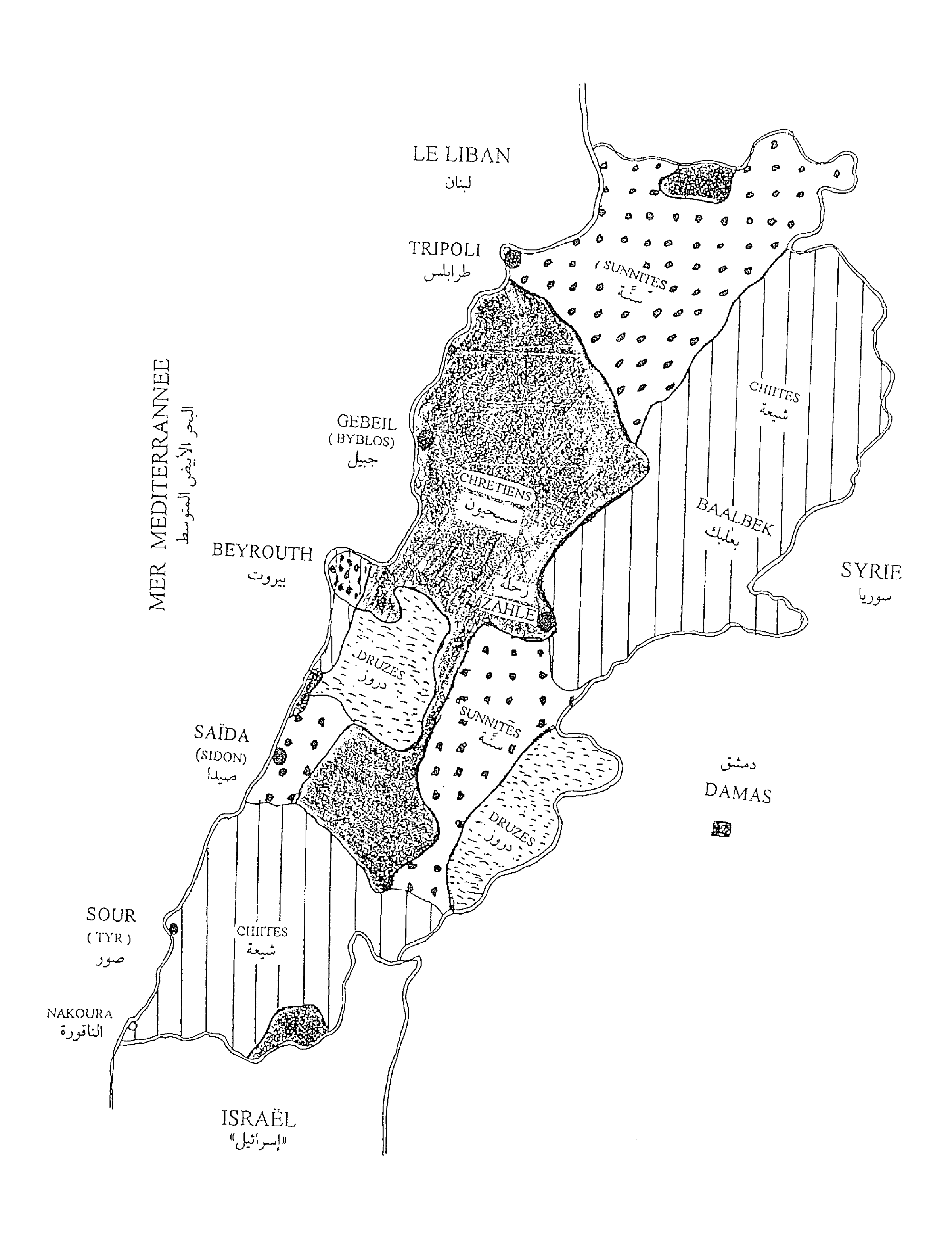
الدينية، التقوقع المذهبي الطائفي، الظلم الاجتماعي، اختلاف توجيه البرامج الدراسية، غياب الوطنية الصحيحة وقيام الدولة الفلسطينية ضمن الدولة اللبنانية.

لست بمحترف الكتابة ولم أرد أن يطغى جمال الكلمة على معناها، فقصدت التبسيط واستعمال كلمات سهلة. ولم أقصد من هذا الكتاب أي غاية سياسية، وهو ليس موجهاً ضد أحد بل هو مجرد بحث شخصي عن الحقيقة، أتوجه به إلى كل من يريد أن يتعرف ويكتشف لبنان من زاوية جديدة عمادها لغة العقل والقلب معاً، وإلى مَنْ يريد أن يكتشف الواقع على حقيقته من خلال معايشتي لهذه الحرب الطويلة كمواطن وكطبيب وكإنسان، آملاً أن تكون الحرب الأخيرة في وطني، حقيقة بعيدة عن الصورة التقليدية التي تظهرها وسائل الإعلام.

وبقدر ما أردت أن أكتب عن الإيجابيات فإنني لم أحاول أن أخفي السلبيات، وكان همي دائماً وقدر المستطاع التجرد والبحث عن الحقيقة فقط.

الدكتور علي سليمان المقداد

فيشي. فرنسا. ١٩٩٩



LE LIBAN
لبنان
TRIPOLI
طرابلس
SUNNITES
سنّة
MER MEDITERRANEE
البحر الأبيض المتوسط
GEBEIL
(BYBLOS)
جبيل
CHRETIENS
مسيحيون
CHIITES
شيعة
BAALBEK
بعلبك
BEYROUTH
بيروت
SYRIE
سوريا
زحلة
ZAHLE
DRUZES
دروز
SUNNITES
سنّة
SAÏDA
(SIDON)
صيدا
دمشق
DAMAS
DRUZES
دروز
SOUR
(TYR)
صور
CHIITES
شيعة
NAKOURA
الناقورة
ISRAËL
«إسرائيل»

الفصل الأول

الطوائف اللبنانية

- مسيحيو الشرق والموارنة
- الروم الأرثوذكس.
- اليعاقبة.
- الأرمن الأرثوذكس.
- الطائفة النستورية.
- الطوائف الإنجيلية.
- السريان الكاثوليك.
- الروم الكاثوليك.
- الخلدانيون.
- الأرمن الكاثوليك.
- الطائفة اللاتينية.
- الأقباط.
- الطائفة اليهودية.
- الشيعة.
- السنّة.
- المسلمون الموحدون (الدروز).
- تعليق.



الطوائف اللبنانية

من المستحيل الكتابة عن لبنان بدون الكتابة عن الديانات السماوية، وعن المذاهب العديدة التي تتألف منها هذه الديانات، علماً كما قال أوريجين (Origène) في القرن الثالث: من الخطورة الكلام عن الآلهة. . . ولكن بعد سبعة عشر قرناً، من قول أوريجين، نأمل أن نستطيع الكلام، في هذا الموضوع الحساس، بعقلانية وبتجرد، لأننا نؤمن أنه حان الوقت للمصارحة وقول الحقيقة، وتسمية الأشياء بأسمائها؛ لقد انتظرنا نصف قرن قبل أن يُسمح لنا باستعمال كلمة «إسرائيل» عوضاً عن الأرض المغتصبة، الأرض المحتلة، وفلسطين المحتلة.

المظاهر الدينية منتشرة في جميع أنحاء لبنان، بشكل ملفت للنظر أكثر منه في أي بلد آخر، فإلى جانب أماكن العبادة، نجد المعالم الدينية على جوانب الطرقات، على التلال، على القمم وفي أغلب الأماكن الظاهرة، حتى أنه يحق لنا التساؤل، هل هي فعلاً للتقديس والعبادة أم هي إشارات حدود بين الطوائف؟ (هل هي علامات ترحيب أم لتقول لنا: انتبه أنت في منطقة الطائفة الفلانية!).

إن كانت هذه المظاهر الدينية من الإيمان، فاللبنانيون هم أكثر المؤمنين في العالم، ويكاد لا يخلو بيت لبناني من مظهر ديني، حتى سيارات الأجرة تحولت إلى جوامع وإلى كنائس نقالة، كما أن التعابير الدينية تملأ كلام اللبنانيين؛ في غضبهم، صبوا عليك لعنة السموات (الله يقصف عمرك، الله ياخدك، الله يغضب عليك. . .) وفي محبتهم وعاطفتهم، يوكلون الله أيضاً (الله يحميك، الله معك، الله يساعدك. . .).

في كتاب عنوانه: «أرض وكلام (TERRE et PAROLE)» كُتب سنة ١٩٥٦ م. نقرأ عن اللبنانيين ما يلي: «الفرد يلتحم بمذهبه إلى درجة أن سيارات الأجرة نفسها أصبحت مليئة بالصور الدينية والآيات القرآنية، وأصبحت ككنائس وجوامع نقالة».

وما نخافه من كثرة هذه المظاهر أن تكون على حساب الروحانيات، لأن الأفضل هو قليل من المظاهر وكثير من الإيمان.

وكي نفهم كيف استطاعت هذه المساحة الصغيرة من الأرض، أن تجمع هذا العدد الكبير من الديانات والمذاهب، لا بد لنا من العودة إلى تاريخ نشوئها، ولذلك ندعوكم معنا إلى رحلة عبر التاريخ، كي نرى كيف تشعب الدين الإسلامي والدين المسيحي إلى مذاهب مختلفة وكيف وصلوا واستقروا في هذا البلد الصغير لبنان.

مسيحيو الشرق

والموارنة

في نهاية القرن الرابع ومطلع القرن الخامس الميلادي، وفي المنطقة الواقعة بين مدينة حلب السورية ومدينة أنطاكيه التركية، وبالذات في جبل سمعان، عاش الراهب مارون. رجل تقي ناسك اعتزل الحياة الدنيا وانصرف للعبادة، حتى أنه عرف فيما بعد بالقديس مار مارون، وبعد أن نجح في حياته بنشر الإيمان المسيحي بين الوثنيين، استطاع بعد موته، أن يكون قدوة لبعض الرهبان الذين تبعوا تعاليمه وعاشوا مثله حياة التنسك، وعرفاناً منهم لفضله بنوا له ديراً في نفس المكان الذي دفن فيه، وأصبح هذا الدير مزاراً لأتباعه، ومركزاً لقوة دينية سياسية، نشرت سلطتها على قسم من المنطقة الشمالية لسوريا، وأصبحت مركز مقاومة لنظرية الطبيعة الواحدة؛ وهنا لا بد من أن نتوقف ونشير إلى الخلاف العقائدي داخل الكنيسة المسيحية لما له من أهمية في نشوء المذاهب، والفرق الدينية.

بعد إعلان المسيحية دين الدولة في الأمبراطورية الرومانية الشرقية، من قبل الأمبراطور قنستنطين (Constantin)؛ واجهت العقيدة الآريوسية (Arianisme)، التي أسسها أسقف الاسكندرية آريويس (Arius)، والتي تقول «بأن السيد المسيح ليس إلهاً كالأب، وفقط مشيئته إلهية» مشكلة؛ وهذه النظرية لم تكن من رأي البطريرك ألكسندر (Alexandre)الرئيس الديني المبشر لأريوس، ودب الخلاف بينهما، فعمد الأسقف آريوس لاستقطاب رجال الدين في فلسطين، وهكذا تبعه عدد منهم، وساندوه في دعوته، واستطاعوا على أثر اجتماع كنسي، أن يحصلوا على براءة له، بعد أن كان محكوماً عليه من قبل رئيسه المباشر البطريرك ألكسندر؛ ولكن البطريرك لم يرضَ بما جرى واستطاع أن يقنع الأمبراطور قنستنطين أن يدعو إلى مجمع كنسي.

وهكذا تمت الدعوة لأول مجمع كنسي في التاريخ «مجمع نيقيه» (Nicée) سنة

٣٢٥ م. وحضره ١٦٠ مسؤول كنسي؛ على أثر هذا المجمع حُرمت الدعوة الآريوسية وحُورب أتباعها، ولكن الدعوة لم تمت، وانتشرت وبقيت في أوروبا حتى العصور الوسطى، وكانت سبب منازعات عديدة بين المسيحيين، وهزت أركان الكنيسة أكثر من مرة. وكان مار مارون من أشد المحاربين للآريوسية. وهناك مجمع كنسي آخر حصل في القسطنطينية (استنبول) سنة ٣٨١ أكد تحريم الدعوة الآريوسية من جديد[١].

وقبل أن نكتب عن الطائفة المارونية، سنكتب عن مسيحيي الشرق أولاً.

لذلك سنعود إلى الأمبراطورية الرومانية الشرقية التي أصبحت فيما بعد الأمبراطورية البيزنطية في كل المدن الكبرى وجدت مدارس لاهوتية شاركت في تكوين العقيدة المسيحية؛ ولكن هذه الكنائس والمدارس اللاهوتية كانت متأثرة بثقافة وعادات بلادها الأصلية، ولذلك اختلف رجال الكنيسة على بعض التفسيرات اللاهوتية وما لبث أن تحول هذا الاختلاف إلى نزاع. خاصة أنه منذ ذاك العصر كان هناك مزج بين الدين والسياسة، ودليلنا على ذلك ما قام به الأمبراطور قنستنطين، حين أسس الملكية المطلقة المرتكزة على سلطة الله. كل هذه الخلافات أدت إلى اقتتال بين الشعوب، وإلى عصيان بعضها على سلطة الأمبراطور نفسه.

الخلاف الأساسي، كان حول طبيعة السيد المسيح؛ مما أدى إلى نظريات عديدة أهمها:

- نظرية الطبيعتين (duophysisme).
- نظرية الطبيعة الواحدة (monophysisme).

نظرية الطبيعتين أو النسطريانية، العائدة إلى نسطريوس (Nestorius) أول من قال بها، وتقول إنه يوجد في السيد المسيح شخصين: الشخص الإلهي (Logos)، والشخص الإنساني (Jésus)، وهذه النظرية لا تقبل باتحاد هاتين الطبيعتين في شخص واحد... ومن هذا الانطلاق لا يرون في مريم العذراء أمّاً للرب يسوع بل أمّاً ليسوع الإنسان.

---

(١) محمد علي مكي: «لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني». دار النهار للنشر. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٧٩ ص ٥٠.

نظرية الطبيعة الواحدة، تعود للراهب Eutychèse (٣٧٨/ ٤٥٤) الذي قال بأهمية وإطغاء الطبيعة الإلهية على الطبيعة الإنسانية في شخص السيد المسيح.

وهكذا انقسم المسيحيون إلى قسمين: قسم يعتقد بالطبيعة الواحدة، وقسم يعتقد بالطبيعتين في شخص السيد المسيح؛ أغلب سكان البلاد الشرقية (سوريا، فلسطين، لبنان ومصر...) اعتنقوا نظرية الطبيعة الواحدة؛ بينما الرهبان الموارنة اعتنقوا نظرية الطبيعتين، (بعض المؤرخين لا يوافق على هذا التصنيف للموارنة ويقول بأنهم كانوا من دعاة نظرية (Héraculius) أمبراطور بيزنطة، نظرية Monothélisme سنة ٦١٠ التي حاولت التوفيق بين النظريتين بالقول إن الطبيعتين عند السيد المسيح لا تظهران إلاً بإرادة واحدة وفي آن واحد، ولكن لم تفلح هذه النظرية بجمع المسيحيين وسقطت واندثرت في أواخر القرن السابع، وبقيت فقط في شمالي سوريا حيث كان تواجد الموارنة[١].

اعتقادهم هذا، بنظر البعض كان سبباً لاضطهادهم من قبل دعاة الطبيعة الواحدة ودعاة الطبيعتين على السواء؛ وكانت سبباً لمغادرتهم شمالي سوريا باتجاه الجبال اللبنانية.

في سنة ٤٥١ م. حرم المجمع الخلقيدوني (Chalcédoine) نظرية الطبيعة الواحدة، وحارب الأمبراطور البيزنطي يوستانيوس أصحاب هذه العقيدة، (ولكن زوجة الأمبراطور المذكور تيودورا شجعت سرّاً الأسقف يعقوب البرادعي في سوريا على جمع شتات القائلين بالطبيعة الواحدة سنة ٥٤٣ م. فعادت هذه الدعوة إلى الظهور، وعرف أتباعها **باليعاقبة**.

وقد أدى هذا الاختلاف الديني بين دعاة الطبيعتين ودعاة الطبيعة الواحدة إلى مجازر رهيبة في صفوف الفريقين. فقد قتل دعاة الطبيعة الواحدة سنة ٥١٧ في دير القديس مارون ٣٥٠ راهباً. كما أن الدولة البيزنطية فتكت بدير شهير لدعاة الطبيعة الواحدة اسمه دير ماري بسوس في منطقة إفاميه، وحصل قتال شديد بين اليعاقبة

(١) Gerard Figuie «le point sur le Liban» Anthologie. Beyrouth 1996 pp. 33.

والرهبان الموارنة، استولى على أثرها الرهبان الموارنة على كنائس اليعاقبة[1].

في هذا الوقت انفصلت الكنيسة المصرية القائلة بالطبيعة الواحدة عن بيزنطة، وألفت في القرن السادس الكنيسة القبطية المستقلة، وتبعتها الكنيسة الأثيوبية وبعض الأتباع في سورية.

أرمينيا كانت المثال الحي على تشابك الأمور الدينية والأمور السياسية؛ حيث كانت في البداية مع عقيدة الطبيعة الواحدة، ولكن كنيستها انقسمت عندما انقسمت البلاد بين موريس أمبراطور بيزنطة وكوزوريس الثاني ملك الفرس، فالمنطقة التي أُتبعت إلى بيزنطة اعتنقت عقيدة الطبيعتين، في حين أن أرمينيا الشرقية بقيت على اعتقادها بالطبيعة الواحدة.

وجرت عدة محاولات للتوفيق بين هاتين النظريتين وجميعها باءت بالفشل، وخاصة محاولة هيراكيليس (Héraklius) التي أشرنا إليها سابقاً، نظرية المونوثليسم (monothélisme) القائلة بوجود إرادة واحدة عند السيد المسيح هي الإرادة الإلهية؛ ولكن هذه النظرية بدورها رفضت وحرمت من قبل المجمع الكنسي الثالث في القسنطينية، وكذلك حُرمت من قبل البابا مارتان (Martin) الأول.

قرار الإلغاء هذا من قبل البابا مارتان، كان له مضاعفات خطيرة على الكنيسة المسيحية، ولم يقبل به الأمبراطور كونستانس (Constance) وريث الأمبراطور هيراكيليس، الذي أمر بسجن البابا مارتان ونفيه إلى كريميه Crimée؛ وهكذا وقع الانشقاق بين روما والقسطنطينية، وبدأ الاختلاف حتى في طريقة تطبيق التقوس الدينية، وتفاعل الاختلاف إلى أن أدى إلى عزل البابا نيقولا الأول (Nicolas Ier) من قبل مجمع كنسي بيزنطي... وعلى أثر هذه الحادثة، أجبرت روما الرعايا اليونانيين القاطنين في إيطاليا تطبيق تعاليمها وطقوسها، مما جعل القسطنطينية بدورها تقوم بإجبار جميع رعاياها بتطبيق تعاليمها وطقوسها الخاصة... وهكذا، ما كان في البداية مجرد خلاف بسيط أدى إلى ردات فعل تأديبية انتهى إلى خصام وإلى قرارات خطيرة

---

(١) محمد علي مكي، المصدر السابق.

مثل قرار البابا ليون التاسع (Léon) بإسقاط صفة المسيحية عن البطريرك ميشال سريلير (Michel Cerulaire)، فأدى هذا إلى انقسام الكنيسة المسيحية إلى كنيستين:
- كنيسة شرقية.
- كنيسة غربية.

ولم تفلح كل المحاولات اللاحقة للجمع بينهما، مثل مجمع ليون ومجمع فلورنسا بعد مرور أكثر من مئتي سنة عن هذا الانفصال.

إلى جانب هذا الانقسام الخطير واجهت الكنيسة المسيحية، مشكلة أخرى لا تقل خطورة وهي حركة الإيقونيين (le mouvement iconoclaste).

ارتكز أتباع هذه الحركة إلى ما ورد في الكتب الدينية السابقة، والتي تمنع كل الصور والأشكال الحيوانية أو الإنسانية في دور العبادة، خوفاً من أن تتحول العبادة إلى عبادة الأصنام، وأكثر الظن أن الإسلام كان له تأثيراً كبيراً على هذه الحركة، لأن الإسلام هو أيضاً حرَّم عبادة الأصنام ومنع الصور والتماثيل في دور العبادة. ووقعت المعارك بين المدافعين عن الإيقونيات وبين معارضيها فأدمت الكنيسة الشرقية وأضعفت الأمبراطورية البيزنطية.

كما رأينا، كانت نشأة الموارنة في شمالي سوريا، كمجموعة دينية، تبعت الراهب الناسك مارون (Maroun ou Maron)، واشتركت في النزاعات التي اجتاحت المنطقة، نزاعات دينية في البداية، ثم نزاعات دينية سياسية فيما بعد.

هذه النزاعات السياسية الدينية، استمرت بعد الفتح العربي الإسلامي للمناطق المحيطة بالجزيرة العربية؛ بعد انهزام البيزنطيين حلفاء الموارنة، بدأ النزوح الماروني باتجاه الجنوب، متتبعين المجرى العكسي لنهر العاصي، منهم من قال إن هذا النزوح، كان تلافياً لخطر اليعاقبة خاصة أن الموارنة خسروا حليفهم البيزنطي؛ وقد شجعهم على ذلك، استقرار الأوضاع في عهد ولاية معاوية، والتسامح الديني الإسلامي لغير المسلمين في عهده، وخاصة المسيحيين، (أعاد معاوية بناء كنيسة Edesse التي تهدمت على أثر زلزال، من مال لمسلمين) كما أنه كان يوجد الكثير من المستشارين المسيحيين في دار الخلافة، ومعاوية نفسه تزوج من امرأة مسيحية وهي أم وريثه يزيد)، ومنهم من قال إنهم اتجهوا ليحتموا بجبال لبنان الوعرة. وبعد القضاء

على الأمويين وحلول العباسيين مكانهم، انتهى العصر الذهبي للموارنة، لأن العباسيين أجبروا القبائل القاطنة في سوريا ومن أصل عربي، أن تعتنق الدين الإسلامي، وكانوا أقل تسامحاً من الأمويين مع أبناء الديانات الأخرى؛ قد يكون هذا الوضع الجديد هو سبب نزوحهم نحو جبال لبنان.

ومهما يكن من أمر، فقد توجه الموارنة إلى لبنان عبر طريقين: طريق الساحل ثم صعوداً داخل وادي قاديشا (الوادي المقدس) وطريق سهل البقاع ثم نحو الأرز.

استطاع الموارنة أن يقاوموا العباسيين، ولكنهم في النهاية، خسروا المعركة في بعلبك، فشتتهم السلطة العباسية في أنحاء سوريا، وقسماً منهم هاجر إلى قبرص والقسم الآخر عاد إلى معقله في الجبال اللبنانية. وبعد أن اضطر الشيعة مغادرة كسروان، أيام المماليك، حل مكانهم الموارنة، وفي عهد الأمراء المعنيين والشهابيين، تابعوا تنقلهم نحو الجنوب حيث المنطقة الدرزية وعملوا هناك مزارعين عند الملاكين الدروز. وفي عهد ابراهيم باشا واضطهاده للدروز، اضطر البعض من الدروز إلى مغادرة الشوف، فحل مكانهم الموارنة. وهكذا زادت أهمية الطائفة المارونية وأصبحت الأكثر عدداً؛ وانتشرت في كسروان، والشوف، وفي المدن الكبرى وخاصة بيروت، كما هناك تواجد لهذه الطائفة في المناطق الشيعية في الجنوب وبعلبك، وفي المناطق السنية في عكار وعند الدروز في وادي التيم.

وقد أثرت الحرب الأخيرة على هذا التوزيع الجغرافي، وعلى عدد الموارنة المقيمين في لبنان، لأنهم هاجروا لبنان أكثر من بقية الطوائف؛ ولاعتبارات ثقافية دينية، كان من السهل على الماروني التأقلم في بلاد الاغتراب أكثر من الشيعي أو السني أو الدرزي خاصة في الدول الأوروبية وأستراليا ودول أميركا الشمالية، وبالذات كندا حيث استقطبت عدداً كبيراً من اللبنانيين.

وحسب تقديرات العام ١٩٩٢ هناك ٦١,٦٥٣٨ ناخب ماروني من أصل ١,٢٤٦,٤٢٥ ناخب لبناني، أي أن الموارنة هم بنسبة ٢٥,٠٣ بالمئة من مجموع السكان[١].

(١) وزارة الداخلية، إدارة الأحوال الشخصية.

التوزيع الحالي لهذه الطائفة هو: بيروت العاصمة وأحياؤها الشمالية، منطقة بشري، كسروان، المتن وجزين.

خصائص الطائفة المارونية:

لقد رأينا كيف استقل الموارنة بكنيسة خاصة لهم هي الكنيسة المارونية، وأثناء الحروب الصليبية تعاطفوا مع مسيحيي الغرب. وفي سنة ١١٨٠ أعلنوا انضمامهم واعترافهم بالسلطة البابوية، ولكن الاعتراف بالبطركية المارونية من قبل البابا تأخر حتى القرن السابع عشر (سنة ١٦٠٨ م.)، وأثناء هذه الفترة تمتنت الصلة بينهم وبين الكاثوليك الأوروبيين، بفضل المبشرين الفرنسيسكان (franciscains) وتجسدت بفتح الكلية المارونية في روما سنة ١٥٨٦ م. والتي بقيت طوال ثلاثة قرون، تخرج رجال الدين الموارنة (في سنة ١٨٤٥ تم اجتماع غزير المشهور والذي أخذ على عاتقه مهمة الكلية المارونية في روما). وبعدما تقدم أصبح من السهل فهم التأثير الغربي على موارنة لبنان.

نظمت الكنيسة المارونية نفسها بشكل نهائي في الاجتماع الديني لجبل لبنان سنة ١٧٣٦ م. وفي سنة ١٩٦٦ تأسست مرجعية للموارنة المهاجرين في الولايات المتحدة، والذين يؤلفون نصف أبناء الطائفة في العالم.

(في العهود الأولى للكنيسة المارونية، كان سكان القرى يختارون رجل الدين (الخوري) من بينهم، رجل تجتمع فيه صفات الإيمان والنزاهة، عادل ومحق في تصرفاته، بدون الأخذ بعين الاعتبار وضعه المالي أو الاجتماعي، رجل يوحي بالاحترام، ولم يكن يتقاضى أجراً عن دوره الديني، وكان يزاول أعماله الزراعية كالمعتاد ليعيل عائلته، لأنه في أغلب الأحيان كان رب عائلة ومتزوج، وكان يُعرف الخوري المتزوج من الأعزب بلباسه الخاص فعلى رأسه قبعة سوداء وله ذقن طويلة. وكان هؤلاء الرجال يتلقون التعاليم الدينية قبل القيام بدورهم الكنسي، وإذا فقد الخوري زوجته فلا يحق له الزواج مرة ثانية. تقام الصلوات والتقوس الدينية باللغة السريانية واللغة العربية)[١].

---

(١) Andrie Chedid, «Liban, Petite Plantète» Seuil 1974.

رئيس الطائفة الديني هو البطريرك الماروني لأنطاكيه وسائر المشرق ويقيم في لبنان في بكركي، وسلطته تشمل جميع الموارنة في جميع أنحاء العالم. وحسب جيرار فيكيه (Gerard Figuie. Le Point sur le Liban éd. 96) يقدر عدد الموارنة بحوالي ٧٠٠,٠٠٠ نسمة.

خلال الحرب الأخيرة، تمثلت قوتها العسكرية بـ :

- الكتائب اللبنانية.
- النمور (الجناح العسكري) لحزب الوطنيين الأحرار.
- فوج المردة (اسم يعود تاريخياً إلى القوة العسكرية التي أرسلتها بيزنطة سنة ٦٨٩ م. لمحاربة الأمويين، والتي انقلبت فيما بعد ضد بيزنطة نفسها) أو جيش التحرير الزغرتاوي، نسبة لمدينة زغرتا معقل آل فرنجية.
- الرابطة المارونية.
- حراس الأرز.
- رابطة الرهبان الموارنة.

الروم الأرثوذكس

Les Grecs Orthodoxes

(Melkites)

تعاليم الروم الأرثوذكس، هي تعاليم مجمع الخلقيدوني (Chalcédoine) القائلة بنظرية الطبيعتين في السيد المسيح، ولا تعترف بالسلطة البابوية، بل بسلطة (بطريرك أنطاكية وسائر المشرق) ومكان إقامته دمشق، وبطاركة هذه الطائفة (بطريرك القدس، الاسكندرية، قبرص، اليونان) يعترفون فقط بفوقية السلطة الروحية لبطريرك استنبول، وليس بفوقية سلطته التأديبية والإدارية.

يقطن معظم الروم الأرثوذكس منطقة الكورة في شمالي لبنان، بيروت وبعض المدن الساحلية، وهم من العائلات الميسورة لأن أكثرهم من التجار أو الحرفيين، وهذا ما تدل عليه أسماؤهم: حايك، لحام، نجار، خياط، صباغ، صايغ.

بدأ قدومهم إلى لبنان في القرن الثامن، ولكن أكثرهم قدم إلى لبنان في عهد المماليك، وقسماً منهم قدم أيام أمراء المعنيين والشهابيين في بداية القرن السابع عشر. وفي بداية تواجدهم اصطدموا مع الموارنة ليس فقط بسبب الاختلاف المذهبي بل لتضارب المصالح بينهم، ولكن مصالحهم التقت من جديد فيما بعد، في القرنين السابع والثامن عشر وتبعوا الموارنة في انتقالهم إلى المناطق الدرزية.

بشكل إجمالي يتبع الروم الأرثوذكس سياسة عربية الروح، مما يشرح لنا التفاهم القائم بينهم وبين المسلمين، وليس لهم أحياء خاصة بهم فهم يعيشون في أحياء مختلطة، خاصة مع الطائفة السنية، ويمثلون ١٠ بالمئة من مجموع سكان لبنان، بعض المصادر تقدر عددهم بحوالي ٣٠٠,٠٠٠ نسمة.

اليعاقبة

Syrienne - Orthodoxe

(Jacobite)

هم من أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة، ولا يعترفون بالسلطة البابوية، وتعود سلطتهم الدينية إلى بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، ومكان الإقامة دمشق؛ ويتبع سلطته جميع أبناء الطائفة في العالم. يُقَدَّر عددهم في لبنان بنحو ٢٠,٠٠٠ نسمة.

الأرمن الأرثوذكس

Arménienne - grégorienne

سموا هكذا، بالنسبة للأرمن الكاثوليك، وكما أشرنا سابقاً، هذا الانقسام هو انقسام سياسي أكثر منه ديني، ومرجعيتهم كانت في سيس (Sis) في تركيا، ولكن بعد المجازر التي حلت بهم في بداية هذا العصر، نقلوا مرجعيتهم إلى لبنان وبالذات إلى منطقة أنطلياس شمالي بيروت. ومرجعية أنطلياس تشمل الأرمن الأرثوذكس المتواجدين في كل من سوريا، العراق ومصر. وهم حوالي ١٥٠,٠٠٠ نسمة في لبنان.

الطائفة النستورية

La Communauté Nestorienne

تكونت الطائفة النستورية من أشوريين وخلدانيين (Assyro - Chaldéens)، من أصل عراقي، قدموا إلى لبنان على أثر اضطهادهم في العراق سنة ١٩٣٣ م. ويؤمنون حسب نظرية نستوريوس (Nestorius) بطريرك القسنطينية، بأن الطبيعتين (الإنسانية والإلهية) في السيد المسيح منفصلتان، ولا يجتمعان إلاّ بإرادة الابن الرب، ويخلصون إلى أن الطبيعة الإنسانية فقط صُلبت وليست الطبيعة الإلهية. كانت مرجعيتهم موجودة في الولايات المتحدة، ولهم ممثل في لبنان. وبعد سنة ١٩٧٠ م. عادت مرجعيتهم لتستقر في بغداد، وعددهم التقريبي ١٠,٠٠٠ شخص.

الطوائف الإنجيلية

Communautés Evangéliques

يبلغ عدد الطوائف الإنجيلية حوالي اثني عشر طائفة، ومن هذه الطوائف ما لا يتعدى عدد مؤمنيها الألف شخص. ومن دون الدخول في التفاصيل نذكر منها: الطائفة الإنجيلية السورية اللبنانية وتعدادها حوالي ١٥,٠٠٠ نسمة، الطائفة الإنجيلية البيروتية تقارب ٥٠٠٠ شخص. . . وكل هذه الطوائف لا تعترف بالسلطة البابوية.

السريان الكاثوليك

Syrienne - Catholique

تفرّع السريان الكاثوليك عن السريان الأرثوذكس، واعترفت روما بكنيستهم عام ١٧٩٧ م. ومرجعيتهم الدينية ممثلة ببطريرك أنطاكية للسريان الكاثوليك، ويقدر عددهم بحوالي ١٥,٠٠٠ نسمة في لبنان.

الروم الكاثوليك

Grecs - Catholiques

تفرعوا عن الروم الأرثوذكس سنة ١٧٢٤ م. وهم يعرفون أيضاً باسم المالكيين (Melkites)، ومرجعيتهم الروحية تعود لبطريرك أنطاكية للروم المالكيين، ويقيم في دمشق، وتشمل سيطرته الروحية جميع أبناء الطائفة في العالم ويقدر عددهم في لبنان بحوالي ٢٥٠,٠٠٠ نسمة.

الخلدانيون

Chaldéenne

تفرعوا عن النستوريين (Nestoriens) واعترفت بهم روما سنة ١٨٢٨ م. وتعود مرجعيتهم الدينية إلى بطريرك بابل، ويقيم في بغداد، وعددهم يقارب ٦٠٠٠ شخص.

الأرمن الكاثوليك

Les Arméniens - Catholiques

سنخص الأرمن لاحقاً، بكتابة خاصة عنهم لأهميتهم العددية والسياسية وخاصة الاقتصادية، ونكتفي هنا فقط بالتعريف الديني. . . وهم فرع من الأرمن الغريغوريين (Arméniens - Grégoriens). انفصلوا سنة ١٧٤٠ م. وعددهم يقارب ٢٠,٠٠٠ نسمة.

الطائفة اللاتينية

Communauté Latine

أي الكاثوليك اللاتينيين، القلائل منهم هم من أصل لبناني، وأغلبهم من أصول غير لبنانية (حوالى ١١,٠٠٠ من أصل فلسطيني، حصل نصفهم على الجنسية اللبنانية! وحوالى ١٢,٠٠٠ من أصول مختلفة) فقط ٣٠٠٠ منهم من أصل لبناني، ويتبعون البابا بشخص ممثله في لبنان، الرسول البابوي.

الأقبـاط

Les Coptes

رأينا كيف انفصلت الكنيسة القبطية عن بيزنطة، وأصبحت كنيسة مستقلة، ومركزها الأساسي في مصر، وهم يؤمنون بالطبيعة الواحدة. أتباعها في لبنان قلائل ولا يتعدون الألفي شخص وهم من أصل مصري، (تجنس منهم ٧٠ شخصاً!) وأخيراً دُشنت كنيستهم (كنيسة سان مارك Saint Marc) في لبنان من قبل البطريرك شنودة الثالث بطريرك الاسكندرية وسائر أفريقيا.

الطائفة اليهودية

La Communauté Israélite

يعود التواجد الديني اليهودي في لبنان، إلى القرن العاشر الميلادي، ولكن الأكثرية قدمت لبنان في القرن الثامن عشر، قادمة من المغرب العربي، حيث استقروا في بادىء الأمر في دير القمر بمنطقة الشوف، ومنها انتقلوا إلى بيروت (حي وادي أبو جميل، حيث بنوا لهم كنيسة هناك) وبعض المدن الساحلية الأخرى، وبعد إقامة «دولة إسرائيل» بسنوات، وخاصة بعد سنة ١٩٧٠ غادر أكثرهم لبنان؛ وبعد أن كان تعدادهم حوالي ١٥,٠٠٠ نسمة سنة ١٩٥٨ م. أصبحوا الآن أقل من ألف نسمة. وفي ٢ نيسان/ أبريل ١٩٥١ نُظمت رسمياً أمور هذه الطائفة، وبذلك حصلت على اعتراف رسمي وإداري قبل أكثر بقية الطوائف اللبنانية الأخرى. تعود مرجعيتها لهيئة إدارية مؤلفة من ١٧ عضواً، ولهم محكمتهم الشرعية للأحوال الشخصية كباقي الطوائف اللبنانية الأساسية.

الطائفة الإسلامية

الشيعة

تضاربت الآراء حول الجذور الأولى للتشيع واختلفت، حتى بين المذاهب التي تفرعت عن المذهب الشيعي الأم، وسنرى ذلك بالتفصيل لاحقاً، فمنهم من أرجع جذورها إلى يوم الاختلاف على الخلافة بين الإمام علي ومعاوية:

لقد تشعبت الديانة الإسلامية إلى فرق متعددة متخالفة في الفروع كبقية الأديان التي تقدمتها. ولقد كان من أسباب هذا الافتراق الفجائع التي حدثت في صدر الإسلام، تلك الفجائع المؤلمة التي أبقتها الجاهلية إرثاً ممقوتاً؛ فالضغائن التي وجدت في الصدر الأول للإسلام لم تكن غير وليدة الضغائن الجاهلية، بل هي هي وإن اختلفت أسماؤها ومظاهرها وكناها. وتعصب قوم من المسلمين لعلي وقوم آخر لمعاوية هو قضية الهاشمية والأموية التي لعبت دوراً مهماً في التاريخ العربي قبل الإسلام واستوعبت أغلب صفحات تاريخ الإسلام تحت اسم الشيعة والسنة»[١].

ومنهم من ذهب إلى أبعد من ذلك، وأعاد جذور التشيع إلى عصر النبي محمد ﷺ. «إن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو صاحب الشريعة الإسلامية نفسه. يعني أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنباً إلى جنب، وسواء بسواء، ولم يزل غارسها يتعهدها بالسقي والعناية حتى نمت وأزهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته»[٢].

كما وجب الإشارة إلى أن كلمة (شيعي)، في البداية كانت تعني من والى آل بيت محمد ﷺ، بشخص الإمام علي وذريته؛ وأما الآن فهي تعني من يؤمن بالاثني عشر إماماً من ذرية علي. وهذا ما يشرح لنا بعض الفروقات البسيطة بين المذاهب

---

(١) «تاريخ العلويين» محمد أمين غالب الطويل. دار الأندلس. ص ٧٧.

(٢) أصل الشيعة وأصولها «الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء. دار الأضواء ص ١١٨.

الشيعية العديدة مثل الاسماعيلية والعلوية والزيدية وغيرها؛ وكثير من المذاهب التي تشعبت من الشيعة وانقرضت كالخطابية والبزيعية والناووسية والأفطحية وغيرها العديد والتي كانت في أكثر الأحيان حصيلة اجتهاد رجال دين محليين (أولياء).

وبما أن هدفنا دراسة الطوائف اللبنانية، فسنكتفي بالكتابة عن الطائفة الشيعية الاثني عشرية والملقبون (بالمتاولة والجعفرية)؛ مع الإشارة إلى بعض الطوائف الأخرى التي تفرعت منها. وسنبدأ بوضع الإطار التاريخي لنشوء المذاهب الشيعية.

في سنة ٦٣٢ توفي الرسول ﷺ في المدينة، دون أن يترك وريثاً ذكراً له؛ فبدأ الخلاف على الرياسة، وطفت من جديد الخلافات القديمة، وبدأت المطالبات بخلافته:

- طالب بها الأنصار لأن النبي توفي عندهم.
- وطالب بها القريشيون.
- ومنهم من أرادها لأهل بيت النبي ﷺ.

فاختلفت الآراء وتضاربت، فمنهم من أراد الخلافة أن تكون شورى بين المسلمين، وعرفوا فيما بعد بأهل السنة؛ ومنهم من أرادها وراثة لأهل بيت الرسول ﷺ وعرفوا فيما بعد بالشيعة. (الشيعة هم القائلين بالخلافة للإمام علي).

واللافت للانتباه، أن الإمام علي لم يطالب بحقه في الخلافة، ولم يكن بين المجتمعين من المسلمين للنظر في أمر هذه الخلافة في بيت سقيفة بن ساعدة؛ والشيعة يعللون غياب علي عن هذا اللقاء المهم بين وجهاء المسلمين لعدة أسباب:

إخلاصاً من علي ومن باب الوفاء للرسول ﷺ، تابع الاهتمام به حتى بعد وفاته؛ لأنه كان في خدمته يهتم بجثمانه؛ ثم تطبيقاً لوصيته بألاّ يطالب بالخلافة «يا علي أنت مثال الكعبة إذا أتوك القوم فاقبل منهم وإن لم يأتوك فلا تأتهم» وحفاظاً منه على وحدة المسلمين، لم يطالب علي بحقه في الخلافة.

علماً أنه في حجة الوداع (في السنة العاشرة للهجرة) وأثناء عودة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة وبالذات في منطقة «خم» بين مكة والمدينة، بايع الرسول (علياً

امتثالاً لأمر ربه)[1] بقوله: «من كنت أنا مولاه فعلي مولاه، اللهم والي من والاه وعادي من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله وأدر الحق معه كيفما دار» وبايع علي من كان برفقة الرسول ﷺ؛ ويعتبر العلويون هذا التاريخ بداية «العلوية» ومن بايع علي ذاك اليوم من الصحابة هم أصل العلويين.

فبغياب الإمام علي وبمبادرة من عمر بن الخطاب، اختار المجتمعون أبا بكر خليفة للمسلمين؛ (مما لم يكن من رأي كبراء بني هاشم، فامتنعوا عن مبايعته، أمثال الزبير وعتبة ابن عم الرسول ومقداد بن عمر بن ثعلبة بن أسود الكندي وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري وغيرهم).

بايع الإمام علي أبا بكر بعد مضي ستة أشهر على خلافته؛ وهنا لا بد لنا أن نشرح طبيعة الخلاف بين مسلمي ذاك الزمان، مما يسهل لنا فهم بعض المواقف.

كان الاختلاف بين المسلمين عن طبيعة الخلافة، هل تشمل فقط السلطة الدينية؟ أم تشمل أيضاً السلطة المدنية السياسية؟ عن مَنْ أحق بها؟ هل هي حكر على فرد من المسلمين؟ أم أنها تعود لأي فرد مسلم؟ وهل هي موقوفة على فئة من المسلمين دون غيرها؟ وفي هذه الحال؛ لمن تعود؟ إلى الأمويين أم إلى الهاشميين؟ أم هي محصورة في أهل بيت النبي وحدهم؟ وفي هذه الحال هل نفصل بين الإمامة والسلطة المدنية؟ أسئلة كثيرة اختلف حولها الرأي، فأدت إلى اختلاف المسلمين فيما بينهم، وهذا أخطر ما واجه الدين الإسلامي من خطر، لأن مضاعفاته وللأسف لا تزال قائمة حتى يومنا هذا.

بالنسبة للشيعة، فإن مبايعة علي لأبي بكر هي مبايعة بالخلافة فقط (أي السلطة الإدارية) وليس بالإمامة (أي السلطة الدينية) لأن الإمامة حق خاص للإمام علي وذريته من بعده، وهي أمر من السماء، بلغة الرسول ﷺ في حجة الوداع في غدير خم.

دامت خلافة أبي بكر سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام؛ حارب فيها المرتدين عن الدين الإسلامي من القبائل العربية، التي عادت إلى معتقداتها القديمة، وجهز جيشاً

---

(١) «تاريخ العلويين» محمد أمين غالب الطويل. دار الأندلس. ص ١٢٠

قوياً استطاع هذا الجيش فيما بعد أن ينشر الإسلام في الأقطار الواقعة خارج الجزيرة العربية.

وجاء من بعده عمر بن الخطاب، الذي استعاض عن اسم الخليفة بلقب (أمير المؤمنين) ودامت خلافته عشر سنوات.

وفي السنة ٢٣ للهجرة تولى الخلافة بعد عمر بن الخطاب، الخليفة عثمان بن عفان والذي أدى مقتله إلى فتنة بين المسلمين، ذهب في سبيلها الكثير من الضحايا؛ وكانت من أسباب الخلاف والمعارك بين الإمام علي ووالي الشام معاوية بن سفيان.

بعد مقتل الخليفة عثمان تمت البيعة للإمام علي، وأصبح رابع الخلفاء الراشدين، ونقل مركز الخلافة للكوفة، وأبدل الولاة وأكثرهم من الأمويين المعارضين لخلافته، مما لم يُرضِ هؤلاء فأدى إلى نزاع انتهى بالمواجهة العسكرية بينه وبينهم.

تولت عائشة زوجة الرسول ﷺ قيادة المعارضين لخلافة الإمام في مكة ومعاوية في بلاد الشام؛ وانتهت المعارضة بمواجهة مسلحة بين الفريقين؛ في وقعتين شهيرتين في التاريخ الإسلامي.

وقعة **الجمل** (نسبة لجمل عائشة حامل هودجها أثناء القتال) وكانت الغلبة فيها لأنصار الإمام علي.

ووقعة **صفين**؛ سنتوقف قليلاً عندها لأهميتها، لأنها كانت نقطة انطلاق الشرخ الخطير الذي أصاب وحدة المسلمين، وتفرقهم إلى مذاهب مختلفة.

بعد وقعة الجمل واستتاب الأمر للإمام علي في كل من العراق وبلاد فارس وخراسان واليمن، طلب من معاوية مبايعته والاعتراف بسلطته فلم يستجب؛ عندها جهز الإمام علي جيشاً لإجبار معاوية على الانصياع، وكذلك فعل معاوية بأن تقدم بجيشه لملاقاة جيش الإمام، وهكذا التقى الجيشان على ضفاف الفرات في منطقة «صفين» وبدأ القتال ودام مئة وعشرة أيام، قُتل فيه الكثير من الطرفين، وفي حين بدأت بوادر الهزيمة بين عساكر الشام، عمد عمرو بن العاص حليف معاوية إلى مكيدته الشهيرة؛ فأمر برفع المصاحف على الرماح، وطالب بأن يحتكم الجميع بما

يأمر به القرآن الكريم: «هذا بيننا وبينكم». . . وانقسم أتباع الإمام نتيجة ذلك، إلى من رأى بها خدعة ومكيدة وآخرون رأوا أنها وسيلة احتكام لا يجوز رفضها، خاصة أنها العودة والاحتكام لكتاب الله!

وتم الاتفاق على أن يختار كل من معاوية ومن علي ممثلاً له، وأن يقبلا بحكمهما وذلك بموجب كتاب الله. . . وتم الاجتماع بين الحكمين في منطقة «الأدرج» وبعد خلوتهما خرجا ليعلنا حكمهما، وأعلن ممثل الإمام علي أبو موسى الأشعري القرار، بعزل كل من علي ومعاوية، وأن تترك الخلافة شورى بين المسلمين؛ ثم جاء بعده ممثل معاوية عمرو بن العاص ليقول: «سمعتم ما قاله أبو موسى الأشعري وأنه خلع موكله علياً، فأنا أيضاً أخلع علياً وأبقي معاوية لأنه ولي عثمان وصاحب دعوى دمه. فيكون أحق بالخلافة من غيره!»[١].

أما وقعة صفين، فبعد أن قسمت المسلمين إلى محازبين لمعاوية (عرفوا بالسنة) ومحازبين لعلي (عرفوا بالشيعة) أوقعت الخلاف بين أتباع الإمام أنفسهم، فبعد اختلاف الآراء حول متابعة القتال أو القبول بالتحكيم، انشقت جماعة أخرى عن الإمام، غير راضية بما حصل، وصممت القضاء على علي ومعاوية معاً، وسُمِّيت **بالخوارج** (لخروجهم عن طاعة الإمام).

«والخوارج هم أقدم الفرق الدينية السياسية في الإسلام. وقد كانوا قبل خروجهم من أصحاب علي ثم انقلبوا عليه وأصبحوا من أشد خصومه وقد ناهضوا بقوة السلاح مبدأ حصر الإمامة بقريش، وسعوا إلى إقرار المبادىء الديمقراطية التي جاء بها الإسلام فقاموا بثورات وحروب جرت فيها الدماء غزيرة طيلة القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام. وكان من عقائدهم التي ظهرت وتبلورت بعد خروجهم بزمن إن أنكروا وقبحوا كرامة الأولياء وما يحيط بذلك من عبادة ومراسم وزيارة إلى قبور الصالحين وحرموا أيضاً الطرق الصوفية. . . ويعرف من فرق الخوارج فرقة تسمى الأِباضية (بكسر الألف وتفتح في العامية) نسبة إلى عبد الله بن إباض وهو أكثر

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٦.

مؤسسي الفرق الخارجية تساهلاً. والأِباضة اليوم منتشرون في الجزائر وطرابلس الغرب وعمان وزنجبار»[1][2].

بعد انفصال الخوارج بقي مع الإمام علي أنصاره المخلصين، وعرفوا بالشيعة. ولكن التشيع كمذهب ديني بنظر فقهاء الشيعة يعود إلى ما قبل هذا التاريخ: (الشيعة في اللغة هم الأتباع والأنصار). وبعد أن بيّنا المعنى المراد من هذا اللفظ والذي أصبح علماً عليه، لم يبق مجال للريب أن فكرة التشيع قد تكونت قبل هذه الأزمنة التي حددها أكثر الكتاب وأنها رافقت فجر الإسلام يوم كان النبي صلى الله عليه وآله يغذي بأقواله فكرة التشيع لعلي عليه السلام، ويمكنها في أذهان المسلمين ويأمر بها في مواطن كثيرة على اختلاف المناسبات.

وأول ما بدأ بها في مكة المكرمة، يوم أن أنزل الله عليه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. فجمع النبي عند ذلك بني هاشم وأنذرهم كما أمره ربه ثم قال: «أيكم يؤازرني ليكون أخي ووارثي ووزيري وخليفتي فيكم بعدي». فكانت هذه الحادثة البذرة الأولى التي زرعها في تكوين فكرة التشيع لعلي عليه السلام»[3].

بعد المواجهة بين معاوية وعلي، تم التكامل وتجسدت فكرة التشيع بأنصار الإمام علي وكانت الانطلاقة لتاريخ الشيعة كفرقة دينية وبداية تطبيق مبدأ الإمامة، (وكانت مسألة الإمامية من أبرز المسائل الخلافية بين المسلمين وساعدت على تعدد الفرق وأحدثت فجوات واسعة بينهم أكثر من أي مسألة أخرى. وكانت ولا تزال من أبرز ما حدث بينهم وأسوأها أثراً على مسيرة الإسلام وتطبيق مبادئه خلال تلك القرون المتتالية من تاريخه)[4].

«الإمام بموجب نظام الإمامة المناقض لرأي أهل السنة هو رأس الجماعة

---

(١) «تاريخ العرب» د. فيليب حتي، د. إدوار جرجي، د. جبرائيل جبور. دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع. ص ٣١١.

(٢) «الانتفاضات الشيعية». هاشم الحسيني. دار الكتب الشعبية. بيروت ـ لبنان. ص ١٢.

(٣) الحسيني، هاشم، أصول التشيع، دار القلم، بيروت ـ لبنان. ص ١٦ ـ ١٧.

(٤) المصدر السابق.

الإسلامية الشرعي دون سواه وقد اختصه الله بهذا المنصب السامي. وهو من آل البيت من ذرية فاطمة وعلي ويجمع بين الرئاسة الروحية والدينية والزمنية. وهو وارث سر القوة الخارقة التي انتقلت إليه عن سلفه أي أنه اختص بالعلم الذي يتوارثه الأئمة، وهكذا فهو أعلى من البشر. وقد قال علماء الشيعة بعصمة الأئمة بل جنح بعض غلاتهم إلى الاعتقاد بتجسد الألوهية في الإمام. وحسبوا علياً وأولاده الأئمة سلسلة متصلة الحلقات للحلول الإلهي المتمثل في الشكل البشري»[١].

وفي كتابه: «الانتفاضات الشيعية»، يقول هاشم معروف الحسيني عن الخلافة: «... إن الشيعة يرونها كالنبوة لا رأي ولا اختيار لأحد فيها وأمرها يرجع إلى الله وحده فهو الذي يختار للإمامة من يراه صالحاً لها كما يختار لرسالته، وليس للأمة شأن أو رأي في ذلك لأن مهمة الإمام امتداد لمهمة النبي».

وفي كتاب «أصل الشيعة وأصولها»، للإمام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء يقول: «ولكن الشيعة زادوا ركناً خامساً هو الاعتقاد بالإمامة، ويعني أن يُعتقد أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، ويؤيد بالمعجزة التي هي كنص من الله عليه، فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه، وأن ينصبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقوم بها، سوى أن الإمام لا يُوحى إليه كالنبي وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهي، فالنبي مبلغ عن الله والإمام مبلغ عن النبي، والإمامة متسلسلة في اثني عشر وكل سابق ينص على اللاحق، ويشترطون أن يكون معصوماً كالنبي عن الخطأ والخطيئة وإلاّ لزالت الثقة به».

وهكذا بدأت الخلافة الوراثية مع معاوية ومع الخليفة علي بدأت الإمامية.

ونكتفي بهذا القدر من الآراء لأنه كُتب الكثير في هذا الموضوع، ونتابع توالي الأحداث التاريخية.

---

(١) د. فيليب حتي، د. إدوار جرجي، د. جبرائيل جبور، «تاريخ العرب»، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع. ص ٣١٢.

في سنة ٦٦١ م. اغتال الخوارج الإمام علي، وذلك حسب ما خططوا له يوم انشقاقهم وخروجهم عن طاعته، على يد عبد الرحمن الخارجي في الكوفة ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان، وكان له من العمر حوالي خمس وستون سنة تقريباً.

وتطبيقاً لمبدأ الإمامة، أصبح الحسن بن علي الإمام الثاني، ولكنه اضطر إلى مبايعة معاوية بشروط، منها الكف عن شتم أهل البيت وشتم والده الإمام علي. (إلى جانب الاقتتال بين بني أُمية وبني هاشم ظهرت عادة شتم كل فريق للآخر من على المنابر، والحمد لله أن هذه العادة السيئة قد انقرضت) ولكن معاوية لم يف بوعده وتتبع الشيعة بأشد أنواع العذاب، ومات الإمام الحسن مسمماً من قبل زوجته جعدة بنت الأشعث، وذلك بطلب من معاوية وابنه يزيد بعد أن وعدها هذا الأخير بالزواج منها في حال موت الحسن، وبعد أن نفذت إرادته طالبته بالوفاء بوعده، فتنكر.

بعد وفاة الإمام الحسن، انتقلت الإمامة إلى أخيه الحسين، وبعد وفاة معاوية وتسليمه الخلافة لإبنه يزيد، أرسل يزيد إلى أمير المدينة ليأخذ له البيعة من الإمام الحسين، فرفض الإمام مبايعته، وتجمع حوله الناقمون والمعارضون لحكم بني أمية، وكان أكثرهم من الفقراء ومن أصول غير عربية عرفوا بالمحرومين (تسمية استعملت أثناء الحرب اللبنانية) خاصة أهل الكوفة في العراق، فاستغاثوا بالحسين، ولكن عندما جاء لنصرتهم خذلوه وتراجعوا عما تعهدوا به، فقاتل الإمام جيش يزيد مع نفر من وجوه شيعته، حتى الشهادة، واستشهاد الإمام الحسين يعتبره الشيعة من أشهر الحوداث في تاريخ الإسلام وأفجعها وأشرفها[1].

بعد استشهاد الحسين، توالت الإمامة في: علي بن الحسين، محمد الباقر، جعفر الصادق، موسى القاظم، علي الرضا، محمد الجواد، علي الهادي، الحسن العسكري، المهدي محمد بن الحسن (الإمام الثاني عشر من أئمة الشيعة) وهو الإمام المنتظر، والشيعة لا يقولون بأن حياته على وفق المألوف من حياة البشر، وإنما يرون

---

(١) «أصول التشيع» هاشم الحسيني. ص ١٩٥.

أن ذلك لأمر اقتضته مشيئة الله سبحانه واحتجابه لا يمنع من إمامته، وسيخرج في الظرف المناسب، ليميت الباطل ويحيي الحق، فمنذ أن اختفى الإمام الثاني عشر محمد أو تغيب في كهف بجامع سامرا وكان شاباً ولم يترك ذرية، أصبح الإمام المستتر أو الإمام المنتظر، وهو عندهم حي لا يموت في حالة غيبة مؤقتة وهو المهدي الذي سيظهر فيحكم العالم قاطبة ويرجع الدين الحقيقي ويكون ظهوره فاتحة عصر يسبق نهاية العالم(١).

وهكذا تعود تسمية الشيعة الإمامية فقط لمن آمن بالاثني عشر إماماً حسب الترتيب السابق، (فمن زاد واحداً أو أنقص لا يصدق عليه هذا الاسم).

وقد تفرع عن الشيعة الإمامية، فرق أخرى كثيرة، ذلك أن الشيعة كانوا مضطهدين من قبل السلطة المركزية، ومثلهم مثل الطائفة الدرزية عمدوا إلى تطبيق مبدأ التقية حماية للأئمة وللمذهب من الملاحقة؛ خاصة في الأيام العصبية، فكانت أخبار الأئمة تغيب عنهم في بعض الأحيان، وتلتبس الأمور، وهذا ما حصل بعد وفاة الإمام جعفر الصادق، لأنه ترك من الأولاد موسى ومحمد وإسحق وعلي وعبد الله وإسماعيل ويحيي والعباس وغيرهم من الإناث. والإمام لم يرشد إلى خليفته بشكل واضح، ونظراً للخطر المحدق لم يكن الإعلان عاماً، بل خص به الخواص من شيعته وبنيه؛ من هنا جاء الالتباس، ونشأت فئات شيعية جديدة، وذلك حسب من والوا من أبناء الإمام جعفر الصادق. منهم من قال بإمامة إسماعيل، وهم أبناء الطائفة الإسماعيلية، ومنهم من قال بإمامة عبد الله الأفطح وغيره. وهكذا تفرعت خمس فرق جديدة عن الطائفة الشيعية الاثني عشرية.

ينفرد الشيعة عن بقية المذاهب الإسلامية ببعض الممارسات، منها اعترافهم بشرعية المتعة (أي العقد إلى أجل مسمى) ويدافعون عنها: «ومن تلك الشرائع مشروعية المتعة. فلو أن المسلمين عملوا بها على أصولها الصحيحة من العقد والعدة والضبط وحفظ النسل منها لانسدت بيوت المواخير وأوصدت أبواب الزنا والعهار

---

(١) «تاريخ العرب» مصدر سبق ذكره. ص ٥١٣.

ولَقَلَّت ويلات هذا الشر على البشر ولأصبح الكثير من تلك الموسات المتهتكات مصونات محصنات ولتضاعف النسل وكثرت المواليد الطاهرة، واستراح الناس من اللقيط وانتشرت صيانة الأخلاق وطهارة الأعراق إلى كثير من الفوائد والمنافع التي لا تعد ولا تحصى، ولله در عالم بني هاشم وحبر الأمة عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) في كلمته الخالدة الشهيرة التي رواها ابن الأثير في «النهاية» والزمخشري في «الفايق» وغيرهما حيث قال: «ما كانت المتعة إلاَّ رحمة رحم الله بها أمة محمد ولولا نهيه عنها ما زنى إلاَّ شقي»[1].

ومن تقاليد الشيعة، زيارة القبور، ومقاومة الحاكم الجائر.

يدير شؤون الطائفة الشيعية «المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى» ويرأسه عالم ديني؛ وللمذهب محاكمه الخاصة «المحكمة الجعفرية» التي تطبق تعاليم المدرسة الجعفرية، نسبة للإمام جعفر الصادق.

هذه لمحة بسيطة عرَّفنا بها عن الطائفة الشيعية، والآن سنحاول معرفة وصول الشيعة إلى لبنان:

اللافت للانتباه، أنه رغم محاربة الأمويين والعباسيين للمذهب الشيعي، استطاع هذا المذهب أن ينتشر في بلاد الشام، معقل الأمويين، وفي العراق مركز العباسيين، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المذهب الشيعي جسَّد المقاومة ضد السلطة المركزية، ولذلك انضم إلى صفوفه، المضطهدين والمعذبين من قبل السلطة الحاكمة الجائرة، وكما أشرنا أصبح رمزاً (لحركة المحرومين)؛ وفي مراحل صعبة اضطر أبناء هذه الطائفة إلى التخفي والعمل بمبدأ التقية، مام يجعل من الصعب تتبع تنقلاتهم، كما كانوا في بعض الأحيان عرضة للنفي القصري، لإبعادهم وإضعافهم. والثابت هو أن التشيع انطلق من الحجاز ثم انتقل إلى الكوفة في العراق، ومن الكوفة انتشر إلى إيران (في القرن السابع الميلادي، وزواج الإمام الحسين من ابنة ملك الفرس ساعد على هذا الانتشار الإيراني) حيث شيدت أول حاضرة شيعية خارج بلاد العرب، هي «قم».

---

(١) «أصل الشيعة وأصولها» مصدر سبق ذكره ص ٢١٠.

بعد انتصار معاوية واستشهاد الإمام الحسين، نفى معاوية قسماً من الشيعة إلى سواحل لبنان وجباله القليلة من السكان في ذاك الوقت؛ وهكذا كانت القبائل الشيعية أول القبائل العربية التي سكنت لبنان. وهذا يبين لنا وجود الشيعة قديماً في طرابلس حتى سنة ١١٠٩ م. وفي منطقة «الضنية» في شمال لبنان حتى القرن الخامس عشر، ومنطقة جبال كسروان، والمتن الأعلى وفتوح كسروان، حيث لا يزال التواجد الشيعي في منطقة جبيل حتى يومنا هذا. ومنطقة بعلبك أو «البقاع البعلبكي» شيعي السكان منذ القدم، باستثناء بعلبك المدينة وقرية يونين حيث كانت مركزاً حنبلياً، وكذلك الحال بالنسبة لجبل عامل والقرى القائمة في وادي نهر الليطاني[١].

المعترف به أن تشيع سكان «جبل عامل» عائد لفضل الصحابي أبي ذر الغفاري (عام ٦٥٢ م) «أنه في زمن عثمان، لما أخرج أبا ذر إلى الشام، بقي أياماً فتشيع جماعة كثيرة، ثم أخرجه معاوية إلى القرى، فوقع في جبل عامل، فتشيعوا من ذلك اليوم» (مقدمة أمل الآمال ١/ ١٣). وهذا ما يثبت أن السواحل والجبال اللبنانية كانت منفى للشيعة أيام معاوية، وهؤلاء المبعدين نشروا بدورهم تعاليم مذهبهم من حولهم وصبغوا مكان تواجدهم باللون الشيعي، وأما التنقلات داخل الأراضي اللبنانية فيما بعد فكانت نتيجة الاضطهاد الذي أصاب الشيعة من قبل المماليك والأتراك، وعلى أثر النزاعات الطائفية الداخلية. (شيعة منطقة كسروان، قاوموا المماليك مدة ثلاثة عشر سنة إلى أن انهزموا سنة ١٣٠٥ وتشتتوا من جديد، وحل مكانهم الموارنة)؛ وكذلك طرد الشيعة من المدن الساحلية، سوى من مدينة صور حيث لا يزال التواجد الشيعي حتى يومنا هذا. في القرن السادس عشر نزح قسم من شيعة بعلبك وأقاموا في جبل لبنان بمنطقة جبيل، بشري وكسروان ولكن في عهد الشهابيين طردوا من هذه المناطق وعادوا إلى منطقة بعلبك من جديد، واضطر كثير منهم إلى اعتناق مذاهب وديانات أخرى.

---

(١) «التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا». الشيخ جعفر المهاجر ـ دار الملاك ـ بيروت، لبنان، ص ١١.

رغم الوجود الشيعي في لبنان كانت هذه الطائفة مُستبعدة عن الحياة السياسية للمنطقة، خاصةً في العهد العثماني، لأن العثمانيين لم يكونوا معترفين حتى في شرعية القوانين الدينية للطائفة، ودليلنا على ذلك أنه في عهد القائمقاميتين، كان التنظيم كما يلي: على رأس كل قائمقامية يوجد قائمقام (درزي لقائمقامية الجنوب ومسيحي لقائمقامية الشمال) مُعين من قبل باشا صيدا، يُساعد القائمقام مجلس مُؤلف من قاض ومستشار لكل طائفة (السنية، الدرزية، المارونية، الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك) الطائفة الشيعية كانت مُمثلة فقط بمستشار، وأما الأمور الشرعية، فكان يبت في أمرها القاضي السني[١].

وجب الانتظار حتى عهد المتصرفية عام ١٨٦٧، حيث اعترف العثمانيون أخيراً بالوجود السياسي للشيعة، لأنه في عهد المتصرفية أصبح لبنان مقاطعة عثمانية ذات إدارة ذاتية، على رأسها مُتصرف مسيحي كاثوليكي تركي الجنسية ولكن ليس لبناني يُعين من قبل الباب العالي، ويجب أن توافق على تعيينه الدول الست ضامنة الاتفاق، يساعده في إدارة البلاد مجلس إدارة مُؤلف من اثني عشر عضواً، أربع أعضاء موارنة، ثلاثة أعضاء دروز، عضوين روم أرثوذكس، عضو روم كاثوليك، عضو سني وعضو شيعي. بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى، دخلت جيوشها جبل لبنان، وألغت قوانين المتصرفية، واعتبرت جبل لبنان قطعة من الأمبراطورية العثمانية، وأصبح المتصرف مسلماً. وهنا جاء المتصرف الشيعي إسماعيل حقي بك (٩١٧ ـ ١٩١٨).

وازداد التمثيل الشيعي بعد الاستقلال، حيث أُعطيت الطائفة الشيعية رئاسة السلطة التشريعية حسب العرف اللبناني (رئاسة المجلس النيابي).

واستطاعت بعض العائلات الشيعية في فترة من الفترات أن تسيطر على بعض المناطق اللبنانية: طرابلس، بعلبك (حرفوش، حمادة).

حالياً يتواجد الشيعة في:

الجنوب اللبناني، سهل البقاع، بعلبك ومنطقة جبيل، وبعد الحرب اللبنانية

---

(١) «تاريخ لبنان». كمال صليبي. مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان ١٩٩٢، ص ١٣٠.

الأخيرة زاد تأثيرهم وعددهم في العاصمة بيروت وخاصة في الضاحية الجنوبية. وبغياب الإحصاء الرسمي فإنه من الصعب معرفة عدد الشيعة الصحيح، ولكن حسب وزارة الداخلية، وفي سنة ١٩٩٢ قُدِّر عددهم بنسبة ٢٥,٠٨ بالمئة من سكان لبنان الإجمالي. ولكن الواقع أن عددهم أكثر من ذلك ولا يقل عن ٣٣ بالمئة، وذلك لاعتبارات دينية اجتماعية اقتصادية، فتزايد النسل عند الشيعة يفوق بكثير تزايد النسل عند بقية الطوائف، وبعد الحرب اللبنانية، أصبحت أحياء كاملة من العاصمة أحياء شيعية، بينما كانت هذه الأحياء قبل الحرب سنية أو مارونية أو أحياء مختلطة، ومثال على ذلك الضاحية الجنوبية.

أثناء الحرب اللبنانية، أفرزت الطائفة الشيعية: حركة المحرومين بجناحها العسكري «أمل»؛ وحزب الله، الذي يقود المقاومة العسكرية ضد الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان.

ولكل من «أمل» و«حزب الله» ممثلين في المجلس النيابي اللبناني؛ ونظراً لتعاظم دور هذه الطائفة العددي والسياسي، أصبح من الصعب أخذ أي قرار بشأن لبنان، بدون موافقتها.

السنَّة

السُنة هي من أكثر الطوائف الإسلامية انتشاراً في العالم الإسلامي، وعُرفت بهذه التسمية لتطبيقها تعاليم القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، التي تناقلت إلى المسلمين بواسطة الحديث، المروي شفهياً في بادىء الأمر من قبل الصحابة، والذي دُوِّن لاحقاً.

يعترف السُنة بشرعية الخلفاء الراشدين الأربعة أبو بكر، عمر، عثمان وعلي، ولكنهم عكس الشيعة لا يعترفون بشرعية الإمامة.

يوجد أربع مدارس فقهية عند السنة: الشافعية، الحنبلية، الحنفية والمالكية. والطائفة السنية في لبنان تطبق تعاليم المدرسة الحنفية، والرئيس الروحي لهذه الطائفة يُعرف باسم «مفتي الجمهورية» ويُنتخب لمدى الحياة، وهو يدير شؤون الطائفة الدينية

وممتلكاتها «الأوقاف»؛ وجميع الدوائر للطائفة توجد في «دار الفتوى».

استقر أبناء هذه الطائفة في لبنان أيام المماليك؛ إذ بعد سيطرة المماليك على الفاطميين في مصر توجهوا إلى البلاد السورية، حيث حاربوا المسيحيين والشيعة معاً، متهمين هاتين الطائفتين بمساندة الصليبيين ضد الدولة السنية. وهكذا نرى مرة أخرى بأن جميع الطوائف اللبنانية كانت عرضة في وقت من أوقات التاريخ، أن تكون ظالمة أو مظلومة. وكثر هم أبناء هاتين الطائفتين الذين اعتنقوا المذهب السني، تلافياً لثأر واضطهاد المماليك لهم. وهذا ما يدل على أن أي طائفة لبنانية لا تستطيع القول بنقاء عرقها، وأنها من أصل واحد، فالواقع أن كل طائفة هي حصيلة اختلاطات عرقية ومذهبية حصلت بين أبناء هذه الطوائف، تحت تأثيرات سياسية خارجية، أو تحت تأثير الإرساليات التبشيرية الدينية، ويكفي أن نستعرض أسماء بعض العائلات اللبنانية لنرى داخل العائلة الواحدة: السني والشيعي والدرزي والمسيحي.

أدت سيطرة المماليك العسكرية إلى استقرار أتباع الطائفة السنية والتمركز في المدن الساحلية خاصة بيروت، طرابلس وصيدا (الوجود السني في جبل لبنان هو شبه معدوم، ونجد عدداً قليلاً منهم بين الشيعة في بعلبك وقسماً في وادي التيم، يقال إن هذه الأقلية في الأصل كانت شيعية أو درزية، وعملاً بمبدأ التقية اعتنقت المذهب السني أيام المماليك، ومع مرور الزمن، انتهت بأن نسيت جذورها وحافظت على مبدأها الجديد)، وكان عددهم إلى تزايد، لأن الموقع التجاري لهذه المدن شجع بقية أبناء الطائفة السنية القاطنين داخل سوريا ومصر والمغرب العربي، القدوم والإقامة في لبنان؛ وعرف لبنان ازدهاراً تجارياً وأصبح المركز التجاري الرئيسي للشرق الأوسط، ولا يزال أبناء الطائفة السنية إلى يومنا يزاولون التجارة في طرابلس وصيدا وهم كُثُر أيضاً في بيروت. ويوجد في شمال لبنان أيضاً مجموعات سنية من أصل تركماني وكردي، عمل المماليك على استقرارهم في هذه المناطق لمراقبة السكان المحليين.

أثناء حرب ١٩٧٥ تمثلت قوتها العسكرية في بيروت بحركة «الناصريين المستقلين» (المرابطون)؛ ولم تكن عناصر هذه الحركة فقط من الطائفة السنية، بل كان هناك الكثير من المقاتلين الشيعة.

وفي طرابلس ظهرت حركة ٢٤ تشرين أول/ (أكتوبر) أو «الحركة الديمقراطية الاشتراكية»؛ التي أسسها فاروق المقدم سنة ١٩٦٩ .

وحسب المصادر الإسلامية، فإن السنة يبلغ عددهم حوالي ٨١٥,٢٤٤ نسمة، في حين أن المصادر المسيحية تقدر عددهم بحوالي ٥٨٠,٠٠٠ نسمة!

المسلمون الموحدون (الدروز)

تعرضت هذه الطائفة الكريمة إلى الكثير من الأذى والتجني من قبل كاتبي التاريخ وكتّاب كتب الإثارة؛ مستغلين سرية المذهب الدرزي وقلة الكتابة عن تعاليم الطائفة من قبل أبنائها، فأطلقوا العنان لمخيلاتهم وتصوراتهم، فزوَّروا الحقائق التاريخية وشوهوا التعاليم الدينية لهذا المذهب. واحتراماً منا للحقيقة التاريخية، نستقي أكثر معلوماتنا من كتّاب أحد أبناء هذه الطائفة[١] .

ولكي نكوِّن فكرة عن نشأة المذهب الدرزي، لا بد لنا أن نرجع بالتاريخ إلى القرن التاسع عشر؛ ولا داعي للتذكير أن تاريخ الدروز ملتحم بالتاريخ العربي الإسلامي؛ في هذا العصر، ضعفت الخلافة العباسية، خاصة بعد موت الخليفة هارون الرشيد، حيث دب الخلاف بين ولديه على تولي الخلافة، مما زاد في ضعف السلطة المركزية، ففقدت السيطرة على المقاطعات البعيدة وانتهت أن فقدت سيطرتها حتى على العاصمة بغداد.

في هذه الفترة، أسس عبيد الله المهدي، وهو من سلالة الإمام علي، الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا (نسبة إلى فاطمة الزهراء، ابنة النبي محمد ﷺ وزوجة الإمام علي) وأعلن نفسه خليفة في قيروان سنة ٩١٠ . وبفضل جيشه القوي مد سلطته على المغرب وسيسيليا. والمعروف عن الفاطميين تدينهم وتشددهم في تطبيق التعاليم الدينية، فرغبة منهم في التوسع وفرض احترام التعاليم الدينية كما كانت أيام

---

(١) «تاريخ المسلمين الموحدين الدروز» د. صالح زهر الدين. المركز العربي للأبحاث والتوثيق ـ بيروت ـ لبنان. الطبعة الثانية ١٩٩٤ .

الرسول ﷺ، وتحت راية الخليفة الفاطمي الرابع المعز وبقيادة أبو الحسين جوهر بن عبد الله المعروف بجوهر الصقلي، دخل الفاطميون مصر بحجة مجون أهلها وتساهلهم في تطبيق التعاليم الدينية، وهنا نورد الرواية التالية مستقاة من نفس المرجع المشار إليه سابقاً والتي كانت المبرر لغزو مصر.

«إن أم الأمراء زوجة الخليفة المعز ـ أرسلت إلى مصر صبية للبيع، فعرضها وكيلها في السوق وطلب فيها ألف دينار، فأقبلت إليه امرأة أنيقة فتية على حمار وساومته على ثمنها، واشترتها منه بستمائة دينار، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هي ابنة الأخشيد محمد بن طغج، وأنها اشترت الصبية لتستمتع بها لأنها تهوى الصبايا الحسان؛ فلما عاد إلى المغرب حدث المعز لدين الله بأمرها، فدعا المعز شيوخ القبائل، وروى لهم الوكيل حادثة الصبية، عندئذ قال المعز: «يا إخواننا انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شيء، فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم، تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها، فقد ضعفت نفوس رجالهم وذهبت الغيرة منهم، فانهضوا بنا إليهم».

وهكذا تمت السيطرة الفاطمية على مصر في سنة ٩٦٩، وبعد مصر بسط الفاطميون سيطرتهم على كامل الشرق العربي؛ وهنا نتوقف قليلاً لنشير أن القائد العسكري جوهر هو الذي أسس جامع الأزهر (بين سنة ٩٧٣ وسنة ٩٧٥) وهو الذي وضع حجر الأساس لمدينة جديدة، هي القاهرة وجعل منها عاصمة للفاطميين حيث انتقل إليها الخليفة المعز سنة ٩٧٥.

فبعد أن انطفأت شعلة بغداد الثقافية الدينية، أصبحت القاهرة العاصمة الثقافية الدينية الجديدة للعالم الإسلامي؛ وسياسة الفاطميين كانت:

أولاً: مقاومة الانحراف الثقافي الذي بعد عن الخط التقليدي للثقافة الإسلامية وتأثر بالثقافة اليونانية القديمة وغلب عليه طابع المجون، فلم يتورع شعراء العهد العباسي أن يكتبوا في مواضيع كانت غير مستحبة قبلهم، كالكتابة التي تتطرق للحب والعلاقات الجنسية والكيف.

ثانياً: الدعوة للعودة إلى التعاليم الدينية كما كانت أيام الرسول وخلفائه الراشدين.

فبقدر ما كان الانفلات الخلقي (بنظر الفاطميين) كبيراً وخطيراً على المسلمين، كان تشددهم في فرض التعاليم الدينية وسن القوانين بهذا الاتجاه.

في هذا الوضع وبعد وفاة الخليفة العزيز سنة ٩٩٦ وصل أبو علي المنصور الذي جعل من السلطة الدينية أساساً للحكم، إلى الخلافة وأعطى نفسه لقب: الحاكم بأمر الله.

وهنا لا بد لنا أن نتوقف قليلاً لنتكلم عن الخليفة أبي علي المنصور أو (الحاكم)، لأنه يختلف عن بقية الخلفاء، لما أثار حوله من اهتمام، وخاصة أنه أصل العقيدة الدرزية.

ولد الخليفة أبو علي المنصور المعروف باسم الحاكم بأمر الله، في ١٣ آب/أغسطس من سنة ٩٨٥ م. وهو وريث وابن الخليفة العزيز. أثارت تصرفاته وخاصة سلوكه اليومي، وتعلقه الزائد بممارسة الواجبات الدينية الكثير من التساؤلات حول شخصيته، ولا يزال الانقسام قائماً حتى يومنا هذا، بين من يرى في تصرفاته الورع والتقى والإيمان والطهارة، والمبشر لنظرية دينية جديدة، ومن يرى أن هذه التصرفات تدخل في إطار الشواذ.

ومهما كانت الآراء حول شخصه لا بد لنا أن نعترف بميزاته التالية:

- حبه للعلم والعلماء، فهو مؤسس دار الحكمة، حيث كان يلتقي العلماء ورجال الفكر للمداولة وتبادل الأفكار وخاصة الدينية منها، في عصر كثرت فيه المذاهب؛ فهو الذي حول جامع الأزهر إلى جامعة دينية وعلمية، ولا تزال إحدى معاقل الفكر الإسلامي حتى اليوم.

- إعتاقه العبيد، رغم تأصل هذه العادة في مجتمع ذاك الوقت، وهو قرار حكيم وشجاع.

- زهده وتدينه، إذ ترك حياة الترف والرفاهية والتعلق بالأمور الدنيوية، لينصرف

للعبادة بكل تواضع وخشوع، حتى أنه كان يمتطي دابته قاصداً أعلى مكان في القاهرة، للعبادة والصلاة، في جبل المقطم.

هذه بعض مزايا الخليفة الحاكم بأمر الله؛ وانسجاماً مع ذاته سنَّ القوانين وأعطى الأوامر وشدد على تطبيقها ومعاقبة مخالفيها بقساوة؛ منها:

- منع زراعة الكرمة، منعاً لتصنيع الكحول.
- منع النساء من مغادرة منازلهن ومخالطة الرجال، منعاً للزنى.
- حرَّم على النساء الكشف عن وجوههن في الطرقات، كما حرَّم عليهن التزين والتبرج.
- حرم البكاء والعويل على الموتى.
- كما أمر بأن تبقى أبواب الحوانيت مشرَّعة طوال الليل، برهاناً على استتباب الأمن وقوة السلطة.
- أصدر أوامر بمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير، كما أنه منع الناس من التجول والخروج من منازلهم من الغروب إلى الفجر.

طبعاً هذه الأوامر على غرابتها زادت في التفسيرات، فمنهم من رأى فيها قرارات محلية لإصلاح المجتمع المصري ذاك الوقت، ومنهم من أعطوها صفة زهد صوفية وآخرون اعتبروها ممهدة لإعلان دعوة دينية جديدة.

وزاد الأمر غموضاً، اختفاء الحاكم بأمر الله بشكل مفاجىء في ١٣ شباط (فبراير) سنة ١٠٢١، حيث وجدت ثيابه مزررة على ضفة بحيرة، ولهذا كثرت التفاسير: البعض عزا هذا الاختفاء المفاجىء إلى مؤامرة على حياته من قبل أخته (ست الملك)، بواسطة أنصارها من قبيلة كتامة، والبعض الآخر اعتبره لغزاً على مرِّ الأيام.

لا يعتقد الموحدون الدروز مطلقاً بموت الحاكم، وينتظرون عودته بفارغ الصبر. فهو بالنسبة إليهم دخل في الغيبة مستتراً، وينتظرون رجوعه كالمهدي المنتظر[1]. (الحاكم لم يمت من الضربات التي صبت عليه، فقد أسعفه عجوز

(١) المصدر السابق، ص ٢٥.

مجهول، وتغلب على هذه الليلة القاضية، حيث دبَّرت أخته ست الملك اغتياله؛ وكونه زاهد في العرش، تنحى لينقطع للعبادة في صحراء عمون ليضع أسس دعوته التي نشرها إمامه حمزة. وطرد أتباعه بعد موته من القاهرة، فلجأوا إلى لبنان حيث ألَّفوا مجموعة دروز لبنان الحالية، وذلك عامي ١٠١٧ و١٠١٨ أي قبل موت الحاكم)[١].

قبل اختفائه، وفي سنة ١٠١٨ ميلادية، أعلن الحاكم الدعوة التوحيدية الدرزية؛ وتعتبر هذه السنة سنة الكشف؛ سنة انطلاقة الدعوة بلسان الداعي محمد بن إسماعيل المعروف بلقب نشتكين الدرزي؛ ولكن الحاكم قلد الإمامة إلى حمزة بن علي الزوزني، كبير الدعاة، مما أثار غضب نشتكين الدرزي، وكردة فعل ارتد هذا الأخير عن الدعوة، وأعلن العصيان ومحاربة الإمام حمزة. ولذلك فإن أبناء الدعوة، يفضلون تسمية «المسلمين الموحدين» أو «الأعراف»، على تسمية الدروز؛ ويعتبرون الإمام حمزة المبشر الحقيقي لمذهب التوحيد وواضع فلسفته وليس نشتكين الدرزي؛ وإن كان الدرزي أول من نشر الدعوة في منطقة ديار الشام ووادي التيم في لبنان (لقد انتهى الدرزي قتيلاً عندما هاجم وأنصاره الإمام حمزة في مسجد ريدان في القاهرة.

وبعد موت الدرزي، عمل حمزة على جمع حركة التوحيد تحت لوائه؛ ونشر عقيدة الانبعاث الكونية للواحد الأحد والعودة إليه بمعرفة روحية إنسانية، ومن هنا جاءت تسمية أتباعه بالموحدين.

ولكن كما الشيعة، كذلك الدروز تعرضوا كطائفة دينية إلى الاضطهاد حتى من قبل الخلفاء الفاطميين أنفسهم، لأنهم لا يعترفون بأي خلافة بعد خلافة حمزة، وكذلك كالشيعة عمدوا إلى مبدأ التقية (أي التخفي باعتناق المذهب السائد ظاهرياً والبقاء على مذهبهم ضمنياً) وذلك حماية للمذهب من الإبادة. وعمد الإمام حمزة على إقفال الدعوة سنة ١٠٤٣ م. (أسدل الستار وأغلق الباب ونشف الحبر وانكسر القلم)[٢]. وتخفى حمزة.

---

(١) «Voyage en Orient Imprimérie». Gerard Nerval. National editions. 1997, pp. 117.

(٢) =Alem Jean- Pierre et Bourrat: Presses Universitaires de France, 1991, que sais-je 4 è

اعتمد الموحدون سرية المذهب؛ وفقط العقال أو الأجاويد يلمون بأصول المذهب، وهم متفرغون للصلاة والعبادة... وأما بقية أبناء الطائفة فيطلق عليهم لقب **الجهّال** لا لكونهم غير مطلعين على تعاليم مذهبهم بل لأنهم غير منصرفين انصرافاً كلياً لتطبيق تعاليم هذا المذهب. وتسمية جاهل هنا لا تعني عدم المعرفة، بل تشير إلى كل من لا يتفرغ كلياً للأمور الدينية.

ليس المقصود في هذه الدراسة شرح فلسفة مذهب الموحدين، مما يتطلب دراسة خاصة؛ ولا تكفي لذلك دراسة بسيطة كدراستنا، ولكن المقصود إعطاء فكرة مبسطة عن مذهب الموحدين يستوعبها الجميع، وذلك للتوضيح ووقفاً للتجني وإلصاق التهم المبنية على خلفيات وتصورات لا تمس للواقع بأي صلة. لذلك سنذكر فقط وبدون الدخول في التفاصيل، الأركان الأساسية لعقيدة التوحيد:

(١) ـ صدق اللسان:

وهو من أول الواجبات المقدسة لدى الموحدين؛ يمثل (رأس الإيمان لأنه يمثل العقل، والكذب أصل البهتان لأنه يمثل الشيطان). ولكن هذا لم يمنعهم من ممارسة مبدأ **التقية** وهو مبدأ مشترك بين جميع المذاهب المتفرعة عن المذهب الشيعي، وذلك كما قلنا حماية للمذهب ووقاية من الاضطهاد؛ وهذا ما تعبر عنه العامة بالقول: إن الكذب في سبيل الدين حلال.

(٢) ـ حفظ الإخوان أو التعاون المتبادل:

وهو الواجب الثاني، لأن التعاون المتبادل مع مبدأ التقية يحمي المذهب من الانقراض، وهذا ما يعبر عنه المشايخ المتقدمين بالسن بقولهم: الدروز مثل طبق النحاس أينما ضربت عليه بإصبعك، يعطيك صوتاً واحداً.

(٣) ـ التبرؤ من عبادة العدم والبهتان:

أي التبرؤ من عبادة الأصنام، لأنه فيه إشراك بالله الواحد الأحد، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للموحدين.

= edition, pp. 14 «Patrick: de Liban».

(٤) ـ البراءة من الأبالسة والطغيان:

ويقصد المرتدين عن المذهب، أمثال الدرزي والبردعي والحبال. . . إلخ.

(٥) ـ توحيد الخالق في كل عصر وزمان ودهر وأوان:

دلالة إضافية على تعلقهم بالعقيدة الكونية للواحد الأحد.

(٦) ـ الرضا والتسليم:

وهو نوع من القدرية، بأن يتقبل المؤمن بكل رضى الإرادة الإلهية وما يمتحنه الله به من مصائب.

هذه هي أركان دعوة التوحيد الأساسية، وتطبيقها والتقيد بها واجب على كل أبناء الطائفة.

أماكن العبادة:

يمارس الدروز واجباتهم الدينية في منازلهم بصورة منفردة، أو مجتمعين في دور العبادة، وهي مقسمة إلى:

ـ مجلس (مركزي ديني، يوجد عادة على مكان مرتفع، تؤمّه عائلة أو مجموعة عائلات من قرية واحدة للعبادة مساء كل خميس، وليالي العشور أي الليالي العشر التي تسبق عيد الأضحى).

ـ خلوة (مركز ديني لجميع عقال الطائفة، ومكان يختلي فيه الأتقياء للانصراف الكلي للعبادة، كما يتحول إلى مركز تجمع سياسي إذا لزم الأمر؛ وأشهر هذه الخلوات هي خلوات البياضة، بالقرب من حاصبيا).

وكلاهما يتميز بالبساطة، ويخلوان من أي زينة أو تماثيل ولا يوجد سوى البسط الضرورية للجلوس. وأما كيف تمارس العبادة؟ فسنسرد ما ورد في كتاب الدكتور صالح زهر الدين (تاريخ المسلمين الموحدين الدروز ص ٤٨).

«أما في (المجلس)، حيث يجتمع عقّال القرية، يقوم أحد مشايخها، والذي يسمى بـ(سايس المجلس) بمهمة المسؤول عن شؤونه، مشرفاً على الاجتماعات

الدينية الأسبوعية ذات المراحل الثلاث:

١ ـ تستغرق المرحلة الأولى تسعين دقيقة. وباستطاعة كل درزي أن يشارك فيها شرط ارتداء الثياب الخاصة بشيوخ الدين: سروال أسود وعمامة ذي لون أبيض أو قلنسوة بيضاء (مختلفة عن القلنسوة اليهودية)، ترمز إلى النقاء والصفاء، وتقتصر على الوعظ والإرشاد فقط.

٢ ـ وتستغرق المرحلة الثانية ثلاثين دقيقة زيادة عن الأولى. وهي مخصصة للذين تقدموا في اطلاعهم على العقيدة. مستفسرين حول بعض التعاليم التي يتضمنها مذهب التوحيد قبل (تسلّم الدين) والسماح لهم في الاطلاع على كتب العقيدة.

٣ ـ وتستغرق المرحلة الثالثة ساعتين ونصف الساعة بعد المرحلتين الأوليتين. وهي مخصصة لكبار المشايخ الذين تخطوا الشروط الواجبة لانتقالهم إلى هذه المرحلة. وبالنسبة لهم، تمثل هذه المرحلة (دور الكشف) والتعمق في أسرار المذهب. بيد أن ليلة عبد الأضحى هي الوحيدة التي يستمر فيها كبار المشايخ ممارسة فروضهم الدينية حتى الصباح.

وإذا كان ذلك حال العقّال الرجال، فكذلك الحال بالنسبة للنساء المتدينات. فهن يخضعن أيضاً لنفس النظام ونفس المراحل، كل منهن حسب تقدمهن في معرفة تعاليم العقيدة.

وجميع هؤلاء العقّال لا يأكلون ولا يشربون أبداً في منزل موظف يقبض ماله من خزينة الدولة، أو في منزل آخر يشعرون أن ماله ذي شبهة أو اكتسبه بطريقة غير مقبولة. (الأجاويد العقّال نوعان: الأتقياء المتبحرون بالعلم، المنقطعون في خلوات إلى الصلاة والزهد، والأجاويد العاديون، الذين ألموا بشؤون دينهم وثابروا على صلاتهم وعبادتهم دون أن ينقطعوا عن الناس).

وكل درزي يستطيع أن يصبح (موحداً) وذلك بعد خضوعه لتجربة قاسية يمتحن خلالها صدق توبته. ولا يمكن لأي موحد، رجل كان أو امرأة أن يقبل في عداد الموحدين، إلاّ بعد اجتياز هذه المرحلة مثبتاً فيها أهليته التوحيدية».

على رأس الطائفة يوجد شيخ العقل، وهو الزعيم الروحي ورئيس المحكمة الدرزية، ويتمتع هذا المركز باحترام جميع أبناء الطائفة.

للدروز بعض العادات والتقاليد الخاصة بهم: مثل احتفاظهم بالألقاب (المقدمين، الأمراء، الشيوخ...). التزاوج فيما بينهم (الدرزي لا يتزوج إلاّ من درزية. ولا بد لنا أن نعترف للطائفة الدرزية أنها من الطوائف القليلة التي أعطت المرأة حقوقها ومساواتها مع الرجل، مما سمح للمرأة أن تقوم بدورها كاملاً في المجتمع الدرزي.

هذه فكرة جد موجزة عن مذهب المسلمين الموحدين؛ لقد كتب الكثير عن الدروز، وكذلك الكثير من المغالطات، ونتمنى أن يكتب أبناء الطائفة عن مذهبهم، وخاصة ما يتعلق بروحية المذهب الدينية. قد يكون الاهتمام الزائد بالعقيدة الدرزية عائد لسرية المذهب وصعوبة الحصول على المراجع الدينية، مما ترك المجال مفتوحاً أمام التفسيرات المختلفة، وأكثرها مغرضة.

هذا الاهتمام يعود إلى ما قبل عصرنا هذا، وعلى سبيل المثال: يقول جيرار نرفال في كتابه[١]:

(في الواقع، لا تخلو أي ديانة حديثة من معتقدات متشابهة. ولنقل أكثر، إن الإيمان الدرزي يحتوي من جميع الديانات ومن كل الفلسفات السابقة).

الدروز لا يعترفون إلاّ بإله واحد هو الحاكم؛ غير أن هذا الإله، مثل بوذا الهنود، ظهر على العالم تحت عدة أشكال مختلفة. تقمص عشر مرات في أماكن مختلفة على هذه الأرض؛ في الهند أولاً، وبعدها في بلاد الفرس، في اليمن، في تونس وفي أماكن أخرى. وهذا ما نسميه (المحطات).

وبعده تأتي خمس وزارات، منبعثة مباشرة من الألوهية، وتحمل أسماء الملائكة جبرائيل، ميكائيل، إسرافيل، عزرائيل، ومتاترون؛ ويرمز إليهم بالذكاء،

---

(١) مصدر سبق ذكره. Gerard Nerval, pp. 64.

النفس، الكلام، السابق واللاحق. ثلاث وزارات أخرى أقل أهمية تسمى رمزياً التطبيق، الانفتاح والشبح؛ ولهم كذلك أسماء الرجال التي تقع على تقمصاتهم المختلفة، لأنهم هم أيضاً يتدخلون من وقت إلى آخر بما يصيب الإنسانية من صعوبات.

وهكذا في تعاليم الدروز، الوزير الأساسي يسمى حمزة، وهو كجبرائيل ظهر سبع مرات؛ سمي بها شانتيل أيام آدم، وبعدها بيتاغور، داوود، شعيب؛ وفي زمن المسيح، كان المهدي الحقيقي وعرف بأليازار؛ وفي عصر الرسول محمد ﷺ عرف بسلمان الفارسي، وأخيراً تحت اسم حمزة، وكان نبي الحاكم، خليفة وإله، وهو المؤسس الحقيقي للديانة الدرزية.

هذا الاعتقاد حيث السماء تهتم بشؤون الإنسانية، وعصور التدخل سميت ثورات. وفي كل مرة ينسى الإنسان واجباته، الكائن الأعلى وملائكته يتقمّصون أشكال الرجال لإعادة الأشياء إلى نصابها. في هذا المعتقد الكثير من التقارب مع الديانات السابقة وأحياناً الكثير من الأفكار المشتركة.

يُعرف الدروز كذلك باعتقادهم في التقمص: النفس بعد الموت تسكن في جسد آخر ولكن في نفس الجنس، أي نفس الذكر تسكن جسد ذكر آخر، والنفس الأنثى تسكن جسد أنثى.. (عند ولادة طفل درزي تتقمّص به روح درزي متوفي)[١].

هكذا نشأت العقيدة الدرزية، وأسست أول مجتمع متماسك لها في لبنان؛ انطلاقاً من وادي التيم حيث كانت تسكنه الطائفة الشيعية السبعية أي الإسماعيلية، ولقي رسول الحاكم الحفاوة نظراً للتقارب الموجود بين هذه الطائفة والفاطميين؛ وهذا ما يؤكده الأمير شكيب أرسلان أن آل معروف (الدروز) «خرجوا من الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة وأن نحلتهم اسماعيلية فاطمية، ولكن انشقاقهم عن الشيعة مضى عليه نحو عشرة قرون فتراخت الصلة».

كما كثرت المغالطات والتفسيرات عن العقيدة الدرزية، كذلك وقعت

---

(١) مصدر سبق ذكره. Le Liban, Jean Pierre Alem, pp. 15.

المغالطات في تحديد أصلهم، رغم ما أعلنه أعيان ومفكرو هذه الطائفة عن أصلهم العربي. بعض المؤرخين نفى أصلهم العربي وأرجعه إلى الصليبيين! وإلى الإنكليز، (كما ادعى الفاتيكان بأن الدروز الموحدين يضربون لأعراق رومانية كاثوليكية)، وادعى اليهود أن الموحدين هم من السلالة السليمانية؛ وآخرون أعادوا أصلهم إلى الفرس والشركس والهنود... إلخ؛ علماً أن العودة لتاريخ العائلات الدرزية تبين لنا أصلهم العربي بما لا يقبل الشك؛ فهم يتحدرون من القبائل العربية الاثنتي عشرة التي كانت تقيم منذ الفتح العربي في معرة النعمان؛ وهذا ما يقرّ به أبناء الطائفة أنفسهم وهذا هو الأهم... (بعد لبنان انتقل قسم من الدروز على أثر أحداث ١٨٦٠ الطائفية إلى القرب من أنسبائهم في منطقة حوران، مما أضعف عددهم وقلَّل من سلطتهم السياسية السابقة).

تعرَّضت الطائفة الدرزية أكثر من بقية الطوائف الأخرى، لنشاط الإرساليات الدينية الأجنبية ولحملات التبشير، التي انتهت بأن نجحت في تحويل بعض أبناء الطائفة عن مذهبهم واعتناقهم الديانة المسيحية، كما أن قسماً منهم عمل بمبدأ التقية وتستر باعتناق مذاهب أخرى ولعدة أسباب بقي على اعتقاده الجديد.

كما تعرضت إلى الاضطهاد من قبل ابراهيم باشا، حيث جنَّد الشباب الدروز وأرسلهم إلى القتال في مناطق بعيدة؛ وبعد الانتفاضة الدرزية ضد تصرفاته التعسفية، قاتلهم ونهب كتبهم الدينية ونفى زعماءهم، مما أضعف الطائفة الدرزية. وعندما رجع هؤلاء إلى ديارهم من جديد بعد سنة ١٨٤٠ وجدوا عائلاتهم مشتّتة وفي حالة ضُعف وفقر. في حين أن الموارنة لم يصابوا بأذى في هذه الفترة، بل ازدادوا قوة وأصبحوا أغنياء وامتلكوا أراضي الدروز أنفسهم، وتصرَّفوا معهم تصرُّفاً فيه الكثير من التعالي والإثارة.

لقد ضعف دور الدروز السياسي عن السابق، ولكنهم لا يزالون يلعبون دوراً مهماً في الحياة السياسية اللبنانية الحالية؛ في البداية كانت السلطة داخل الطائفة بين أيدي رجال الدين، غير أن الامتيازات التي أُعطيت لرجال الإقطاع والقدرة المالية لهؤلاء انتهت بهم إلى أن تقاسموا السلطة الزمنية، مع أصحاب السلطة الدينية؛

فأصبح رجال الدين يلعبون دور الوسيط بين أبناء الطائفة وبين القادة السياسيين.

على رأس السلطة الدينية يوجد (شيخ العقل) وهو الرئيس الروحي للطائفة، ورئيس المحكمة الشرعية الدرزية. لقد نجح الأمير بشير في تقسيم مشيخة العقل إلى مشيخة يزبكية وأخرى جنبلاطية، وكي يزيد الإنقسام هوّة، أضاف شيخاً ثالثاً؛ وعادت مشيخة العقل إلى وحدتها بفضل سماحة الشيخ محمد أبو شقرا، في أوائل السبعينات؛ ووجدت دار الطائفة الدرزية في بيروت، التي وضع حجر أساسها في ١٦ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٥٢.

ونظراً لغياب الإحصاءات الصحيحة (لأسباب أصبحت معروفة لدى الجميع)؛ يقدر عدد الدروز بحوالى ١٥٠,٠٠٠ نسمة يسكنون وادي التيم، الشوف، المتن وبيروت؛ وذلك حسب ما أعلنته سكرتارية الطائفة الدرزية.

تعليق

بعد هذا التعداد السريع لأهم الطوائف اللبنانية، نستطيع القول إن لبنان هو البلد الوحيد في العالم من جهة كثافة الطوائف الدينية والمذهبية فوق أرضه؛ حيث يوجد أكثر من ١٧ طائفة على مساحة ١٠٤٥٢ كلم مربع؛ هذا العدد الضخم على هذه المساحة الصغيرة يؤدي حكماً إلى احتكاك بين هذه الطوائف، وفي غياب السلطة المركزية القوية والعادلة، يتحوّل هذا الاحتكاك إلى اقتتال بين هذه المجموعات؛ خاصة أن كل مجموعة لها ماضيها وتحمل في ذاكرتها الجماعية تاريخها الخاص، بما فيه من آلام وأحداث مريرة من تهجير واضطهاد وخوف، مما حملها على المحافظة على عاداتها وتقاليدها الخاصة، بل وتنمية هذه العادات والتقاليد وتقويتها حتى تحافظ على وحدتها الداخلية وترابط أبنائها، وغالت في الشعور والطقوس الدينية والتعاليم المذهبية لدى أجيالها، فزرعت التباعد والخوف من الآخر.

هذا الخوف والحذر من الآخر كوّن الأرضية الخصبة التي نبتت فيها التبعية عند هذه الطوائف والاستزلام للقوى الخارجية. من السهل القول بأن الاقتتال بين هذه المجموعات، هو اقتتال طائفي مذهبي ديني، والواقع أن ما حصل بين هذه الطوائف، ظاهره ديني ولكن باطنه اجتماعي اقتصادي مطلبي. لأن الاقتتال لم يكن يوماً بسبب المعتقد الديني، فلم تحاول أي طائفة أن تمنع طائفة أخرى من ممارسة طقوسها الدينية على هواها، أو تنتقد تعاليمها الدينية، بل الخلاف كان حول المكاسب والامتيازات والسيطرة السياسية بين هذه الطوائف. وكي تصل كل طائفة إلى غاياتها كانت ترفع شعاراتها المذهبية، لتشد اللُحمة بين أبنائها فيزداد تأثيرهم على الجهاز الحاكم ويحصلون بالتالي على أكبر نسبة من الامتيازات. وفي غياب السلطة المركزية القادرة، كثيراً ما كانت تتضارب المصالح بين هذه الطوائف، وينتهي بها الأمر إلى استعمال القوة والتقاتل فيما بينها.

الاقتتال لم يكن دائماً كما يظهره البعض بهذه البساطة: اقتتال بين المسلمين من

جهة والمسيحيين من جهة أخرى. الاقتتال كونه مطلبي سياسي اقتصادي، كان يدور في بعض الأحيان بين مذاهب الدين الواحد، كما كانت هناك تحالفات طائفية من ديانات مختلفة، أي تحالف طائفة مسلمة مع طائفة مسيحية ضد طائفة مسلمة أخرى، والعكس صحيح، وهذا دليل على أن الاقتتال كان لمصالح ومكاسب اجتماعية اقتصادية سياسية، وليس فقط لأسباب دينية، ومثالنا على ذلك: استقبال الدروز للموارنة في الشوف ومساعدتهم في بناء كنائسهم ومعابدهم. كما أننا نورد ما يلي: عندما قرّر الدروز بقيادة شبلي العريان سنة ١٨٤١ م مهاجمة مدينة زحلة، تصدّى له مسيحيو زحلة وهم من الروم الكاثوليك بمساندة بعض القبائل الشيعية من منطقة بعلبك؛ وأوقعوا الهزيمة في القوات الدرزية بالقرب من شتورا وفي قب الياس في ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر)، كما أن الروم الأرثوذكس ساعدوا الدروز ضد الموارنة، عندما كان البحث قائماً حول إنشاء القائمقاميتين (قائمقامية جنوبي جبل لبنان للدروز وقائمقامية شمال جبل لبنان للموارنة). وطالب الروم الأرثوذكس بواسطة روسيا بقائمقامية ثالثة خاصة بهم، طالبين الاستقلال عن السيطرة المارونية، وهذا ما أجبر أسعد باشا أن يغير لقب القائمقام حيدر أبو اللمع (قائمقام المسيحيين) إلى (قائمقام الموارنة)! كما أنه في عهد القائمقام بشير أحمد تضاربت المصالح بين طائفتي الروم الأرثوذكس والموارنة، وبتشجيع من القائمقام اضطهد الموارنة أبناء طائفة الروم الأرثوذكس، وهم من أبناء الدين الواحد. وشهد القرن السابع عشر اقتتالاً حاداً بين الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس في سوريا، مما أدّى إلى هجرة عدد كبير من الروم الكاثوليك إلى جبال لبنان. وسنذكّر بالاقتتال المميت بين دعاة الإيقوانية (Iconoclaste) وبقية المسيحيين.

الاقتتال بين مذاهب الدين الواحد لم يكن فقط عند المسيحيين، بل كذلك شهد الدين الإسلامي اقتتالاً عنيفاً بين السنّة والشيعة، والدروز والسنّة. وللأسف لا يزال الخلاف والقتال بين الحين والآخر قائماً بين السنّة والشيعة إلى يومنا هذا خاصة في باكستان. والتاريخ العربي الإسلامي ما هو إلاّ سلسلة اقتتال بين مختلف المذاهب الإسلامية: الفاطميين باسم الشيعة والمماليك والأتراك باسم السنّة.

هذا الاقتتال بين المذاهب داخل الدين الواحد وبين المذاهب من أديان مختلفة ما هو إلاَّ دليل قاطع على سوء النظام الطائفي، لأنه حكماً يقوّي النزعات العصبية العرقية العشائرية المذهبية، ولا يتماشى مطلقاً مع بناء مجتمع حديث، تسوده العدالة والمساواة، بل يتعارض كلياً مع بناء المجتمع الديموقراطي (أي أن الأفراد هم أحرار ومتساوون منذ الولادة)، والحكم ينبع من إرادة مجموع هؤلاء الأفراد الذين يؤلفون المجتمع. أو بصورة أخرى كما قال لنكلن (Lincoln): «هي حكم الشعب بواسطة الشعب ولأجل الشعب؛ أي الالتحام بين الحاكم والمحكوم...» الواقع أنه في ظل النظام الطائفي، لا وجود للفرد، لأنه لا وجود للفرد خارج طائفته، وبالتالي لا يمكن أن يكون المجتمع الطائفي ديموقراطياً. في ظل النظام الطائفي قد نصل إلى **تركيبة ديموقراطية** (أي مجلس نواب مُنتخب من الشعب)، ولكنها تركيبة خاوية من معناها الديموقراطي الصحيح، المظهر هو ديموقراطي وأما الواقع فهو تقاسم طائفي ونزاع مستمر على السلطة بين الطوائف. في هذا النظام الطائفي يصبح الفرد حبيس طائفته، مُجبراً بالدفاع عنها (كما كان سابقاً يدافع عن العشيرة!) **ظالمةً كانت طائفتك أم مظلومة**. ولقد ذهبنا في لبنان بعيداً في تطبيق النظام الطائفي حتى أصبح بلاءً على أهله، فوضعنا المذهب على الهوية، (أين الديموقراطية؟ أين حرية الفرد؟ هل استشرنا أصحاب العلاقة؟.) وكم من اللبنانيين الذين دفعوا حياتهم ثمناً لهذه البدعة اللبنانية، وكم نريد من الأموات حتى نقتنع بوجوب إلغائها؟ هذه سنوات ونحن نسمع بالنية في إلغائها، ولا نزال ننتظر.

نحن لسنا ضد الطوائف، فهي محفوظة الحقوق الدينية وتمارس طقوسها بكل حرية، ولكن نحن ضد **الطائفية** أي العصبية المذهبية واستغلال العواطف الدينية لإثارة النعرات الطائفية للحصول على مكاسب سياسية اقتصادية دنيوية ليس فيها أي شيء من الروحانيات. يستغلها رجال السياسة كلما قلَّت شعبيتهم، حيث يظهرون أنفسهم بحماة الدين والطائفة. وهنا نتساءل من جديد، عن كل هذه المظاهر الطائفية الخارجية، التي نجدها بكتابات وشعارات وصور مُلصقة على الحيطان، ورموز مُقامة على كل مفرق طريق وعلى كل هضبة، هل هي فعلاً من مظاهر الإيمان واستجداءً

لرحمة الرب؟ وهل اللبنانيون هم أكثر إيماناً من بقية الشعوب؟ قد نشك في ذلك لأننا لو راقبناهم في حياتهم اليومية لوجدنا أن همهم الأول هو جمع المال، والروحانيات لا تشغل إلاّ مساحة ضيّقة من حياتهم؛ أليست هي مظهراً من مظاهر التفرقة وإظهاراً لخصوصيات كل طائفة، وإشارات حدود لمناطق الطوائف؟ ألا تغذي هذه المظاهر الحقد والاستفزاز الطائفي؟

وهنا نتساءل كيف يتم وهل من الممكن أن يتم الانسجام والانصهار الوطني في ظل مثل هذه الطائفية؟ أليست من هذا الباب دخلت الإرساليات الأجنبية وعملت الشقاق فيما بيننا؟ هل فعلاً تاريخنا يفتقر إلى المفكرين والمكتشفين والأدباء والشعراء وأهل العلم والمستحقين حتى نعطي مدارسنا أسماء الرسل والأنبياء والقديسين والأئمة ونعطيها شكل ملحقات لأماكن العبادة أكثر منها شكل مدارس علمية؟ أليس من باب الطائفية الواسع تدخلت الدول الأجنبية وفرّقت فيما بيننا؟ منذ متى كان الإنكليز يؤمنون بالعقيدة الدرزية حتى سمحوا لأنفسهم أن يكونوا حماة الدروز؟ ومتى كان الروس من المؤمنين الغيورين على الدين لينصبوا أنفسهم حماة الروم الأرثوذكس؟ وكيف أن فرنسا حاملة لواء العلمنة أصبحت في لبنان حامية الطائفة المارونية؟ ألسنا نحن اللبنانيين خوفاً من بعضنا البعض وعدم تفاهمنا فيما بيننا على شكل الوطن الذي نريد، جعلنا كل طائفة منا تبحث لدى القناصل المعتمدين في بيروت، عن دولة أجنبية لتحميها من الطوائف الأخرى؟ أليس كل هذا هو الخوف من الآخر؟

التقاتل بين هذه الطوائف الذي يتجدّد باستمرار، ليس بلعنة تاريخية ولا غضب السماء على سكان هذا الوطن، بل هو نتيجة حتمية للنظام الطائفي. ولو عدنا إلى التاريخ لوجدنا أن كل طائفة مرّت في مراحل كانت بها دوراً ظالمة ودوراً مظلومة. علماً أن لبنان كان ملجأ الأقليات: الموارنة هم أقلية بين المسيحيين واضُطهدوا من قبل الطوائف المسيحية الأخرى قبل أن يلجأوا ويحتموا في جبال لبنان، وفي لبنان بنى الموارنة كيانهم السياسي. وكذلك حال الدروز والشيعة فهم أيضاً أقلية بين المسلمين، وكذلك اضُطهدوا من قبل بعض الطوائف المسلمة الأخرى، وفي لبنان كوّنوا أهمية سياسية ووجدوا مكاناً لهم.

كذلك التاريخ يبيِّن لنا أن أي طائفة من الطوائف اللبنانية لا تستطيع الادعاء بنقاوة عرقها، وبأنها تعود إلى جذور تاريخية مُحددة. بعد هذا المزج والاختلاط على مرّ العصور بين السكان القدامى لهذه المنطقة، وما تبعه من تغير في المذاهب واعتناق مذاهب أخرى وفي بعض الأحيان اعتناق ديانات أخرى. هل من المعقول القول إننا من أصل فينيقي رغم هذا المزج بين الكنعانيين والأوروبيين والعرب والأكراد والأتراك فوق أرض الشرق الأوسط؟ وهذا الادعاء أليس هو فقط شعاراً نرفعه في وجه المنادين في الأصل العربي؟ وهل من سبيل لنكران عروبة لبنان ونكران الدور الثقافي الذي لعبه اللبنانيون في العالم العربي وخاصة المسيحيون منهم؟ أليس باسم الإسلام حكمت تركيا الشعب العربي مدة خمسة قرون؟ أليست تركيا نفسها اليوم هي حليفة الدولة العبرية عدوّة العرب والمسلمين؟

بعد كل هذه الحروب والأحداث بين الطوائف اللبنانية، آن الأوان لأن نكون لبنانيين عرباً أولاً قبل أن نكون موارنة وشيعة وسنّة ودروزاً، وأن تكون العبادة لله والوطن للجميع.

وللوصول إلى تفاهم بين اللبنانيين لا بد من البحث في الأساسيات، وأن لا يكون مصير الوطن حكراً على أهل السياسة بل مسؤولية جميع اللبنانيين، لذلك وجب اللقاء بين مثقفي جميع الطوائف وإعطائهم الفرصة كي يوصلوا أفكارهم وآرائهم إلى جميع المواطنين، والبحث في الأساسيات والمشاركة في تقرير القضايا المصيرية، لأن الخوف من البحث في الأساسيات لا يرفع الخطر كما يتصور البعض. وعلى ضوء معطيات العصر الحديث، وجب التفاهم على الهوية اللبنانية، على النظام الملائم للبنان، على حقوق الإنسان وحقوق الطوائف، علاقة الدولة مع الطوائف ومع الأفراد، وليس الاكتفاء بشعار **دولة القانون والمؤسسات**، لأنني لا أظن أن لبنان ينقصه قوانين ومؤسسات، خاصةً وأن القانون اللبناني لحظ جميع نواحي المجتمع، والمؤسسات موجودة، والأفضل لو كان الشعار دولة تطبق القانون وعمل المؤسسات والمساواة بين اللبنانيين!

في عصر تقارب الدول فيما بينها متخطية حواجز اللغة والمذاهب والديانات

والقوميات والحضارات والالتقاء حول مفاهيم إنسانية شاملة، مثل حقوق الإنسان والحرية والديموقراطية، لا نزال في لبنان نتحجم ونتقوقع داخل تجمعات طائفية ضيّقة.

منذ القرن التاسع عشر وبالذات منذ إقامة القائمقاميتين سنة ١٨٤٢ واحدة درزية وأخرى مسيحية، أي منذ أُعطيت الطائفية شكلها القانوني، واللبنانيون منقسمون على أنفسهم، ولم يستطيعوا ولو لمرة واحدة التفاهم وتوحيد الكلمة والرأي حول القرارات المصيرية؛ ولا عجب في ذلك، لأنه من المستحيل التفاهم في ظل الطائفية.

هذه الطائفية كانت سبب المغالاة في المواقف والتطرف السياسي في لبنان: تطرف ديني إسلامي في الدعوة لإقامة دولة إسلامية، وتطرف ديني مسيحي يعتبر لبنان مسيحي الصبغة ويطالب بضمانات لاستمرار هذه الصبغة المسيحية. وإلى جانب التطرف الديني هناك التطرف القومي الذي يقول بأن لبنان لا يملك المقومات التي تؤهله لأن يكون دولة ذات كيان خاص، ويجب أن يذوب في محيطه العربي. وفي فترة وجد دعاة الوطن القومي المسيحي في لبنان، وبين هذين الموقفين يوجد عدة مواقف تشمل مجمل التيارات الفكرية في البلاد: من دعاة الوحدة العربية، دعاة وحدة سوريا الكبرى، دعاة العلمنة والديموقراطية وأخذ الفرد اللبناني كوحدة للمجتمع، وآخرون يرون الطائفة هي الوحدة لهذا المجتمع ويكفي المساواة بين هذه الطوائف ليبقى لبنان.

كل هذه الآراء إن دلّت على شيء فهي تدل على صعوبة حل المشكلة اللبنانية، وعلى ضرورة التفاهم على الأساسيات والبحث عن ركائز حديثة للمجتمع اللبناني، وعدم الاكتفاء كما كان الحال في الماضي بصيغ مثل (عفى الله عما مضى، ولا غالب ولا مغلوب) أو بالتفاهم الفوقي بين أصحاب القرار بدون العودة إلى الشعب، لأن الوفاق السياسي وحده لا يكفي لحل المشكلة اللبنانية، وفقط الوفاق الأهلي يعطي لبنان إمكانية الخروج من دائرة المحنة الطائفية والانطلاق نحو بناء مجتمع العدل والواجبات والحقوق والمساواة بين جميع اللبنانيين؛ وبقدر ما يشعر اللبناني بالمساواة بقدر ما يشارك بالواجبات، وإن لم يصل اللبنانيون إلى تفاهم حول شكل المجتمع

الذي يريدونه للبنان وبقوا على انشقاقهم فالمستقبل لن يحمل لهم سوى المصائب والويلات التي تحل بهم دورياً.

الشيء الأكيد هو أن الطائفية هي سرطان لبنان السياسي، وبدون علاج جذري سيؤدي بالجسم اللبناني حتماً إلى الهلاك.



الفصل الثاني

ـ المشكلة الفلسطينية

ـ الأرمن

الفلسطينيون
والمشكلة الفلسطينية

من غير المعقول الكتابة عن لبنان بدون الكتابة عن المشكلة الفلسطينية وقيام «دولة إسرائيل» وعن الحروب العربية ـ الإسرائيلية ومضاعفاتها على منطقة الشرق الأوسط عامةً وعلى لبنان خاصةً. ولهذا لا بد من العودة إلى بداية هذا القرن لنستعرض بسرعة تاريخ فلسطين ومراحل الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

في عصر الامبراطورية العثمانية، كانت فلسطين مقاطعة من المقاطعات العربية الواقعة تحت السيطرة التركية؛ وكانت حدودها لجهة الشمال تقريباً حدود لبنان الحالية، ولجهة الغرب البحر الأبيض المتوسط ولجهة الشرق الصحراء السورية (سورية، البحر الميت والأردن حالياً)، وأكثر سكانها فلسطينيون وبينهم أقل من ١٠ بالمئة من اليهود.

أثناء الحرب العالمية الأولى، وقبل أن تتحرَّر فلسطين من السيطرة العثمانية ظهرت أطماع الإنكليز والفرنسيين بأرضها. ونذكِّر هنا بتشجيع الإنكليز للعرب على الثورة ضد الأتراك مقابل الحصول على دولة عربية مستقلة، ولكن هذا الوعد كان مبهماً بالنسبة لشكل وحدود الدولة العربية الموعودة، وبالرغم من ذلك أثار هذا الوعد حماس العرب في جميع المقاطعات العربية، وقاتلوا إلى جانب الحلفاء على أمل الحصول على دولتهم المنشودة. ولكن الواقع أنه منذ سنة ١٩١٦ كان هناك تفاهم بين الفرنسيين والإنكليز على تقاسم الشرق الأوسط، المعروف باتفاق سايكس ـ بيكو (نسبةً إلى أسماء مُمثلي الدولتين الحليفتين).

«انفصال الشرق الأوسط العربي عن باقي الامبراطورية العثمانية وخلق دول مُنفصلة حصل بواسطة وتحت إشراف وحسب مصالح القوى المستعمرة. والمثل البرهان هو رسم الحدود الجنوبية لدولة لبنان، التي تفصل لبنان عن فلسطين. منذ أيار

(مايو) سنة ١٩١٦ وأثناء الحرب، اتفق الفرنسيون والبريطانيون على تقاسم الشرق الأوسط العربي وتم التوقيع على هذا الاتفاق من قبل السفيرين جورج بيكو ومارك سايكس. وبموجب هذا الاتفاق فرضت فرنسا سيطرتها على كل سورية وعلى مقاطعة الموصل وسيليسيا، وخاصةً بإقامة إدارة مباشرة أو غير مباشرة على المنطقة الواقعة غربي دمشق وحمص والشواطىء السورية وعلى الشمال من خط يمر بعكا وبحيرة طبريا، وذلك حسب ما ترغب - تصرف مطلق الحرية بهذه المناطق - بدون الأخذ بعين الاعتبار الحدود التاريخية لولاية بيروت العثمانية. خط سايكس - بيكو هذا أدّى إلى مباحثات صعبة بين البريطانيين والفرنسيين فيما بعد، إلى أن تم التفاهم أخيراً على تثبيت الحدود اللبنانية الفلسطينية نهائياً من ٢٠ إلى ٣٠ كلم إلى الشمال، وذلك عكس ما كانت ترغبه فرنسا، وأصبح هذا الاتفاق رسمياً بعد التوقيع عليه من قبل الدولتين في ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٩٢٠. وقد أثر على هذا القرار عنصران أولهما: كون البريطانيين هم المنتصرون الأساسيون عسكرياً على الدولة العثمانية في الشرق، لأن الجيش الفرنسي كان منتشراً على الأراضي الفرنسية. وثانيهما أن الضغط الصهيوني على الوزير البريطاني بلفور Balfour الذي انتهى بوعد الصهاينة سنة ١٩١٧ بإقامة مركز وطني (foyer national) لهم على الأرض الفلسطينية، وممثلو الصهاينة ركزوا على الضرورة الحيوية لمياه الليطاني واليرموك بالنسبة للمزارعين اليهود. في حين أنه لم يؤخذ بعين الاعتبار التقسيم الذي كان قائماً أيام العثمانيين وكذلك مصالح العرب المقيمين من جهتي الحدود، وحتى دون أخذ رأي ممثليهم في مؤتمر دمشق»[1].

في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩١٧ م وفي تصريح لوزير الخارجية الإنكليزي بلفور، عرض إقامة مركز وطني لليهود في فلسطين. علماً أن الجنرال الإنكليزي اللنبي (Allenby) وبالرغم من مساعدة الفرنسيين، والأمير فيصل ولورنس العرب له، لم يكن قد استولى بعد على مدينة القدس، التي كانت لا تزال بين أيدي الأتراك!

---

(١) Elizabeth Picard: «Liban état de discorde» - Flmmarion. 1988.

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، تناست انكلترا وعدها للعرب، واستولت على فلسطين؛ وفي مؤتمر السلام سنة ١٩١٩ م تقرر أن تصبح كل منطقة في الشرق الأوسط كياناً منفصلاً وموضوعة مباشرةً تحت إشراف إدارة أوروبية. في سنة ١٩٢٠ وعلى أثر مؤتمر سان ريمو (Sant Remo) أصبحت انكلترا هي الدولة المنتدبة على فلسطين. وفي سنة ١٩٢٢ م عدلت هيئة الأمم قرار الانتداب وأضافت عليه وعد بلفور مع التأكيد التالي: **ثلاثة أرباع الأراضي الواقعة شرقي نهر الأردن لا يمكن استعمالها لإقامة مركز وطني يهودي** (Foyer national juif).

في شهر نيسان (ابريل) ١٩٢٠ وشهر أيار (مايو) ١٩٢١ شهدت فلسطين اضطرابات وأحداث دامية قام بها العرب ضد استيطان اليهود واحتجاجاً على السياسة الإنجليزية في فلسطين. ولكن بعد وعد بلفور ازدادت الهجرة اليهودية إلى فلسطين بتشجيع من الحركة الصهيونية، في بادىء الأمر وقبل تعاظم الهجرة اليهودية، كانت ردة الفعل عند السكان الأصليين تتراوح بين الرضى والتذمر، ولكن بعد تزايد الهجرة شعر الفلسطينيون بالخطر وبدأت الاشتباكات بينهم وبين القادمين اليهود، ولكن اليهود استطاعوا أن أن ينظموا أنفسهم، وقرروا أن يحموا أنفسهم بواسطة قوات خاصة بهم، فكانت ولادة منظمة «هاغانا» (Hagana). فحاولت انكلترا تهدئة الفلسطينيين العرب بأن حددت نواياها السياسية بأن ما تنويه: **ليس تحويل فلسطين إلى مركز وطني يهودي، بل إقامة مركز وطني يهودي داخل فلسطين واقترحت إقامة مجلس إدارة مشترك بين العرب واليهود.**

هذا الاقتراح لم يُؤخذ به من الطرفين، وانعدم التفاهم بين اليهود والعرب. ولم تستطع أو لم تُرِدْ انكلترا ضبط الهجرة اليهودية، فازدادت حدة المواجهة بين الفلسطينيين واليهود ووقعت الضحايا الكثيرة عند الفريقين.

نظم الفلسطينيون الوطنيون أنفسهم داخل «هيئة التنفيذ العربية» (Comité Executif Arabe) وداخل «مجلس مسلمي فلسطين» (Conseil Musulman de Palestine). واحدة دعت للمقاومة المسلَّحة ضد انكلترا والصهيونية وأُخرى اختارت الاعتدال في مقاومتها ونسَّقت مع الأمير عبد الله، أمير الأردن.

اضطرابات دامية أُخرى حدثت سنة ١٩٢٩ م. على أثر مطالبة اليهود بحقهم الثقافي على حائط المبكى، وكانت الاضطرابات عنيفة مما أجبر السلطة المنتدبة إلى تعيين هيئة تحقيق. وبعد التحقيق أوصت هذه الهيئة بالحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين والحد من شراء الأراضي! ولكن بقيت هذه التوصيات بدون تنفيذ.

بعد سنة ١٩٣٣ م. وخلال ثلاث سنوات فقط وصل إلى فلسطين ١٢٥,٠٠٠ يهودي هرباً من النازية. وفي سنة ١٩٣٥ كان يوجد في فلسطين ٣٥٥,٠٠٠ يهودي مقابل ٩٤٥,٠٠٠ عربي.

انتهى الإضراب العربي العام الذي دام من شهر نيسان (ابريل) إلى شهر تشرين أول (اكتوبر) عام ١٩٣٦ م. بحمَّام من الدم على أثر العمليات العسكرية وحرب العصابات التي قام بها اليهود وذهب ضحيتها الآلاف من الفلسطينيين العرب. على أثر هذه الأحداث ألقى الإنكليز القبض على ٣٧ مسؤولاً فلسطينياً وحلَّت الهيئة العربية العليا Haut Comité Arabe. وعرضت هيئة بيل (Peel) تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين: دولة عربية مُلحقة بالأردن، ودولة يهودية حول القدس وبيت لحم، تحت الانتداب الإنكليزي ولكن رفض العرب الاقتراح وغُض النظر عنه.

في أيار (مايو) سنة ١٩٣٩ م. حاولت الحكومة الانجليزية من جديد إيجاد حل للمشكلة العربية ـ اليهودية في فلسطين، فاقترحت النقاط الثلاث المهمة التالية:

ـ ضبط الهجرة اليهودية إلى حدود ١٥,٠٠٠ مُهاجر سنوياً ولمدة خمس سنوات.

ـ منع شراء الأراضي.

ـ خلق دولة فلسطينية بعد عشر سنوات.

ردة الفعل اليهودية على هذا الاقتراح كانت عنيفة، فوضعوا بالخفاء أجهزة سرية لتنظيم وتسريع الهجرة غير القانونية إلى فلسطين، وأسسوا مجموعتين إرهابيتين: إيرغون واسترن (Irgoun et Stern)، ووجهوا عملياتهم الإرهابية ضد الانجليز وضد العرب على السواء وزادت حدة القتال واضطرب الوضع.

في ألمانيا وبوصول هتلر إلى سدة الحكم اضطهد اليهود وقضى على أعداد كبيرة منهم ولم تستطع الدول الأوروبية أن تمنع ذلك. وبعد انتهاء الحرب عاش العالم المسيحي أزمة نفسية، مع محاسبة الضمير والشعور بعقدة الذنب لما حصل لليهود على يد هتلر، لذلك حاولت الدول الأوروبية الكبيرة تعويضاً لتأنيب الضمير وإصلاح ما أفسده هتلر، إعطاء اليهود ليس مركز قومي في فلسطين فحسب، بل دولة يهودية مستقلة لهم وذلك على حساب العرب، وزادت الضغوطات الصهيونية على انجلترا، وزادت مطالبة العرب للانجليز بالوفاء بوعدهم لقيام الدولة الفلسطينية المستقلة.

في سنة ١٩٤٥ تأسست هيئة انجليزية ـ أميركية وطالبت باستقبال ١٠٠,٠٠٠ مهاجر يهودي مباشرة. وجواباً على ذلك رد العرب بتأليف مجموعات قتالية، ومن جديد وصلت الأمور إلى الطريق المسدود؛ وأمام خطورة الوضع وفشل الانجليز في السيطرة على البلاد تهربوا من المسؤولية وطالبوا منظمة الأمم المتحدة بإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية.

ألَّفت الأمم المتحدة «منظمة الأمم المتحدة لفلسطين» (U.N.S.C.O.P.) كي تجد حلاً للمشكلة الفلسطينية؛ وبعد الدراسة عرضت هذه الهيئة ما يلي:

ـ إنشاء دولة يهودية ودولة فلسطينية مرتبطتين اقتصادياً.

ـ تدويل القدس.

وافقت الأمم المتحدة على هذا الاقتراح في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩٤٧ م. ولكن هذا الاقتراح لم يلقَ الموافقة عند العرب.

وفي ١٤ أيار (مايو) من سنة ١٩٤٨ أُعلنت ولادة «الدولة الإسرائيلية»، وبدأت الحروب العربية الإسرائيلية والتي كان الفلسطينيون أول ضحاياها، لأن الأرض الفلسطينية توزعت بين إسرائيل، الأردن ومصر، وهرب الفلسطينيون جماعات أمام «الدولة العبرية» ولم يبقَ منهم في فلسطين سوى الأقلية، أما الأكثرية فلجأت إلى القسم الأردني من أرضهم، وتوزع الباقون على البلاد العربية وعلى الأخص لبنان.

لم يكن لمأساة الشعب الفلسطيني ردات فعل في العالم لأن الرأي العام العالمي

كان يجهل كل شيء تقريباً عن هذا الشعب؛ خاصة أن الدعاية الصهيونية الواسعة الانتشار استطاعت أن تُظهر المشكلة الفلسطينية بكثير من البساطة، بأن فلسطين هي صحراء غير مأهولة، وبشكل آخر، **أرض بدون شعب لشعب بدون أرض**، وعاش الأوروبيون مشكلة فلسطين بأنها مجرَّد اقتطاع لقطعة أرض من صحراء كبيرة بعيدة عنهم. وهكذا بدأت رحلة آلام الشعب الفلسطيني المنسي من الجميع مع ما فيها من بؤس وعذاب وقهر داخل المخيمات التعيسة.

بينما كل الأنظار تتجه نحو «إسرائيل».

بمساعدة الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية، استطاع اليهود أن يبنوا بسرعة دولة حديثة محمية بجيش قوي مُجهّز بأفضل أنواع الأسلحة المتطورة، فأصبحت طائراتهم تسرح وتمرح في سماء الشرق الأوسط كما يحلو لها وبدون اعتراض، وتمكنت من السيطرة الكلية والمراقبة الدائمة للمجال الجوي للمنطقة.

كما أن نقل التكنولوجيا الأميركية والغربية المتطورة في جميع المجالات، جعل منها دولة مُصدرة للأسلحة الحربية والمعدات المدنية.

الرأي العام الأوروبي، وتهويناً لتأنيب الضمير انتهى إلى القول، إنه بما أن الفلسطينيين لم يستطيعوا استغلال خيرات أرض فلسطين، فلا مانع من إعطائها لمن يُحسن استثمارها.

بعد الحروب العربية الإسرائيلية نشأ عند الأوروبيين نوع جديد من العنصرية موجهة هذه المرة **ضد العرب، حيث** أصبح **يهود** الأمس شعب فوق العادة بنشاطه وذكائه، وأثار إعجاب العالم كيف أنه استطاع أن يحول «الصحراء» إلى بساتين تُنتج جميع أنواع الفواكه والخضار، ويصدِّرها إلى الدول الأوروبية نفسها، في حين أن النظرة إلى العربي بقيت نظرة احتقار، وفي أحسن الحالات وصفهم بالشعب الخامل غير القادر على النهوض، هذا ما استطاع الإعلام الإسرائيلي أن يعطي صورة عنه، وتجند له جميع يهود العالم ونشروا هذه المغالطات في أذهان المجتمعات التي تواجدوا فيها، وكان تأثيرهم كبيراً خاصةً في أميركا والبلدان الأوروبية، نظراً لأهميتهم

العددية وخاصةً الاجتماعية والسياسية لأن الكثير منهم كان في موقع المسؤولية ومن أصحاب القرار.

وبما أن البلاد العربية لم تستفد من المساعدات الأميركية والأوروبية، فقد توجهت نحو الاتحاد السوفياتي، وهو تقارب مُختلف كلياً عن التلاحم الإسرائيلي الغربي، لأنه تقارب إجباري تكتيكي من الجهتين: الروس لمواجهة الدول الغربية، والدول العربية للحصول على مصدر للسلاح، خاصةً وأن الروس يعلمون أن الدين الإسلامي (الدين الغالب في الدول العربية) لا يتماشى مع النظرية الماركسية، ولذلك لم تكن مُساندة الروس للعرب مساندة ناشطة وكلية. هذا الخلل العسكري والتكنولوجي بين إسرائيل والبلاد العربية منع أي انتصار عربي.

في الخمسينات شهد العالم العربي، يقظة لفكرة القومية العربية، وأملاً في وحدة عربية بقيادة جمال عبد الناصر؛ إلى جانب يقظة لفكرة التضامن الإسلامي، مما حوّل الاهتمام والأنظار عن المسألة الفلسطينية مؤقتاً؛ وبقيت حالة الجمود هذه حتى بداية الستينات، حتى عاد الاهتمام من جديد بالقضية الفلسطينية، بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة (باتحاد سوريا ومصر) وإعطاء الفلسطينيين حق التمثيل الرسمي بواسطة ممثليهم في الاتحاد الوطني الفلسطيني (Union Nationale Palestinien, U.N.P.). وفي مؤتمر القاهرة سنة ١٩٦٤ م. أُخذ قرار بتنظيم الشعب الفلسطيني داخل تنظيم خاص به. وأخيراً عاد القرار الفلسطيني إلى الفلسطينيين أنفسهم، وهذا من أهم القرارات التي أُخذت في مؤتمرات القمة العربية في خدمة الشعب الفلسطيني، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا القرار ولادة «**منظمة التحرير الفلسطينية**» بين ٢٨ أيار (مايو) و٢ حزيران (يونيو) من سنة ١٩٦٤ م. (O.L.P. Organisation de Libération de Palestine) وإنشاء **جيش التحرير الفلسطيني** (A.L.P. Armée de Libération de Palestine).

بعد الهزيمة العربية أمام إسرائيل سنة ١٩٦٧ م. قرر ياسر عرفات بالاتفاق مع حركة «فتح» (حركة التحرير الفلسطينية التي أُنشئت سراً في الخمسينات) رفع الوصاية العربية والاستقلال بالقرار الفلسطيني، وطالب العرب بالمساعدة المادية فقط،

وأعلنت «فتح» استقلالها وأصبحت الممثل الرسمي للشعب الفلسطيني.

دخل جناح «فتح» العسكري المقاومة العسكرية ضد «إسرائيل» سنة ١٩٦٦ م. وإلى جانبه عدة منظمات تابعة لبعض الأنظمة العربية (مثل العراق، سوريا، اليمن الجنوبي...) و«الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» بقيادة جورج حبش (F.P.L.P. Front Populaire de Libération de Palestine) و«الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين» سنة ١٩٧٣ م. (F.D.L.P. Front Démocratique de Libération de Palestine).

كانت «فتح» في بداية نشاطها مُراقبة من قبل الدول العربية، وكانت مُقيّدة النشاط، ولكن بعد سنة ١٩٦٧ والهزيمة التي لحقت بالعرب والشعور بالذل والعار وخيبة الأمل، شجعت الشعوب العربية العمل العسكري لمنظمة «فتح» ثأراً من حكامها؛ وكثير من الشباب العربي غير الفلسطيني انضوى تحت راية «فتح» والمنظمات الفلسطينية الأخرى، مما جعل الأنظمة العربية لا تماطل بتمويل المنظمات الفلسطينية للأهمية التي أخذتها لدى الجماهير العربية، البعض عن إيمان بالقضية الفلسطينية والشعور العربي المشترك، والبعض الآخر خوفاً من هذه المنظمات وما لها من تأثير على مواطنيها وبالتالي على وجودهم السياسي.

سنة ١٩٦٨ م. تجمّعت حركة «فتح» والمنظمات الفلسطينية الأخرى داخل «المجلس الوطني الفلسطيني» وهو شبه برلمان للشعب الفلسطيني وتم اختيار ياسر عرفات رئيساً له.

في سنة ١٩٦٩ م. طالبت «فتح» بإنشاء دولة فلسطينية علمية ديموقراطية حيث المسيحيون واليهود والمسلمون متساوين في الحقوق والواجبات دون تمييز، وأمام رفض طلبها قرّرت متابعة النشاط العسكري ومهاجمة «إسرائيل» مُتسللة عبر حدود الدول العربية المتاخمة، واستعمال هذه البلدان قواعد خلفية لمقاتليها. طبعاً سبّبت هذه السياسة مشكلة لهذه البلدان وبالأخص للبنان؛ وبدأ يتفاعل الخلاف اللبناني - الفلسطيني مما حدا بالرئيس جمال عبد الناصر أن يجمع الفلسطينيين واللبنانيين في مؤتمر بالقاهرة لإيجاد حل لهذا الخلاف؛ وأثمر اتفاق القاهرة عن حق الفلسطينيين

القيام بعملياتها العسكرية انطلاقاً من المنطقة اللبنانية التي عُرفت فيما بعد بمنطقة «فتح» (Fathland) في الجنوب اللبناني. وهكذا أدّى التواجد الفلسطيني في لبنان إلى مضاعفات عسكرية وردات فعل إسرائيلية، لا قدرة للبنان للرد عليها وهو غير قادر على استيعابها، وتهدد الوضع الداخلي في لبنان وأدّى إلى خلل في التوازن الطائفي والعسكري بين المجموعات اللبنانية، وبدأ الحذر بين اللبنانيين أنفسهم وبدأ الانقسام بين مؤيد ومعارض للعمل العسكري الفلسطيني.

القوة العسكرية لـ «منظمة التحرير الفلسطينية» لم تُخِفْ لبنان فقط بل أخافت بعض الأنظمة العربية الأخرى، التي أخذت تعمل جاهدة للسيطرة على القرار الفلسطيني من جديد، وزرع الشقاق في صفوف الفلسطينيين وخلق منظمات فلسطينية تابعة إلى هذا أو ذاك النظام العربي؛ وفي الأردن حيث أكثر السكان من أصل فلسطيني، احتدَّ الخلاف بين المنظمات الفلسطينية والحكومة الأردنية والجيش الأردني، ودخل الجيش الأردني المخيمات الفلسطينية في عملية تمشيط واسعة، ذهب ضحيتها الكثير من الفلسطينيين، وعرفت هذه المواجهة بتسمية أصبحت مشهورة «أيلول الأسود»؛ ووصف عرفات هذه الأحداث بـ : تصفية الفلسطينيين (génocide).

بعد أحداث الأردن، لجأ الكثير من المقاتلين الفلسطينيين إلى لبنان، فازداد عددهم في المخيمات وزادوا الخلل في الوضع الداخلي اللبناني.

من الصعب إعطاء عدد صحيح للفلسطينيين المتواجدين في لبنان، في غياب الإحصاءات الرسمية، ومن باب التقدير يبلغ عددهم حوالى ٤٠٠,٠٠٠ نسمة (٨٠ بالمئة مسلمين و٢٠ بالمئة مسيحيين) منتشرين في مخيمات في ضواحي المدن اللبنانية الكبرى، أشهرها صبرا، شاتيلا، تل الزعتر، برج البراجنة، البردوني، نهر البارد، بعلبك، النبطية، الرشيدية، برج الشمالي، الباص وعين الحلوة، وأصبح لبنان الأرض المختارة للفلسطينيين، حيث استطاعوا أن يبنوا قوتهم السياسية والعسكرية وأصبحوا كما كان يُحب عرفات أن يُردد دائماً (الرقم الصعب في معادلة الشرق الأوسط). هذا الوضع الدقيق والصعب جعل الحكومة اللبنانية غير قادرة أن تأخذ موقفاً صريحاً

وحازماً. واستمرت الأحداث يوماً إثر يوم إلى أن فلت الوضع من يدها كلياً، وانقسم الشعب اللبناني (وليست هذه المرة الأولى) إلى قسمين وبشكل إجمالي:

- المسلمون والأحزاب اليسارية من جهة، التي لا تعارض وتتقبل العمل الفلسطيني مع بعض التحفظات.

- المسيحيون والأحزاب اليمينية من جهة أخرى، التي تعارض وترفض التصرفات الفلسطينية.

كل فريق أخذ يستعد للمواجهة التي أصبح لا مفر منها، فازدهرت مخيمات التدريب العسكرية في البلاد، عند المسيحيين كما عند المسلمين، في غياب كلي للدولة اللبنانية، فأصبحت سيارات الأحزاب العسكرية، تجوب الشوارع بأسلحتها الظاهرة على مرأى من الجميع، وأصبح كل شيء جاهزاً للقتال والجميع بانتظار الشرارة، التي حصلت في ١٣ نيسان (أبريل) من سنة ١٩٧٥ م. وبدأت الحرب اللبنانية.

الأرمن

غادر الأرمن أرمينيا إلى لبنان على أثر المجازر التي لحقت بهم من قبل تركيا سنة ١٩٢٢ م. ووصلوا لبنان على دفعات، فكانت الدفعة الأولى سنة ١٩٢٢ م. تلتها الدفعات الباقية بين ١٩٥٨ و١٩٦٠ م؛ وبشكل مستمر من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٧٥ م.

كان عدد الأرمن قبل الحرب اللبنانية الأخيرة حوالي ٢٢٠,٠٠٠ نسمة أي حوالي ٦,٣ بالمئة من مجموع سكان لبنان؛ هذه النسبة المرتفعة جعلتهم من الأقليات ذات التأثير المهم في الحياة اللبنانية.

يسكن أغلبية الأرمن في مدينة بيروت في أحياء خاصة بهم، فأصبحت تُعرف باسم أحياء الأرمن: برج حمود (المعروف لدى البعض بأرمينيا الصغيرة)، كرم الزيتون، زقاق البلاط، أنطلياس.

استقبل اللبنانيون الأرمن بكل ترحاب، واستفاد الأرمن بسهولة من الجنسية

اللبنانية، وأصبح لهم ممثلين في مجلس النواب. وتكاد لا تخلو حكومة لبنانية من وزير أرمني؛ والواقع أن تجمع الأرمن في أحياء خاصة بهم يعود لرغبتهم في المحافظة على التقاليد والعادات وعلى الذاتية الأرمنية، خاصة أن النظام السياسي اللبناني يسمح ولا يمانع مثل هذه التجمعات العرقية والطائفية؛ «بقيت بيروت لمدة طويلة قُبلة أرمن الشرق الأوسط، جاؤوها من العراق، من سوريا وخاصة من حلب، ومن مصر، جاؤوا لبيروت بالآلاف بين سنة ١٩٦٠ وسنة ١٩٧٥ م. مما زاد الأرمن عدداً وقوة وشُهرة. وأصبحت بيروت مركز إشعاع ثقافي من مدارس وجرائد ومطابع وفرق مسرحية وجمعيات ثقافية، وأخذت بيروت دور اسطنبول ودور تيفليس (Tifilis) في القرن الماضي ودور القاهرة بين سنوات ١٩٣٠ و١٩٤٣ م.»[(١)].

أرمن لبنان هم أكثر المجموعات الأرمنية تنظيماً في عالم الشتات؛ ويُعرفون بتآزرهم وتعاونهم ونشاطهم؛ وبعد مرور نصف قرن على وجودهم في لبنان استطاعوا أن يمتلكوا ١٤ بالمئة من الصناعة اللبنانية، وأن يصبحوا من المجموعات الميسورة مما سمح لهم ببناء المدارس وتعليم اللغة الأرمنية وتاريخ الأرمن وصيانة خمس وثلاثين كنيسة.

ويوجد حوالي مائتي جمعية تهتم بالنشاطات الثقافية والاجتماعية، وما يقرب من خمسين منشورة بين أسبوعية وشهرية، وحوالي مئة كتاب يُطبع سنوياً في بيروت باللغة الأرمنية ويوزع على التجمعات الأرمنية في العالم.

تتوزع القوة السياسية الأرمنية بين الأحزاب التالية: طاشناق (Tachnac) هنتشاق (hentchac) وفاماكافار (famakavar) ولكن حزب الطاشناق هو الأقوى، ومن صفوفه يتخرج ممثلي الأرمن من نواب ووزراء.

هذا الانطواء على الذات منع الأرمن من الاندماج الكلي، وأصبحوا مُختلفين نوعاً عن بقية اللبنانيين لأنهم إلى الآن لا يتكلمون اللغة العربية بطلاقة، وحصروا اهتمامهم بأعمالهم وأمور طائفتهم؛ وهذا الموقف المحايد خاصةً في الأحداث

---

(١) «تاريخ الأرمن». جيرار دده يان. ص ٦٥٢ ـ ٦٥٣.

الأخيرة أثار عليهم غضب الطائفة المارونية، لأن الموارنة باسم المسيحية كانوا ينتظرون مساندة الأرمن لهم، وبما أنهم لم يحصلوا على ما يريدون انتهى بهم الأمر إلى مقاتلة الأرمن، كما أن القوى التقدمية الفلسطينية لم يعجبها هذا الموقف المحايد للأرمن، وكذلك انتهى الأمر إلى قتال بينهم أثناء معركة حي النبعة.

ينقسم الأرمن مذهبياً بين أرمن أورثوذكس ومرجعيتهم الحالية في منطقة أنطلياس شمالي بيروت وهم الأكثر عدداً وأهمية، وأرمن كاثوليك انفصلوا عن الأرمن الأورثوذكس سنة ١٧٤٠ م.

غادر كثير من الأرمن لبنان بعد أن طالت الحرب اللبنانية الأخيرة، قاصدين ذويهم في باريس، ليون ومرسيليا في فرنسا وبعض الدول الغربية الأخرى.

الفصل الثالث

مشكلة التعليم في لبنان



التعليم

مشكلة التعليم في لبنان وجدت قبل وجود الكيان السياسي للبنان.

من مصائب لبنان أنه قبل أن يولد سياسياً سبقته مضاعفات ونتائج السياسة التعليمية للإرساليات الأجنبية والتي لا يزال يتخبط بها حتى يومنا هذا.

ومع مرور الزمن زادت هذه المضاعفات حدة ونجحت في تقسيم المجتمع اللبناني إلى مؤيد مطلق لهذه الإرساليات ووصفها بالوطنية بحجة أن أساتذتها وتلاميذها هم من اللبنانيين؛ وإلى محتج على بقائها معتبراً إياها إرساليات تبشيرية دينية سياسية أكثر منها تعليمية وطنية. وهكذا أصبح من الصعب حل هذه المعضلة لانقسام اللبنانيين فيما بينهم بين مؤيد مطلق ومعارض ناكر.

علماً أنه لا قيام للبنان المنشود لبنان المؤسسات ولبنان جميع اللبنانيين بدون حل هذه المعضلة.

نحن نعلم حساسية الموضوع ولذلك سنحاول التطرق إليه بأسلوب واقعي بعيداً قدر الإمكان عن الانفعال، لأنه بعد سنوات الحرب الطويلة التي أصابت بويلاتها جميع اللبنانيين، واحتراماً لأرواح آلاف الشهداء من جميع الفئات، لا يحق لنا أن نتهرب من مواجهة مشاكلنا بموضوعية وبأسلوب تحليلي وخاصة أن لبنان لا تنقصه الكفاءات.

منذ الاستقلال وحتى هذا اليوم لم يجرؤ أحد من أصحاب القرار على التعرض لهذا الموضوع بالجرأة اللازمة مع علمهم التام بأنه من عِلَلْ لبنان الأساسية بل علة لبنان الأولى ومنها تفرعت بقية المشاكل.

وحتى تتكون لنا فكرة واضحة عن الموضوع علينا العودة إلى الوراء، إلى ما قبل نشوء هذه الإرساليات والتي نشأ بعضها قبل عهد المتصرفية.

لو ألقينا نظرة على الوضع الاجتماعي لسكان هذه المنطقة في ذاك الزمان، لوجدنا أنه من الصعب التمييز بين الطوائف؛ فلم يكن هناك فوارق علمية أو اجتماعية

أو حتى مالية؛ طبعاً كان هناك بعض الإقطاعيين ولكنهم كانوا قلَّة، وكانوا ينتمون إلى جميع الطوائف، أما السواد الأعظم وعلى اختلاف طوائفه فكان متجانساً من حيث المعرفة والاجتماع، وكان معظم السكان أميين إلاَّ قلَّة من رجال الدين، إذ كانوا قادرين على قراءة الكتب الدينية، وذلك عند المسلمين كما عند المسيحيين؛ والعلاقات كانت علاقات جوار وروابط عائلية، ومجموعات طائفية تمارس كل طائفة طقوسها ضمن محيطها. وحالت صعوبة التنقلات وبساطة العيش دون تضارب المصالح والاحتكاك بين هذه الطوائف وكانت تتعايش فيما بينها ببساطة الحياة ذاتها.

ولكن الوضع الاجتماعي لم يدم طويلاً على هذا الحال، وبدأت التغيرات الاجتماعية مع بداية ضعف الدولة العثمانية، حيث أخذت تتنازل عن سلطتها بشكل امتيازات خاصة للرعايا الغربيين داخل أراضي الحكم العثماني؛ وبما أن ما يهم الأتراك من هذه البلاد هو جمع الضرائب فقط، فإن إعطاء الامتيازات للأجانب لم يكن ليسبب مشكلة بالنسبة لهم، خاصة أنهم يعلمون أن عواقب ومضاعفات هذه الامتيازات لن تقع عليهم بل على سكان أهل البلاد.

ومن هنا كانت البداية، بداية التدخل الأجنبي بشكل عام والأوروبي بشكل خاص؛ بدأ هذا التدخل بشكل امتيازات تجارية مع حرية التنقل وحرية العمل للرعايا وللإرساليات الدينية.

بعد فاصل تاريخي من انتهاء الحروب الصليبية الدامية وبعد انقطاع التعامل بين الشرق والغرب، عاد التدخل في بلادنا من جديد، ولكن ليس بشكل عسكري كما في السابق بل هذه المرة تحت غطاء التبادل الثقافي والتجاري؛ أخذ هذا التدخل الطابع الرسمي مع المعاهدة الشهيرة التي أبرمها فرنسوا الأول ملك فرنسا مع السلطان سليمان سنة ١٥٣٥. هذه المعاهدة لم تضمن فقط حرية العبادة والطقوس الدينية بل تعدتها لتعطي للرعايا الأجانب حرية الإقامة والتجارة والتنقل داخل الأراضي الواقعة تحت السيطرة العثمانية.

ومع بداية التطبيق الفعلي لهذه المعاهدة أخذ المجتمع اللبناني طريقه نحو التفسخ ومعه التفاوت بين الطوائف اللبنانية.

على أثر هذه المعاهدة أخذ تدفق الإرساليات الأجنبية على بلادنا؛ ونظراً للتعاطف السابق بين بعض أبناء الطائفة المارونية والصليبيين والتقارب الديني الجديد بينهم وبين هذه الإرساليات، تجدد اللقاء بين الطائفة المارونية والمرسلين الأجانب؛ خاصة أن هذا التجاذب والتعاطف الديني لم ينقطع كلياً مع انتهاء الحروب الصليبية؛ لأنه منذ القرن الرابع عشر، سعى الفرنسيسكان Franciscans جاهدين للتقريب بين الكنيسة المارونية والكنيسة الكاثوليكية؛ ونجحوا في مهمتهم حيث تبلور هذا التقارب بتأسيس الكلية المارونية في روما، وذلك حسب تمنيات البابا غريغوار الثالث عشر GREGOIRE 13ème لتأهيل رجال الدين الموارنة.

وبفضل هذه الكلية، بدأ أبناء الطائفة المارونية في لبنان التوجه نحو المدارس التي أسسها رجال الدين الموارنة المتخرجين من روما؛ وإن كانت الانطلاقة التعليمية بطيئة في البداية، إلاّ أنها أعطت الفرصة لأبناء هذه الطائفة لتعلم القراءة والكتابة قبل غيرهم من أبناء الطوائف الأخرى.

ومع ازدياد عدد المتخرجين من الكلية المارونية في روما ازداد عدد المدارس، وكان أغلبها مدارس ابتدائية وذلك طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ ومن الطبيعي كانت هذه المدارس في مناطق التواجد الماروني وأغلب الأحيان داخل الأديرة. وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر منها:

- مدرسة إهدن الابتدائية.
- مدرسة دير هقة، وقد أسسها المطران يوحنا مخلوف.
- مدرسة عين طورة (عينتورة)، ذائعة الشهرة، أسسها الراهب بطرس مبارك سنة ١٧٢٨.
- مدرسة عين ورقة في منطقة كسروان وتأسست سنة ١٧٨٧.

ونكتفي بهذا القدر القليل لنظهر فقط الترابط العضوي بين رجال الدين وتاريخ التعليم في لبنان، وهذا الترابط زاد التحاماً وقوة مع الوقت وهو لا يزال قائماً حتى يومنا هذا؛ وهذه القدرة التعليمية والسيطرة على الجهاز التعليمي أعطت رجال الدين سلطة اجتماعية وسياسية إلى جانب السلطة الروحية وبذلك أصبحوا القوة الأولى

الفاعلة في المجتمع اللبناني.

كان التغيير في المجتمع اللبناني بطيئاً في بداية الأمر لأن الإقبال على العلم بقي ضعيفاً رغم النشاط المتزايد لرجال الدين الموارنة وذلك لعدة أسباب، منها قلة عدد المدارس وضعف استيعابها، وندرة الكتب وارتفاع ثمنها، فبرغم وجود مطبعة في لبنان منذ القرن السابع عشر، كانت أغلب الكتب منسوخة على اليد. أضف إلى ذلك حاجة الفلاحين لسواعد أبنائهم لمساعدتهم في الزراعة وتربية الماشية، هذا إلى جانب الجهل عند البعض حيث العلم بالنسبة لهم كان يشكل نوعاً من الخطر.

تبع الطائفة المارونية في هذا المجال طائفة الروم الكاثوليك، حيث أسست بدورها مدرسة عين طراد.

هذا بالنسبة للمسيحيين. أما بالنسبة للمسلمين، فقد كانت الحالة التعليمية في ذاك الوقت محصورة في بعض المدارس القرآنية، وكانت قليلة العدد ومحصورة في المدن الكبرى ومستواها العلمي ضعيف للغاية؛ أما الريف فكان يفتقر افتقاراً كلياً لهذه المدارس. فقط بعض العائلات الأرستقراطية المسلمة كانت قادرة على تعليم أبنائها بواسطة معلمين خاصين.

عدا هذه الأقلية المحظوظة وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان الجهل يعم أكثر الناس بما فيهم الطبقة الأرستقراطية وطبقة الإقطاع. وكان المثقفون القلائل في ذاك الوقت يعملون كمحصلين لدى الأمراء والشيوخ.

وبالعودة إلى المسيحيين، فقد شهد بداية القرن التاسع عشر تحولاً نوعياً وزخماً تعليمياً عند الطائفة المارونية؛ فبتشجيع من قبل البطريرك يوحنا الحلو تحولت بعض الأديرة إلى مدارس: دير كفرايا سنة ١٨١٢، ورومية سنة ١٨١٧، وغيرها من الأديرة.

وتابع المسيرة من بعده البطريرك يوسف حبوش بتحويل الأديرة إلى مدارس مثل: صربا سنة ١٨٢٧، مار عبد قرقريه ١٨٣٠، ريفون سنة ١٨٣٢ وغيرها.

في هذا الوقت افتتحت طائفة الروم الأرثوذكس (Grecs - Orthodoxes) بدورها أبواب دير البلاماند قرب طرابلس لطالبي العلم.

لم يقتصر النشاط التعليمي خلال القرن التاسع عشر فقط على مجهود رجال الدين اللبنانيين، بل شهد هذا القرن نشاطاً ملحوظاً للإرساليات الأجنبية التي أخذت تتوافد بكثرة على بلادنا وأخذت المشاكل الاجتماعية في الظهور؛ فإلى جانب الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية بدأ تدفق وفود الإرساليات الأميركية البروتستانتية؛ التي بدأ وصولها إلى لبنان سنة ١٨٢٠ م. وتمركزت في بيروت.

وفي سنة ١٨٢٥ م. بدأت المدارس البروتستانتية الإنجليزية تتمركز في الأرياف، ولكنها واجهت معارضة شديدة من قبل الموارنة؛ ويروي لنا كمال صليبي في كتابه «تاريخ لبنان» باللغة الفرنسية ص ١١٠ ما يلي:

«لقد اعتنق الشاب أسعد الشدياق الماروني الأصل، المذهب البروتستانتي سنة ١٨٢٥ م. فلم يكن من أخيه إلاَّ أن ألقى القبض عليه وسلمه للبطريرك الماروني، الذي سجنه وبقي في سجنه حتى مات من التعذيب سنة ١٨٢٩ م. كما أصدر البطريرك الماروني تعليماته للرعايا الموارنة بأن لا يرسلوا أبناءهم إلى المدارس البروتستانتية، وأن يرفضوا التعامل معهم، وأكثر من ذلك، لقد هوجمت بعض هذه الإرساليات البروتستانتية وطردت خارج القرى المارونية. وفي منطقة الشوف وفي صيف سنة ١٨٤١ م. جُمعت الكتب الدينية لهذه الإرساليات وأحرقت في دير القمر».

هذه صورة عن التقاتل الديني بين الموارنة والإنجليز البروتستانت، والذي أدى إلى تحول سياسي، لأن استحالة التفاهم الإنجليزي الماروني، جعل الإنجليز يتجهون للتقارب مع الدروز، وهكذا توضح الانقسام: موارنة وفرنسيين من جهة ودروز وإنجليز من جهة أخرى، وأصبح القرار بالنسبة للبنان في ذاك الوقت، قرار فرنسي ـ إنجليزي ـ عُثماني.

ونكتفي بهذا القدر، لنشير إلى ما أحدثته هذه الإرساليات من أذى في المجتمع اللبناني، ومن إشعال لنار الطائفية حتى داخل الدين الواحد.

ومن دون الدخول في التفاصيل، نتابع الكتابة عن هذه الإرساليات مشيرين فقط إلى بعض المحطات المهمة مثل:

- معاودة Jesuites لنشاطهم سنة ١٨٣١ .
- تأسيس أول مدرسة للبنات سنة ١٨٣٤ .
- تأسيس أول مدرسة للبنات في المنطقة الدرزية سنة ١٨٣٥ .
- تأسيس دار المعلمين لتأهيل المبشرين بتعاليم الإنجيل حسب التعاليم البروتستانتية .

من خصائص القرن التاسع عشر أنه شهد تزايداً ملحوظاً في عدد المدارس وانتشاراً واسعاً للإرساليات الدينية الأجنبية في المناطق المسيحية وبالذات في مناطق انتشار الطائفة المارونية .

وبالنسبة إلى المسلمين، فقد استطاعت الطائفة السنية أن تضع حجر الأساس لأول هيئة تعليمية حديثة تحت إشراف «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية» وانتشرت مدارسها في كل من بيروت وصيدا وطرابلس .

أما الطائفة الشيعية فلم تكن قادرة على بناء مؤسساتها التعليمية، ولم تستفد من مدارس بقية الطوائف لوجودها خارج نطاق هذه المؤسسات، عكس الطائفة الدرزية التي استطاعت الإفادة لقربها الجغرافي من هذه المؤسسات التعليمية .

التخلف التعليمي الشيعي عائد لأسباب عديدة، منها أن الطائفة الشيعية لم تكن مساندة من أي دولة أو سلطة تعليمية روحية خارجية، بل كانت مضطهدة من قبل المماليك أولاً (تهجير الشيعة من منطقة كسروان) ومن قبل الأتراك ثانياً وحتى من قبل جيرانها؛ واضطهاد أبناء الطائفة الشيعية عائد فقط لكونهم أصحاب عقيدة خاصة بهم، تختلف عن عقيدة السلطات المركزية الحاكمة في ذاك الوقت .

في مثل هذه الظروف وفي غياب أي مساندة خارجية، كان من الصعب على الطائفة الشيعية بناء مدارس ثابتة لها؛ وانحصر التعليم بالمجهود الفردي لبعض رجال الدين، حيث كانوا يلقنون وبطريقة بدائية جداً بعض تعاليم المذهب الشيعي واللغة العربية والقواعد الحسابية البسيطة لبعض المحظوظين من أبناء الطائفة، التي شاءت الظروف أن يكونوا على مقربة جغرافية من تواجد معلميهم .

وكان رجال الدين الشيعة يعطون اهتماماً خاصاً لتدريس تعاليم المذهب الشيعي وتاريخ التشيع وذلك من باب الحماية والدفاع عن المذهب.

أما الطائفة الدرزية فكانت أوفر حظاً من الطائفة الشيعية، لأن الحاكم التركي داود باشا أسس لأبنائها سنة ١٨٦٢ المدرسة الداوودية التي لا تزال قائمة حتى يومنا في منطقة عبيه. وطبعاً لم تكن هذه المدرسة كافية لاستيعاب جميع أبناء الطائفة الدرزية ونسبة المتعلمين فيها بقيت قليلة.

مع مطلع القرن العشرين تثبّت أهم الإرساليات الدينية الأجنبية في لبنان نذكر منها:

الإرساليات الفرنسية:

- اليسوعية.
- أخوة المبدأ المسيحي.
- الأخوة المريميين.
- آباء الإرساليات الافريقية.
- رهبنة البندكتان.
- الآباء البيض.
- رهبنة الدومينيكان.
- الآباء الكرمليين.
- الكبوشيين.
- الآباء اللعازريين.
- راهبات المحبة.
- المدارس التي تمولها الأليانس الفرنسية والأليانس الإسرائيلية.

الإرساليات والمؤسسات الإنجليزية والأميركية والبروتستانتية:

- الإرسالية الإنجليزية ـ السورية.
- الإرساليات الأميركية.

ـ جمعية الكواكرز.

هذا فضلاً عن الإرساليات الروسية والإيطالية.

كل هذا التزاحم أدى سنة ١٩٠٠ إلى وجود ٦٥٠ مدرسة مقسمة على الشكل التالي:

١٢ مدرسة إسلامية، مدرسة درزية واحدة مقابل ٦٣٧ مدرسة مسيحية[1].

هذا الفارق الشاسع في عدد المدارس بين المسلمين والمسيحيين كان السبب في خلق التفاوت بين سكان هذه المنطقة وحتى قبل تأسيس الدولة اللبنانية نفسها.

فبقدر ما كان سهلاً على أبناء بعض الطوائف الحصول على المعرفة وتلقي العلم، كان صعباً على أبناء الطوائف الأخرى الحصول على نفس هذه المعرفة ونفس العلم، مما أدى إلى انقسام المجتمع اللبناني إلى فئتين: فئة مثقفة أغلبها مسيحي وفئة جاهلة علمياً أغلبها مسلم.

المبشرون أولاً والعسكريون لاحقاً

بعد التدخل الغربي بثياب المبشرين الروحيين، جاء دور التدخل الغربي العسكري؛ ففي سنة ١٩١٤ تحالف الأتراك مع الألمان، وتوافق هذا التاريخ مع بداية الوعي القومي العربي والانتفاضة ضد السيطرة العثمانية. وفي سنة ١٩١٦ نظم الشريف حسين الثورة العربية انطلاقاً من منطقة الحجاز بتشجيع من قبل الإنجليز.

في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩١٦ أعلن الشريف حسين استقلال العرب عن السلطة التركية وعين نفسه ملك البلاد العربية. وفي عام ١٩١٧ امتدت الثورة العربية تحت قيادة الأمير فيصل ابن الشريف حسين، وتقدمت القوات العربية باتجاه دمشق وهي تحمي في نفس الوقت خاصرة الجيش الإنجليزي بقيادة الجنرال اللنبي الذي طرد الأتراك من مدينة القدس؛ وفي هذا الوقت كان الأمير فيصل وقواته قد وصلوا إلى داخل دمشق.

---

(١) «الطائفية في لبنان حاضرها وجذورها التاريخية والاجتماعية». د. فؤاد شاهين، ص ١٤٣.

بعد هزيمة الأتراك ومغادرتهم الشرق العربي في ٣٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨، ألَّف الأمير فيصل حكومة مركزية عربية، وذلك حسب الاتفاق السابق مع الحلفاء، (جرت مباحثات سرية بين الشريف حسين ومكماهون المفوض السامي البريطاني في مصر)، وأبرق إلى جميع المدن اللبنانية والسورية يدعوهم إلى تشكيل حكومات عربية تدين بالولاء للأمير فيصل[١].

ولكن بناء مملكة أو دولة عربية موحدة كان يتضارب كلياً مع السياسة الفرنسية، التي أعطت لنفسها دور الوصي على مسيحيي الشرق وبالذات الموارنة منهم، وكان يتضارب حتى مع السياسة الإنجليزية التي كانت ظاهرياً قريبة للعرب ولكن ضمنياً كانت على اتفاق تام مع حليفتها فرنسا، وهذا التقارب الظاهر كان تكتيكي فقط وهو حصيلة المنافسة الفرنسية ـ الإنجليزية على بلادنا؛ والدليل على ذلك أنهم أسرعوا بتطبيق الاتفاق المشهور بين ممثلي الدولتين سايكس وبيكو، والذي وزعت بمقتضاه السيطرة الفرنسية على القسم الغربي من الشرق العربي رغم افتقاره للمواد الأولية وخاصة البترول، ولكن انسجاماً مع السياسة الفرنسية لبناء كيان سياسي خاص لحلفائها الموارنة.

وهكذا زادت الإرساليات الدينية أهمية وتأثيراً في المجتمع اللبناني وبالأخص الإرساليات الدينية الفرنسية لتعاونها الكلي مع سلطات الانتداب العسكرية، فإلى جانب السلطة التعليمية الهائلة أضافت إليها السلطة السياسية، وأخذت تتدخل بشكل مكشوف في الحياة السياسية للمنطقة العربية، طوراً بإعطاء التوجيهات والتنميات التي كانت لا ترفض، وطوراً آخر بفرض من تريد لتبوء المراكز الحساسة في الإدارة، وطبعاً كانت تفرض خريجي مدارسها ومؤسساتها الذين تشربوا وتشبعوا من أفكارها السياسية.

«منذ قدومه وحتى سنة ١٩٢٣ وأثناء قيامه بمهامه تحت إدارة غورو وويغان،

---

(١) «تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء» د. علي عبد المنعم شعيب. ص ١١. دار الفارابي ١٩٩٤. بيروت ـ لبنان.

وضع السيد ديكه أسس الإدارة اللبنانية واختار لهذه المراكز خريجي مدارس الإرساليات الدينية الكاثوليكية الفرنسية والمؤسسات الفرنسية الأخرى الذين أصبحوا فيما بعد موظفي الدرجة الأولى للبنان الحديث. وكثير من هؤلاء الموظفين بقوا في مراكزهم طوال فترة الانتداب وحتى السنوات الأولى بعد الاستقلال. والبعض لا يزال يشغل هذه المناصب حتى أيامنا هذه»[١].

وعلى سبيل المثال نورد قصة تعيين بشارة الخوري الذي أصبح رئيساً للجمهورية فيما بعد. فلقد عُيِّن سكرتيراً عاماً لحكومة جبل لبنان من قبل الجنرال غورو وذلك على أثر توصية من قبل أب يسوعي من جامعة سان جوزيف.

وهكذا نستطيع أن نؤكد أن المبشرين الأجانب أصبحوا من القوة لدرجة أنهم امتلكوا إلى جانب السلطة الروحية والتعليمية، السلطة السياسية وذلك قبل ولادة الجمهورية اللبنانية.

وللتأكيد على تدخل الإرساليات والمرسلين الأجانب، نورد ما رواه صليبي في كتابه «تاريخ لبنان»، عن الأب مكسيميليان ريللو (Maximilien Ryllo) والمعروف في لبنان تحت اسم بونا منصور والذي وصل لبنان عام ١٨٣٧ حيث ساعد على إشعال نار الفتنة سنة ١٨٤١، وكان يجوب البلاد محرضاً المسيحيين لمقاتلة الدروز، ما جعل القنصل الفرنسي نفسه يتذمر من تصرفاته فأمره بمغادرة البلاد حالاً. وهؤلاء المرسلين الأجانب كانوا المسؤولين الأوائل عن التفرقة بين الدروز والموارنة والتي انتهت بأحداث ١٨٤١[٢].

مثال آخر على تدخل الإرساليات الأجنبية في الأمور الداخلية لجبل لبنان: بعد الأحداث الدامية بين الموارنة والدروز، قدم وزير الخارجية التركي شفيق أفندي إلى لبنان، ليجد حلاً للوضع المؤسف الذي وصلت إليه البلاد، وأول ما طالب به هو عدم تدخل الدول الأجنبية في الشؤون الداخلية لجبل لبنان، وذلك بواسطة مذكرة أرسلت

---

(١) «تاريخ لبنان». كمال صليبي ص ٢٥٩.

(٢) المصدر السابق. ص ١٠٩.

من اسطنبول قبل قدومه إلى بيروت، إلى كل من إنجلترا، فرنسا، النمسا، روسيا وألمانيا، وعندما وصل إلى لبنان، أمر المرسلين الأجانب كاثوليك وبروتستانت بمغادرة جبل لبنان والسكن في بيروت كي يأمن عدم تدخلهم في أحداث الجبل وإشعال الفتنة، وحتى يستطيع أن يوفق بين اللبنانيين بعيداً عن التأثيرات الخارجية.

هذه الإرساليات الدينية الأجنبية، أثرت في العمق الاجتماعي وخلقت الخلل في المجتمع اللبناني، لأنها استطاعت لما لها من تأثير على الحاكمين أنفسهم، خاصة أيام فخر الدين الثاني، أن تحقق هدفها وهو تقوية الطائفة المارونية على حساب بقية الطوائف الأخرى، مما أدى إلى خلل في التوازن السياسي بين الطائفة الدرزية والطائفة المارونية، وأصبحت الغلبة السياسية للطائفة المارونية، خاصة بعد أن نجحت هذه الإرساليات في دورها التبشيري المسيحي لدى أبناء الأمير ملحم واعتناقهم الديانة المسيحية سنة ١٧٥٦ م ووصول يوسف شهاب الماروني إلى سدة الإمارة سنة ١٧٧٠ م. ومنذ ذاك التاريخ بدأ عهد الانحسار السياسي الدرزي في جبل لبنان.

وهنا نتوقف قليلاً لنتساءل كيف أن الجمهورية الفرنسية الفخورة بحصيلة الثورة الفرنسية تناست كل هذه المفاهيم والقيم الجمهورية وخاصة العلمنة منها، لأنها بدل أن تشجع المدارس العلمانية التي تفتح أبوابها للجميع بدون تمييز، كما هي الحال داخل فرنسا، انتهجت سياسة تعليمية منحازة في لبنان لأنها أعطت الأفضلية التعليمية للطائفة المارونية، وأبقت بقية الطوائف بدون مساندة تتدبر أمرها كما تستطيع، كي تبني المدارس لأبنائها؛ كأن العلمنة تصلح فقط لفرنسا ولا تصلح للبنان؛ أو كما قال السياسي الفرنسي غامبته[١].

بعد الاستقلالبدأت الحكومة اللبنانية بتأسيس مدارس وزارة التربية الوطنية، المعروفة بالمدارس الحكومية، وازداد عدد هذه المدارس من ٣٤٨ مدرسة سنة ١٩٤٤ إلى ١٣١٠ مدارس سنة ١٩٧٠.

---

(١) (ليون غامبته ١٨٣٨ ـ ١٨٨٢ أحد أهم مؤسسي الجمهورية الفرنسية؛ وهو معروف بدفاعه عن العلمنة ومحاربته لسلطة رجال الدين، ووصفهم بالأعداء بجملته المشهورة: (le cléricalisme voilà l'ennemi!).

في نفس الفترة تابع القطاع التعليمي الخاص انتشاره وتوسع بدوره، وزاد عدد مؤسساته التعليمية من ١٢٧٩ مدرسة سنة ١٩٤٤ إلى ١٤٧٤ مدرسة سنة ١٩٧٠.

وفي نفس السنة كان عدد طلاب المدارس الخاصة، يفوق عدد طلاب المدارس الرسمية بمئتي ألف طالب؛ مما يدل على قلة المدارس الرسمية وضعفها.

وجاءت حرب ١٩٧٥ لتقضي على هذه المدارس وتعريها من تجهيزاتها وتلحق الأضرار بأبنيتها فأضعفتها وأصبحت غير قادرة على مجابهة القطاع التعليمي الخاص؛ وضعف مستواها العلمي نظراً لانعدام تأهيل الهيئة التعليمية وأضحى أكثر طلابها من أبناء الطبقة الفقيرة غير القادرة على دفع الأقساط الباهظة في المدارس الخاصة.

وحسب مركز الأبحاث التربوي؛ فإن الوضع سنة ١٩٩٢ كان كما يلي:

- ٢٣٥٧٤٨ طالب في المدارس الرسمية بما فيها المدارس الابتدائية، التكميلية والثانوية؛ أي فقط حوالي ٣٠ بالمئة من مجموع الطلاب اللبنانيين. علماً أن هذه المدارس موزعة بشكل غير متوازي بين المناطق. وكما ألمحنا سابقاً أن أكثر طلابها من أبناء الطبقة الفقيرة منهم ٧٠ بالمئة مسلمين و٣٠ بالمئة مسيحيين.

- بالنسبة للمدارس الخاصة فالصورة عكسية تماماً: ١١٤٦٥١ طالب في المدارس الخاصة المجانية (أي المدارس التي تتلقى مساعدات من الدولة) و٤٢٠١٢٨ طالب في المدارس الخاصة ذات الأقساط المرتفعة وأكثرهم من أبناء الطبقة الثرية؛ لذلك نسبة الطلاب المسلمين فيها لا تتعدى ١٤ في المئة في حين أن نسبة الطلاب المسيحيين هي ٨٦ بالمئة.

نسبة الطلاب في المدارس الخاصة الأجنبية هي ٢٧ بالمئة من المسلمين مقابل ٧٣ بالمئة من المسيحيين[١].

نترك هذه الأرقام تتكلم بنفسها!

تجدر الملاحظة أن طلاب المدارسة الدينية بطبيعة الحال من نوع ديني واحد،

---

(١) Gerard Figuie «le point sur le Liban» Anthologie. Beyrouth. 1996.

إلاّ أن بعض أبناء المسلمين القلائل وبالذات الأثرياء منهم نجدهم في المدارس الدينية المسيحية، وذلك نظراً للمستوى العلمي الرفيع في هذه المؤسسات، أو لأنهم مجبرين على ذلك، لأنه لا يوجد بديل أو مدارس أخرى في أحيائهم.

وهكذا نجد أن ٢٦ بالمئة من أبناء المسلمين في المدارس المسيحية مقابل أقل من ٢ في المئة من أبناء المسيحيين في المدارس المسلمة.

أما بالنسبة للتعليم العالي، فإن نصف الطلاب مسجلين في الجامعة اللبنانية التي تأسست سنة ١٩٥٣، والنصف الآخر موزع بين الجامعة الأميركية، الجامعة اليسوعية، الجامعة العربية وفي البلاد الأوروبية والولايات المتحدة الأميركية.

أثناء الحرب اللبنانية الأخيرة وبعدها ونظراً للضائقة المادية، توجه الكثير من الطلاب اللبنانيين إلى الدول الشرقية والدول العربية، حيث التعليم أقل كلفة مادية ولكنه في نفس الوقت أقل مستوى منه في الدول الغربية، وأكثر هؤلاء الطلاب هم من المسلمين.

والآن... بعد أن أعطينا نبذة عن تاريخ التعليم في لبنان؛ مع اعترافنا المسبق بأننا لم نحط بالموضوع من كل جوانبه، لأن هدفنا ليس كتابة التاريخ، فهناك من هم أكثر أهلية لذلك، بل هدفنا دراسة تحليلية للواقع التعليمي في لبنان، وردات فعله على المجتمع اللبناني ومضاعفاته الاقتصادية والسياسية، علّنا نرى معالم طريق تساعدنا على إيجاد حل لهذا الموضوع المعقد الحساس والأساسي لكل إصلاح منشود في لبنان؛ لأن موضوع التعليم يطال جميع اللبنانيين بدون استثناء، واللبناني معروف بحبه للعلم، والهم الأول للأهل في لبنان هو تعليم أبنائهم، مهما كانت التضحيات؛ والأمثلة عديدة عن الأهل اللذين يحرمون أنفسهم من الكماليات بل أحياناً من الضروريات الحياتية في سبيل تعليم أبنائهم، لأنهم يعرفون أن العلم هو طريقهم نحو الأفضل.

بعد هذا العرض الموجز للمؤسسات التعليمية، لا بد لنا من أن نتكلم عن علاقة الدولة اللبنانية مع هذه المؤسسات، وخاصة مع الإرساليات الأجنبية، وعن برامجها وتأثيرها في المجتمع اللبناني.

لا بد لنا أن نعترف أولاً لهذه المؤسسات بدورها التعليمي، وبمستواها العلمي؛ وهي قد أثبتت ذلك بنتائج طلابها في الامتحانات الرسمية، ومأخذنا ليس بتعليمها المواد العلمية، ولكن على برامجها التي تتبع برامج دولها الأم، وعلى تأثير هذه البرامج الدينية والسياسية على النشء اللبناني؛ وهذا المأخذ نأخذه أيضاً على المؤسسات الدينية الوطنية، والتي أغلبها يتلقى المعونات من مصادر خارجية، مع اعترافنا أن هذه المؤسسات ولدت لتقصير الدولة بالقيام بواجبها التعليمي، وكردة فعل على وجود الإرساليات الدينية الأجنبية؛ لأن ما نسمح به للغريب لا نستطيع منعه عن أهل البلاد، ثم لهذه الحرية المطلقة لهذه المؤسسات بالتصرف على هواها في تنظيم إدارتها وتطبيق ما أرادت من قوانين داخلية أو تنظيمية وشروط قبول أو رفض الطلاب بدون حسيب أو رقيب. هذه الحرية في مزج التعليم الديني والعلمي داخل البناء المدرسي، وإجبار الطلاب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تلقي التعليم الديني.

القانون اللبناني يعطي حرية المعتقد للجميع ومزاولة الطقوس الدينية ولكن داخل المعابد؛ ولا تنقصنا معابد في لبنان حتى نحول المدرسة إلى معبد إضافي. ويكفي أن نستعرض أسماء هذه المدارس لنرى أن أكثرها يحمل أسماء الأنبياء والرسل والقديسين والأئمة، وكأنه لا يوجد في تاريخنا رجال علم أو أدباء أو شعراء يستحقون المكافأة وتسمية هذه المدارس بأسمائهم.

هذا إلى جانب الشعارات الدينية المنتشرة داخل هذه المؤسسات، وكلها تظهر خصائصها المذهبية واختلافها عن الآخر.

في هذا الجو من التأثير على عقول النشء، استطاعت كل إرسالية أجنبية أن تؤثر على فئة من الشعب اللبناني وجعلته تابعاً لها ومدافعاً عن وجودها؛ وبما أنه يوجد إرساليات عديدة مختلفة السياسة والآراء، فمن الطبيعي أن تفرز وتقسم المجتمع اللبناني إلى فئات عديدة بدورها مختلفة السياسة والآراء[١]. وبالرغم من القرار السياسي بإظهار وجه لبنان العربي، لا تزال المدارس الكاثوليكية تلقن طلابها الفكرة

(١) المصدر السابق، ص ١٠٦.

القائلة بأن لبنان عائد للحضارة الفينيقية، بينما المدارس المسلمة تلقن طلابها لبنان العربي.

لو سألنا طلابنا أن يحددوا هوية لبنان أو فقط أصل لبنان، لكانت المفاجأة بتعدد الأجوبة، وكأنه لكل لبناني لبنانه؛ وهذه حصيلة الفوضى التعليمية واختلاف البرامج. والأخطر من ذلك أن هذه الإرساليات الأجنبية التي استطاعت كما رأينا أن تنشىء أجيال مشبعة بأفكارها، استطاعت بسلطتها السياسية أن توصل هؤلاء الطلاب إلى مراكز المسؤولية في الدولة اللبنانية، من موظفين درجة أولى إلى سياسيين وأصحاب قرار؛ فمن الصعب على هؤلاء أخذ القرار الذي يتناقض مع نشأتهم وتربيتهم المدرسية، خاصة أن هذه الإرساليات لم تقطع علاقتها معهم؛ فظلت على اتصال بهم تحت غطاء جمعيات المتخرجين أو كأعضاء شرف، وهذا ما لا نجد له مثيل في المدارس الحكومية.

فهذه المدارس الأجنبية حمت نفسها بوضع اليد على القرار السياسي من خلال خريجيها؛ وهذا ما يفسر لنا فشل كل القرارات التي أخذت في هذا المجال؛ حيث بقيت قرارات بدون تنفيذ.

وقرارات الدولة كثيرة في هذا الموضوع: تسع وأربعون حكومة تولت الحكم، وثلاث وثلاثون تصريح وقرار حول التعليم في لبنان بقيت للأسف مجرد تمنيات وبقيت للأسف مجرد تمنيات وبقيت بدون تنفيذ هذا عدا اللجان.

أوكلت الدولة مهمة الإصلاح إلى مركز الأبحاث والتطوير التربوي؛ وهو مركز مستقل من مهامه وضع برامج تربوية للمدارس في لبنان والإشراف على التعليم والمعلمين وعلى عاتقه تقع مهمة تأهيل معلمي الصفوف الابتدائية والتكميلية في المدارس الحكومية!

وأكد هذا المركز على التربية الوطنية وتعليم الطلاب تاريخ لبنان وعلاقته مع العالم العربي والمؤسسات الدولية، كما أكد على اللغة العربية كلغة رسمية.

فقط المدارس الرسمية طبقت هذه القرارات واعتمدت برامج وزارة التربية

الوطنية، أما المدارس الخاصة فبغياب المراقبة الفعلية، لم تحترم قرارات الدولة اللبنانية خاصة أن الإلزام لهذه المدارس في تطبيق البرامج الجديدة، كان فقط في حال تقديم طلابها للامتحانات الرسمية، فبقيت تتصرف كالسابق بحرية تامة ضاربة عرض الحائط بالقرارات الرسمية، وظلت على اتصال مع دولها وتطبق برامج بلادها الأصلية.

هذه الإرساليات كانت ولا تزال تتصرف وكأنها تعمل حسب اتفاقية فرنسوا الأول والسلطان سليمان! وتبعتها حتى المدارس الأجنبية التي بنيت ما بين سنة ١٩٤٣ وسنة ١٩٧٥ أي بعد الاستقلال!

الجميع يعرف أن البرامج الأجنبية مهما بلغت من تقنية عالية، فهي مصبوغة بأفكار واضعيها السياسية والدينية، وقلما تخدم الوحدة الوطنية. ولذلك وجب تقوية المدارس الرسمية عدداً وعدة، ووضع برنامج تعليمي إلزامي تفرضه الدولة على جميع المؤسسات التعليمية، (رغم صعوبة التنفيذ!) بما فيها الإرساليات الدينية الأجنبية وهذا أبسط حق من حقوق الدولة اللبنانية، أن تبسط سيطرتها وتسترد هذا القطاع المهم، وتحمي النشء من التأثيرات الأجنبية وليتشرب جميع اللبنانيين من برنامج دولتهم حب الوطن، بدل أن يتشربوا حب الأوطان الأجنبية.

الوقوف في وجه تنفيذ هذه القرارات من قبل بعض أصحاب النفوذ قبل الحرب، قد يكون له مبرراته وقابل للنقاش، أما بعد حرب لبنان الأهلية، ولمسنا لمس اليد الإفرازات السامة للجهاز التعليمي وما أدى إليه من تخريب وتقسيم في جسم المجتمع اللبناني، فلا يجوز التغاضي عنه وإبقاء الأمور على حالها، مهما كانت الصعوبات والتضحيات من قبل بعض الفئات اللبنانية وذلك خدمة لوطننا ورحمة للأجيال القادمة، حتى لا ترث ما ورثناه وتصاب بما أصبنا به.

وبعد هذا العرض السريع ليس لنا سوى الدعاء والتمني أن ينجح أهل الإرادات الطيبة من السياسيين في وضع حد للمأساة التعليمية في لبنان.

الفصل الرابع

نشوء لبنان



تاريخ منطقة الشرق الأوسط

قبل أن تصبح هذه البقعة من الأرض الممتدة شرقي بحر الأبيض المتوسط، أرض الجمهورية اللبنانية، عرفت شعوباً عديدة وفتوحات وحضارات مُختلفة، خاصة أنها تقع في قلب الشرق الأوسط، مهد الحضارات وأرض الديانات السماوية، ولذلك سُميت **بالأرض المقدسة**. هذه البقعة من الأرض كانت مأهولة بالسكان منذ فجر تاريخ الإنسانية، حيث اكتشفت آثاراً تعود إلى ٨٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد تشير إلى وجود الإنسان في هذه المنطقة! وسنعرض بكثير من الإيجاز أهم المراحل التاريخية التي مرت بها هذه الأرض التي كانت وعلى مر العصور نقطة التقاء وتفاعل بين حضارات الشعوب المختلفة.

- في القرن الأربعة آلاف قبل الميلاد سكنها الكنعانيون أجداد الفينيقيين، وهم من أصل سامي جاؤوا من داخل الجزيرة العربية، وفي القرن الثلاثة آلاف بُنيت المدن التجارية.

- في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، سكن لبنان الفينيقيون، أحفاد الكنعانيين ومثلهم من أصل سامي، وبنوا على طول الساحل مُدن تجارية مستقلة شبه ممالك صغيرة: منها أرواد (Arados) البترون (Bathrus) جبيل (Byblos) بيروت (Bérytos) صيدا (Sidon) وصور (Tyr)... وبعض اللبنانيين يعطون أهمية زائدة لهذه الفترة التاريخية ويعتبرون أنفسهم من هذا الأصل الفينيقي القديم. مهما يكن من أمر، المتفق عليه هو أن الفينيقيين كانوا بحارة مهرة وتجار مشهورين، بنوا المدن واخترعوا الأبجدية.

- بين القرن الخامس عشر والثالث عشر قبل الميلاد، سيطر المصريون على هذا الساحل، وكانت فترة ازدهار وانتعاش للمنطقة.

- بين القرنين التاسع والخامس قبل الميلاد، سيطر البابليون والفرس.

ـ في الفترة من القرن الخامس حتى ٣٣٣ سنة قبل الميلاد كانت السيطرة اليونانية وانتصار الاسكندر على الفرس، وانطلاقاً من هذه المرحلة أصبحت الأراضي التي تؤلف لبنان الحالي ضمن سوريا.

ـ سنة ٦٤ قبل الميلاد هاجم جيش بومباي (Pompée) الروماني الشرق الأوسط، وأُنشئت المقاطعة السورية (Provincia Syria).

ـ في سنة ٣٩٥ م. وبعد موت الأمبراطور تيودوس الأول (Théodos 1er) انقسمت الأمبراطورية الرومانية إلى قسمين: الأمبراطورية الغربية لابنه هونوريس (Honorius) والأمبراطورية الشرقية لابنه آركاديوس (Arcadius) وعاصمتها اسطنبول. ومن هنا كانت بداية العصر البيزنطي.

ـ في القرن السابع بعد الميلاد، اتحد العرب تحت راية الإسلام، وخرجوا من الجزيرة العربية لينشروا رسالة نبيهم وخلفائهم بين شعوب الأرض، وأول ما وصلوا إليه هي منطقة الشرق الأوسط، حيث قضوا على الجيش البيزنطي ونشروا سيطرتهم على فلسطين واستولوا على القدس بقيادة يزيد بن أبو سفيان سنة ٦٣٤ م.

سنة ٦٣٦ هزم القائد خالد بن الوليد قوات الأمبراطور هيراكيليس الأول (Héraclius 1er) في معركة اليرموك الشهيرة وأعطى النصر للعرب، فنشروا سيطرتهم على سوريا ومصر ومنها على شمالي أفريقيا.

في القرن الثامن وصلت الحملة العربية شرقاً حدود الصين، واستولى الجيش الإسلامي على قسم من الهند، وغرباً وبعد الاستيلاء على شمالي أفريقيا، استولت القوات العربية على إسبانيا وتقدمت باتجاه فرنسا إلى أن استطاع الفرنسيون إيقافهم بالقرب من مدينة بواتيه (Poitiers) سنة ٧٣٢ م.

الفتح العربي أثر تأثيراً كبيراً في البلاد التي وقعت تحت سيطرته، فكان على السكان أن يختاروا بين اعتناق الدين الإسلامي أو دفع الجزية، وأغلب سكان الشرق الأوسط اعتنقوا الدين الإسلامي، واعتمدوا اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولغة الصلاة، وطبقوا في حياتهم اليومية التعاليم الإسلامية.

فئة قليلة من سكان الشرق الأوسط بقيت مُعتنقة العقيدة المسيحية أو العقيدة اليهودية؛ وهنا لا بد لنا أن نشير إلى التسامح الإسلامي مع بقية الأديان السماوية وخاصة مع المسيحيين واليهود، المعروفين عند المسلمين بأهل الكتاب (أي التوراة والكتاب المقدس)، وأن المسلمين الأوائل أمرهم نبيهم بالتوجه والاحتماء عند مسيحيي أثيوبيا، كما أن زوجة الخليفة معاوية كانت مسيحية، وهي أم وريثه يزيد، والخليفة معاوية بنى كنيسة للمسيحيين من مال المسلمين بعد أن هدمها الزلزال.

وهكذا.. فالتسامح كان صفة من صفاة المسلمين الأوائل، ولكن السياسة والمطالبة بالامتيازات الفئوية، أفسدت هذا التسامح وليس الدين، وأول نكسة في هذا التسامح كانت مع قدوم العباسيين إلى سدة الخلافة، حيث طُلب من كل سكان الشرق الأوسط والذين هم من أصل عربي اعتناق الديانة الإسلامية، هذا ما رفضه بعض مسيحيي شمالي لبنان والذي أدى إلى اقتتال بينهم وبين العباسيين، وبعد أن حققوا تفوقاً عسكرياً في المنيطرة انهزموا في بعلبك وشُتتوا داخل سوريا.

ـ في القرن العاشر بدأ عهد الانحطاط العربي، فانقسمت البلاد بين العباسيين في بغداد والفاطميين في مصر، وسيطر الفاطميون على سوريا ولبنان. (في هذه الفترة نشأت العقيدة الدرزية التي أسسها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله).

ـ في سنة ١٠٥٠ م. بدأ السلجوقيون الأتراك، وباسم الإسلام السني، تنفيذ مُخططهم الرامي إلى التوحيد الديني والسياسي للبلاد وتحرير الخلافة من أيدي الهراطقة، وحسب الأتراك فإن الهراطقة هم: الشيعة، الإسماعيليون والفاطميون.

وهكذا دخل طغريل بك، مُؤسس العائلة السلجوقية، بقواته بغداد سنة ١٠٥٥ م. وأجبر الخليفة أن يعطيه لقب سلطان واستولى على السلطة، وأقام حكماً عسكرياً، ولكن بالرغم من الحكم العسكري ونشر تعاليم الدين الإسلامي بواسطة المدارس الدينية (هو أول من أسس هذه المدارس القرآنية)؛ اختلف ورثة السلطان مالك شاه فيما بينهم وضعف سلطانهم وظهرت حركات الاستقلال داخل السلطنة، وازداد الوضع خطورة مع وصول الصليبيين.

منذ ذاك التاريخ وطوال القرنين الثاني والثالث عشر، حصلت أول مواجهة بين العالم الشرقي والعالم الغربي، وبدأ الغرب المسيحي «الحرب المقدسة» المعروفة أيضاً «بالحروب الصليبية» ضد الشرق المسلم، واستطاع الصليبيون الوصول إلى بلاد الشرق الأوسط والسيطرة وبناء دول لاتينية صغيرة، مثل مملكة القدس سنة ١٠٩٩ م. مملكة طرابلس وإمارة أنطاكيه.

ولنتوقف هنا قليلاً عن تعداد هذه المراحل بالرغم من أهميتها، لأنه ليس هدفنا كتابة تاريخ هذه المنطقة، بل فهم هذا التاريخ، خاصة أن مُضاعفاته لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، لأن فهم هذا التاريخ يشرح لنا الكثير من الأسباب التي أدت إلى ما نحن عليه الآن من خلاف واقتتال، وبالتالي يساعدنا على إيجاد العلاج لمشاكلنا المزمنة، وهنا لا بد أن نشير إلى عدة ملاحظات:

- يتبين من هذا العرض بوضوح، التشابك بين المعتقد السياسي والمعتقد الديني، عند المسيحيين كما عند المسلمين.

- التنافس والخلاف بين المسلمين والمسيحيين أدى إلى حروب دينية في الأرض المقدسة!

حتى في ذاك العصر، اختلف المسلمون وتفرقوا فرقاً دينية ومذاهب، واعتقد أتباع كل مذهب أن مذهبهم هو الصحيح وأنهم الوحيدون على حق، فتقاتلوا فيما بينهم، دون أن ينتبهوا للأخطار الخارجية التي كانت تحيط بهم.

ولم يكن التقاتل بين ديانتين مختلفتين بل كان أيضاً بين مذاهب الدين الواحد.

بعد هذه الملاحظات نعود لنتابع سرد المحطات التاريخية المهمة لهذه المنطقة.

عام ١١٨٧ م استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يسترجع القدس ويسيطر على الأراضي التي كان يسيطر عليها الفرنجة، وشحذ همة المسلمين وغذى فكرة الجهاد المقدس والروح الإسلامية من جديد.

- في القرن الثالث عشر جاء الخطر هذه المرة، على الأمبراطورية الإسلامية من الشرق، بقيادة جنكيزخان حيث اكتسح المغول تركيا وإيران. وفي سنة ١٢٥٧ م.

دخلوا بغداد، وقتلوا الخليفة وقضوا على جميع أفراد عائلته وتابعوا تقدمهم باتجاه سوريا وسيطروا عليها. (المغول ليسوا بمسلمين بل هم بوذيين boudistes وقائدهم هولاكو كان متزوجاً من مسيحية، بعض المؤرخين يرى في هذه الزيجة سبباً في التحالف اللاحق بين المغول والصليبيين ضد آخر قوة إسلامية في الشرق، قوة المماليك في مصر).

ـ المماليك (وهم عبيد من أصل تركي) كانوا يعيشون في القصور كمرتزقة ضمن حاشية السلاطين الأيوبيين، ورثة صلاح الدين الأيوبي، فثاروا على أسيادهم ونفوهم واستولوا على السلطة في مصر، أحد هؤلاء المماليك وهو القائد بيبرس استطاع أن يوقف زحف المغول، واستولى على سوريا واستعاد إمارة أنطاكية وحجَّم دور الصليبيين في المنطقة.

ـ في القرن الرابع عشر استطاع الأتراك بقيادة تامرلان أن يقضوا نهائياً على سيطرة المغول على منطقة الشرق الأوسط، وأسسوا الأمبراطورية العثمانية باسم الإسلام السني وبسطوا سيطرتهم حتى حدود الهند. وفي سنة ١٤٥٣ م. استولى محمد الثاني الملقب بالفاتح على اسطنبول وغزى منطقة البلقان وبسط الأتراك سيطرتهم على سوريا ومصر بقيادة سليم الأول الملقب بالمرعب عام ١٥١٢ م وحتى عام ١٥٢٠ م.

بين سنة ١٥٢٠ و١٥٢٦ استولى السلطان سليمان المعروف بالمنظم على العراق، وتوسعت الأمبراطورية التركية، توسعاً لم تعرفه من قبل أي أمبراطورية أُخرى في العالم، مما جعل من الصعب السيطرة على جميع أنحاء البلاد الواسعة، وصعُب معها مُقاومة اليقظات القومية، العربية منها والأوروبية.

في القرنين السابع والثامن عشر، بدأ عهد انحطاط الأمبراطورية العثمانية، إلى أن سُميت «بالرجل المريض»، وأخذت تضيق مساحتها، وبدأ الكثير من الشعوب بالمطالبة للحصول على استقلالها مستغلين ضعف السلطة المركزية، فاستقلت صربيا الشمالية، هنغاريا، ترنسيلفانيا، كما أُجبر العثمانيون على التخلي عن جميع المناطق الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود.

في القرن التاسع عشر وبالرغم من مساندة الفرنسيين والإنكليز، أخذت تركيا بالانهيار كلياً (نُذكِّر هنا بمساعدة الفرنسيين والإنكليز للأتراك في حربهم ضد الروس).

مما لا شك فيه أنه مُنذ ذاك الوقت، كان لكل من فرنسا وبريطانيا أطماع في الشرق الأوسط؛ لأن الباشا محمد علي حاكم مصر لم يستطع الحصول على الاستقلال الكلي رغم انتصاره على المماليك، وتجسدت هذه الأطماع بالسيطرة الإنكليزية على مصر سنة ١٨٨٢ م.

في سنة ١٨٧٨ م. أُرغم العثمانيون على التخلي عن جزيرة قبرص وإعطائها للإنجليز، وفي نفس السنة حصلت كل من رومانيا، ومونتينيغرو وصربيا على استقلالها، وأصبح للبنان وضع مُستقل خاص به، وفي نفس الفترة بدأ الوعي القومي العربي.

أثناء الحرب العالمية الأولى قضت الدولة التركية على نفسها بتحالفها مع الألمان، حيث خسرا الحرب.

في ١٠ آب (أغسطس) من سنة ١٩٢٠ م. تحررت سوريا (والتي كانت تشمل لبنان آنذاك) من النير العثماني، لتقع تحت سيطرة الانتداب الفرنسي.

وفي ١ أيلول (سبتمبر) من السنة نفسها، أعلن الجنرال غورو ولادة لبنان الكبير، أمام ممثلي الحلفاء وممثلي جميع الطوائف اللبنانية. ويُمثل هذا التاريخ بداية قيام كيان لبناني مُعترف به رسمياً.

ولادة لبنان

حتى القرن السابع عشر، لم يكن للبنان وجود سياسي مُستقل، وكلمة لبنان كانت تعني سلسلة الجبال التي ورد ذكرها في التوراة مُشيراً لأرز هذه الجبال. البعض يُعيد فكرة لبنان السياسي إلى أيام الأمير فخر الدين، بالرغم من أن المساحة التي كان يسيطر عليها كانت تفوق بكثير مساحة لبنان الحالي، لأنها كانت تمتد من حلب شمالاً إلى القدس جنوباً، وهي مناطق تقع ضمن المقاطعة السورية. والواقع أن الأمير فخر الدين حاول بناء علاقة مباشرة مع السلطة التركية المركزية، كي يحصل على نوع من الاستقلالية والإدارة الذاتية، وذلك لأهمية المساحة التي يسيطر عليها، وعلى أن تكون علاقته مباشرة مع السلطان دون المرور بسلطة الحاكم التركي المحلي، ولكن هذا لم يعفه من جمع الضرائب من السكان، وإرسالها إلى اسطنبول بعد اقتطاع حصته وحصة المحصلين لهذه الضرائب؛ ولا نستطيع أن نسمي هذا الوضع بالاستقلال السياسي الكلي، وبالرغم من ذلك، كان تصرف الأمير هذا، بنظر البعض، البذرة التي نبتت منها فكرة لبنان السياسي المستقل.

لم تُعرف سابقاً حدود معينة ثابتة لما سيصبح لبنان لاحقاً، لأن هذه الحدود كانت تُعدل حسب الظروف السياسية للمنطقة؛ وغالباً ما كانت تراه السلطة العثمانية المركزية، أو الدول الأجنبية التي أخذت تتدخل في شؤون المنطقة كحلّ للأحداث الطائفية، خاصةً بعد أحداث ١٨٤١ م. والاقتتال بين الدروز والمسيحيين، حيث قُسمت البلاد إلى قائمقاميتين: واحدة في الشمال أغلبية سكانها من الموارنة وعلى رأسها قائمقام ماروني تابع لسلطة بشليك: مركز الحاكم التركي بيروت؛ والثانية في الجنوب، وأكثر قاطنيها من الدروز، وعلى رأسها قائمقام درزي تابع للحاكم التركي في صيدا؛ يفصل بين القائمقاميتين طريق بيروت ـ دمشق. إلى جانب القضاء على وحدة البلاد الجغرافية وقيام القائمقاميتين، رُسِّخت الطائفية نهائياً وبشكل رسمي في البلاد، وقسم الفكر السياسي اللبناني إلى قسمين: فكر سياسي ينادي به المسلمون

وفكر سياسي آخر، ينادي به المسيحيون (وكل ينادي على ليلاه!) ومُنذ ذاك الوقت وإلى الآن لم يستطع اللبنانيون أن يجدوا القواسم المشتركة التي تجمعهم وهم على خلاف دائم.

وهنا لا بد أن نشير إلى دور الإنجليز في إقامة القائمقاميتين. كان الصراع على أشده بين الإنجليز والفرنسيين، كما أشرنا لتحقيق أطماعهم في الشرق الأوسط؛ ولم تستطع إنكلترا أن تُبعد الفرنسيين ولم تستطع أن تكسب مودة الموارنة لأنهم كانوا على صلة وثيقة مع فرنسا؛ وإنشاء القائمقاميتين، أعطى الفرصة الذهبية للإنجليز للتدخل في شؤون الشرق الأوسط وذلك من باب الدفاع وحماية الدروز، خاصةً أن الفرنسيين يحمون ويدافعون عن الموارنة.

وهكذا، كان على أثر أحداث ١٨٦٠ م. الطائفية بين الدروز والموارنة، (قُدر عدد القتلى من الطرفين ٢٢,٠٠٠ قتيل) أن يدخل الإنجليز لبنان للدفاع عن الدروز؛ والفرنسيون كحامين للكاثوليكية جاؤوا لمناصرة الموارنة، ونزلت البحرية الفرنسية مرفأ بيروت واتجهت ثم استقرت في دير القمر (مدينة مسيحية موجودة في الشوف). ومُنذ ذاك الوقت أصبح مصير لبنان بين أيدي الدول الأجنبية والقوى المحلية، وورقة تتلاعب بها الأعاصير السياسية الشرق أوسطية، يدفع ثمنها غالباً الشعب اللبناني.

قررت الدول الأوروبية في اجتماعها في بيروت ١٨٦١ م أن تعتمد نظام المتصرفية أو سنجك (أي مقاطعة إدارية تركية) على أن تدير شؤونها القوى الأجنبية ضامنة الاتفاق؛ وأول مُتصرف كان مسيحي من أصل تركي، عُين من قبل اسطنبول بعد استشارة القوى الأوروبية. وهنا أيضاً نشير إلى أن هذه الضمانة الدولية سمحت للبنان في ذاك الوقت أن يجد السلام الأمني وأن يزدهر! فهل نحن دائماً بحاجة إلى وصاية أجنبية أو ضمانة خارجية لنستطيع العيش معاً بأمان!

دامت المتصرفية حتى بداية الحرب العالمية الأولى. وفي سنة ١٩١٤ م. دخل الأتراك الحرب ضد الحلفاء، وألغوا نظام المتصرفية الذي وضع في لبنان من قبلهم، ووضعوا لبنان تحت سلطتهم المباشرة، وعينت اسطنبول مُحافظ تركي على لبنان، وأعلن حال وصوله «مهمتي تختلف عن الحكام السابقين المعينين من قبل الدول

الست. إرادة سيدنا عيّنتني مباشرة». هذا القرار يدل صراحةً أن تركيا ألغت الاتفاق الموجود بينها وبين هذه القوى، بما يختص باختيار الحكام أو بإدارة هذا السنجك[1].
وخلال أربع سنوات ذاق اللبنانيون الأمرّين من قساوة الحكم التركي؛ هذا الموقف الصلب والسياسة التعسفية للأتراك أسرعت في ظهور الوعي القومي العربي، وكان المسيحيون الموارنة من السباقين في هذا المجال وأول من حمل راية الوعي القومي العربي، والتاريخ يذكر هنا أسماء أصبحت مشهورة، مثل ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم اليازجي وهو أول من نادى: «استيقظوا يا عرب»!

هنا وفي هذه المرحلة بالذات، ركز الكثير من الكتاب اللبنانيين على دور المسيحيين في مقاومة الاحتلال التركي، وأظهروا إعلامياً الدور البطولي للطلاب المسيحيين، وما قاموا به من مطالب، وطبعاً موقف المسيحيين هذا هو موقف وطني مُشرف ويدعو للفخر والاعتزاز، ولكن أصحاب هذه الكتابات تغاضوا كلياً عن دور المسلمين والطلبة المسلمين الذين كانوا قلة في ذاك الوقت (راجع فصل التعليم) وكأنهم يريدون الإيحاء بأن المسيحيين قاوموا الأتراك بمفردهم وبدون مساعدة المسلمين اللبنانيين، والإيحاء بأن لهم الفضل على المسلمين وعلى الأمة العربية، وإن استيقظت هذه الأمة فذلك عائد إلى صرختهم «استيقظوا يا عرب!» وبعض الكتاب يستغرب ويستهجن موقف المسيحيين الوطني ضد التسلط التركي، ودعونا نتساءل: لماذا هذا الاستهجان؟ أوَليس المسيحيون مواطنين مثلهم مثل المسلمين؟ وهل تحملوا ثقل الاستعمار التركي بمفردهم؟ أوَليس المسيحيون مثلهم مثل المسلمين من أصل عربي؟ وهل من عجب في مقاومة العرب (مسيحيون ومسلمون) للأتراك بعد طوال خمسة قرون من استعمارهم للأمة العربية؟ وهل اضطُهد المسيحيون من قبل الأتراك أكثر من الطائفة الشيعية العربية المسلمة؟

يقول جان بيار آلم في كتابه «لبنان»: «تحمّل لبنان خلال أربع سنوات نشاط المحاكم العسكرية العرفية، وكان الاضطهاد فيه أقسى من بقية المقاطعات العربية في

---

(١) Jean - Pierre Alem, «Le Liban». pp 37.

الأمبراطورية العثمانية لأنهم كانوا لبنانيين ـ وبغرابة لبنانيين مسيحيين ـ الذين عملوا مُنذ العام ١٨٤٧ على بعث القومية العربية. . .» هذه التلميحات تضر بوحدة اللبنانيين ويتوجب الانتباه لها لأنها تزرع الشك في النفوس وتفرق بين اللبناني المسلم واللبناني المسيحي، لأنها تُظهر المواطن المسلم أقل وطنية وعروبة من المواطن المسيحي وهذه مُغالطة. ونستشهد هنا بما كتبه كمال صليبي «تاريخ لبنان» باللغة الفرنسية ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ «لا نستطيع أن ندعي بأن القومية العربية كانت في الأصل اختراع مسيحي لبنان صرف. والفكرة التي عرضها ابراهيم اليازجي ومجموعته المسيحية، كانت موجودة في كتابات الكتّاب المسلمين المعاصرين، خاصة عبد الرحمن الكواكبي في حلب سنة ١٨٢٥ ـ ١٩٠٢ م. والشيء المشترك عند العرب أنهم لا يحبون الأتراك(. . .) ونكّل الأتراك بالوطنيين المسلمين والمسيحيين على السواء».

الواقع أنه في بداية انطلاقة الوعي القومي، لم يكن هناك أي تفرقة دينية، وبطرس البستاني الماروني الأصل قبل أن يعتنق المذهب البروتستانتي ركز في مجلته «نفير سوريا» على شد أواصر الأخوة بين المسلمين والمسيحيين ضد الأتراك، وهو صاحب الهتاف المشهور الذي كتبه في مجلة «الجنان» «حُب الوطن من الإيمان».

هؤلاء الوطنيون الأوائل لم يفكروا طائفياً ولم يكونوا طائفيين، وهدف الجميع كان محاربة التهديد بتتريك وعثمنة المنطقة العربية، والخطر كان يُهدد الجميع مسلمين ومسيحيين على السواء، كما وقف القوميون العرب في وجه انتشار فكرة «الوحدة الإسلامية»، لأنه بإسم هذه الوحدة تدوم السيطرة العثمانية على الأمة العربية.

الفكر الطائفي جاء بعد سنة ١٩٠٩ م. عندما أصبحت القومية العربية حقيقة وبقيادة مُسلمة ودعت لقيام دولة عربية مُستقلة. وخاف المسيحيون أن يُصبحوا قلة داخل هذه الدولة العربية المنشودة، فتغيرت نظرتهم إلى هذه القومية العربية خاصة نظرة الموارنة والروم الكاثوليك، واللقاء السابق بين القوميين العرب والقوميين اللبنانيين كان فقط لقاءً استراتيجياً لمحاربة العثمانيين (في ٦ أيار (مايو) سنة ١٩١٦ نفذ الحاكم العسكري التركي جمال باشا حكم الإعدام شنقاً بأربعة عشر لبنانياً من المسلمين والمسيحيين، بتهمة الانتماء إلى الحركة العربية والاتصال بالشريف حسين

بمكة وفرنسا؛ وحدة المصير هذه جعلت من هذا اليوم عيداً للشهداء في كل من لبنان وسوريا)؛ وفي نظر غلاة القوميين اللبنانيين أن البقاء تحت السيطرة التركية هو أفضل لهم من الوضع الذي قد يصلون إليه في حال تحقيق أماني القوميين العرب في إقامة الدولة العربية الموحدة. من هنا بدأ الخلاف السياسي في لبنان بين دعاة القوميتين وتعاظم مع الوقت فأصبح أيضاً خلافاً طائفياً.

سنة ١٩١٦ م. تجسد الوعي القومي العربي بثورة الشريف حسين حيث أعلن في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) استقلال العرب عن الدولة العثمانية وأعلن نفسه **ملك البلاد العربية** وانطلقت الثورة من الحجاز باتجاه دمشق، بمباركة من الإنجليز، وسط حماس القوميين العرب وأملهم في إقامة المملكة العربية الموحدة. ولكن الوضع في لبنان لم يكن طبعاً بهذه البساطة، لأن الوضع السياسي الجديد للمنطقة ترك أثره على سكان لبنان متعددي الأهواء والميول وانقسم سكان لبنان إلى قسمين:

- قسم يساند الثورة العربية وقيام الدولة العربية الواحدة، وأكثريتهم من المسلمين مع قسم مُهم من المسيحيين العرب خاصةً الروم الأرثوذكس والبروتستانت.

- وقسم يريد طرد الأتراك خارج لبنان، ولكنه يرفض الانضمام المستقبلي إلى الدولة العربية الواحدة، وأكثريتهم من الموارنة.

طالب الموارنة فرنسا، حاميتهم التقليدية، المساعدة في تحقيق رغبتهم في إنشاء لبنان موسع ومُستقل تكون لهم فيه أهمية سياسية. وتلاقت الأطماع الفرنسية مع تطلعات الموارنة على أرض لبنان، خاصة وأن اتفاق سايكس ـ بيكو يعطي فرنسا، حرية التصرف في المنطقة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط، وأصبح التوجه الفرنسي واضح المعالم في خلق كيان لبناني مستقل عن محيطه العربي، وهذا الموقف الفرنسي تعارض كلياً مع سياسة الأمير فيصل العربية.

سنة ١٩١٧ م. تقدمت القوات العربية بقيادة الأمير فيصل باتجاه دمشق، حامية في طريقها خاصرة الجيش الإنجليزي الذي كان يقاتل الأتراك بقيادة الجنرال اللنبي Allenby في فلسطين، وبالرغم من المقاومة التركية استطاع اللنبي أن يستولي في ٩

كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧ م. على القدس، وفي هذه الأثناء كانت القوات العربية قد دخلت دمشق.

بعد هزيمة الأتراك ومغادرتهم أرض الشرق الأوسط في ٣٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨ م.، تألفت في دمشق وحسب الاتفاق المسبق مع الحلفاء أول حكومة عربية مركزية بإدارة الأمير سعيد الجزائري، وأبرق إلى جميع المدن في سوريا ولبنان طالباً منهم تأليف حكومات عربية تخضع لسلطة الأمير فيصل، وبعث برسالة إلى رشيد نخلة قائد فرقة «الفدائيين اللبنانيين» يقول فيها: «أعلنت سوريا الاستقلال العربي، شتتنا جيوش الترك، كل الوجوه تذهب إلى بعبدا لتشكل حكماً مطلقاً. الحمية العربية. أنتم عرب قبل كل شيء. أقيموا المظاهرات. دخل مولانا الأمير فيصل ابن مولانا سلطان العرب الأول دمشق بمحفل لم تشهد له سوريا نظيراً. جيش العرب ملأ السهول والجبال. لا تخافوا بل ابطشوا بكل معاكس. أريقوا الدماء ولكن بعدل. احفظوا أرواح بقية أبناء المذاهب منهم، إخواننا في الوطنية. فليحيا الاستقلال وليحيا سلطان العرب»[١].

وقبل أن يغادر والي بيروت التركي اسماعيل حقي بك توجه إلى جميع المأمورين بالكلمة التالية: «بناء على إعلان الحكومة العربية أصبحت المدينة أمام أمر واقع، فلقد عهد بإدارة أمور الحكومة إلى رئيس البلدية (عمر الداعوق)»[٢].

في عام ١٩١٨ م. أرسل الأمير فيصل بواسطة إيليا خوري الراية العربية مع مرسوم، إلى المسؤولين في المناطق اللبنانية يطلب منهم إعلان الاستقلال العربي. وبالفعل جرى رفع الراية العربية على دار الحكومة في بيروت بحضور حشد كبير من المواطنين، ـ وكانت فاطمة محمصاني، شقيقة محمود ومحمد محمصاني اللذين أعدمهما جمال باشا في ٦ أيار (مايو)، قابضة على حبل السارية وألقى مصطفى

---

(١) رشيد نخلة، «المنفى». المكتبة العصرية، بيروت ـ لبنان. ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٢) علي شعيب، «تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء» (١٩١٨ ـ ١٩٤٦). دار الفارابي ١٩٩٤. بيروت ـ لبنان.

نقلاً عن زين نور الدين زين: «الصراع الدولي في الشرق الأوسط»، ص ٢١٨.

الغلاييني كلمة بإسم الحكومة مطالباً الشعب بالمحافظة على الراية العربية التي كلفت الكثير من الدماء والشهداء والتضحيات لأن الراية «هي شعار الاستقلال فعلى الشعب أن يستميت في سبيلها ليحسب في عداد الأمم الحية»(١). وألفت الحكومة مجلس شورى من خمسة عشر عضواً بينهم أحمد مختار بيهم وألفرد سرسق عن مدينة بيروت. وكما أشرنا سابقاً أن هذه السياسة الوحدوية العربية لم تكن من رأي الفرنسيين والموارنة فأعلنوا رفضهم القاطع لهذا المجلس.

عين الأمير فيصل شكري باشا الأيوبي، حاكماً على بيروت حيث رفع العلم العربي في بعبدا (مركز المتصرفية)، ودعا بإسم الشريف حسين مجلس إدارة لبنان الذي ألغت العمل به الدولة التركية سنة ١٩١٥ م. للاجتماع، وللحصول على ثقة أهل الجبل، أعلن عودة استقلال جبل لبنان وعين حبيب باشا السعد حاكماً عليه. ولكن دعاة الدولة العربية الموحدة لم يكونوا بعد بمستوى الأحداث، فكانت تنقصهم الخبرة، وفكرة الدولة العربية لم تكن قد تبلورت ما فيه الكفاية، لتتخطى الولاءات الإقليمية والزعامات المحلية والنزعات العرقية، فلم يساندوا الحكومة العربية المساندة اللازمة ولم يستطيعوا مقاومة الفرنسيين والمعارضين اللبنانيين، الذين صُدموا بهذه السيطرة العربية للبنان، فقاوموها بكل قواهم، فانهارت هذه الحكومات بسرعة ولم تدم إلاّ أياماً معدودة.

وتطبيقاً للتفاهم السابق، القائم بين الإنجليز والفرنسيين حول تقاسم السيطرة على البلاد العربية، عين الجنرال الإنكليزي اللنبي قائد قوات الحلفاء في الشرق الكولونيل الفرنسي ديبيباب (Depiepape) حاكماً عسكرياً للبنان، وبأمر من اللنبي غادر شكري باشا الأيوبي بيروت، وأُنزل العلم العربي عن الأبنية الرسمية ووضع مكانه العلم الفرنسي، وتنازل الحاكم العربي عمر الداعوق عن سلطته ووضعها بتصرف الحاكم العسكري الفرنسي، ولم يطل الوقت فاستسلمت مدينة طرابلس بدورها إلى قوات الحلفاء، وثبّتت السلطات الفرنسية حبيب باشا السعد على رأس

---

(١) المصدر السابق. ص ١٢.

إدارة جبل لبنان، وأبقت على جميل بك الألشي معتمداً عربياً لدى الفرنسيين. هذا الموقف العدائي الذي فيه الكثير من الحقد التاريخي، والعنصرية والتعصب ضد العرب، والخوف من التفاف العرب حول قيادة واحدة، ومن أن يصبحوا قوة كبيرة في الشرق الأوسط، جعل الأوروبيين وحلفائهم يظهرون نواياهم الخفية، ويحاربون الثورة العربية، ليقضوا عليها في المهد قبل أن تكبر وتشكل خطراً عليهم وعلى مخططاتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط.

فأسرع الجنرال الإنكليزي اللنبي قائد قوات الحلفاء في الشرق، متناسياً الصراع السابق بين حكومته والحكومة الفرنسية، بعد أن تطابقت وجهة نظرهم كغربيين ضد الثورة العربية فأعلن باسم الحلفاء، في ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر)، القرارات الاستفزازية التالية:

- مُطالبة الأمير فيصل بالتخلي عن أقضية بعلبك، البقاع، راشيا وحاصبيا وتسليمها للحاكم العسكري الفرنسي.

- وضع الخطوط العريضة لحكم عسكري في سوريا، وتقسيم البلاد إلى: قسم جنوبي تحت السيطرة البريطانية يشمل فلسطين، وقسم شرقي عربي يشمل داخل سوريا الحالية، وقسم شمالي فرنسي يشمل لبنان والشواطىء السورية. وبعد أن عُرفت Cilicie بالقسم الشمالي في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) عُرفت الشواطىء السورية ولبنان الواقعين جنوباً بالمنطقة الغربية وبقيت التسمية قائمة حتى سنة ١٩٢٠ م.

وهنا نشاطر كمال الصليبي الرأي بأن تاريخ لبنان الحديث بدأ مع الاحتلال الفرنسي سنة ١٩١٨ م.، حيث أعلنت فرنسا وبكل صراحة، بلسان كولوندر Coulondre مُمثل ومعاون فرنسوا جورج بيكو الحاكم الفرنسي الأعلى للشرق: «جاءت فرنسا إلى لبنان خصيصاً لتحمي أصدقائها الموارنة وتحمي مصالحهم»... كانت النتيجة أن الموارنة كانوا يستقبلون ممثلي الحكومة الفرنسية أينما حلُّوا في لبنان، بالزغاريد والهتافات، ويطلقون العيارات النارية من مسدساتهم في الهواء ابتهاجاً بقدومهم[١].

---

(١) «تاريخ لبنان». كمال صليبي. ص ٢٥٥.

هذا التصريح الطائفي لممثل فرنسا، الدولة العلمانية، أقل ما يقال فيه إنه مُثير للاستهجان؛ جاهدت فرنسا طويلاً قبل أن تتوصل إلى فصل الدين عن الدولة، وإقرار النظام العلماني داخل أراضيها، وها هي الآن في لبنان تتبع سياسة طائفية وتهيىء لإقامة نظام طائفي؛ ولا نعلم إن كان ذلك، فعلاً، حباً بالموارنة أو كرهاً للمسلمين! خاصة أن الجنرال الفرنسي غورو نفسه، لم يستطع إخفاء كراهيته وحقده على المسلمين حين وقف أمام قبر صلاح الدين الأيوبي في دمشق قائلاً: «ها نحن عدنا يا صلاح الدين»[١].

ولكن الأكيد أن هذه السياسة فرّقت بين اللبنانيين؛ لأنه بقدر ما كان الابتهاج الماروني عظيماً بهذه المكتسبات السياسية كانت خيبة الأمل كبيرة عند المسلمين بضياع حلمهم بدولة عربية موحّدة، وعظمت الفجوة بين الفريقين: المسلمين والأرثوذكس يطالبون بالانضمام إلى الوحدة السورية، وبقية المسيحيين وخاصة الموارنة يرفضون هذه الوحدة.

أمام مُظاهرات العداء للفرنسيين وتعاظم الغضب الذي انتاب العرب، حاول الحلفاء تهدئة الأوضاع بأن أعلنوا في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩١٨ م. وعداً بإقامة حكومات وطنية حسب رغبة الأهالي، ولكن فرنسا لم توافق على تطبيق ما وُعد به وانفردت عن السياسة الانكليزية باسم حقوقها التاريخية وتابعت سياستها في بث روح العداء بين الطوائف.

الأمير فيصل لم يقف مكتوف الأيدي بل تابع نشاطه والعمل لمقاومة السياسة الفرنسية داعياً إلى نبذ الطائفية والانتباه من خطر الوقوع في شباكها. وفي خطاب ألقاه في حلب جاء فيه: «العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد»، وحذر من إلقاء بذور الفتن بين المواطنين بإسم الدين مهدِّداً بأشد العقاب كل من يقدم على ذلك[٢].

---

(١) «تاريخ المسلمين الموحدين الدروز». د. صالح زهر الدين ـ المركز العربي للأبحاث والتوثيق. بيروت ـ لبنان، ص ١٣.

(٢) «تاريخ لبنان». د. علي عبد المنعم شعيب. ص ٤١٤ نقلاً عن موسى سليمان «الحركة العربية» ص ٤١٤.

وتنقل الأمير فيصل بين المدن العربية، بما فيها طرابلس وبيروت وكان يُستقبل دائماً بحماس من قبل الجماهير بالرغم من التهديدات الفرنسية ومنع المظاهرات.

وتوالت المؤتمرات، وكل فريق يرفع بمذكرات ويرسل الوفود ليدافع عن مطالبه، ولكن الإرادة الفرنسية كانت معروفة مسبقاً بالنسبة للبنان، خاصةً بعد أن رفض رئيس الحكومة الفرنسية كليمنصو مشاركة الأمير فيصل في مؤتمر السلام في باريس، مما دفع بانجلترا وأميركا لأن يقنعا الفرنسيين بقبول مشاركة الأمير فيصل في الاجتماع، بعد أن تلقوا الضمانات من البريطاني لويد جورج بأن مشاركة الأمير فيصل في مؤتمر السلام، لن تؤثر على الاتفاق القائم بين بلديهما حول الشرق الأوسط.

انتهى مؤتمر السلام في باريس، المعروف بمؤتمر سان ريمو (San Remo) في ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ م، إلى القرار بأن منطقة الشرق الأوسط ليست قادرة على إدارة شؤونها بنفسها وهي بحاجة إلى وصاية، وهذه الوصاية تكون بوضع المنطقة تحت انتداب الحلفاء، وبالرغم من الاحتجاجات العربية ورفض الأمير فيصل لهذا القرار، إلاّ أن لبنان وضع تحت الانتداب الفرنسي.

وأول ما قام به الجنرال الفرنسي غورو Gouraud هو الحد من السيطرة العربية، فطلب من الأمير فيصل في ٢٠ تموز (يوليو) من نفس السنة:

- التخلي للجنود الفرنسيين عن سكة الحديد التي تصل بين رياق، حمص، حماه وحلب.
- أن تقبل البلاد الخاضعة للأمير فيصل استعمال النقد السوري.
- أن تقبل انتداب فرنسا عليها.
- أن تعاقب الثائرين في مذابح مرجعيون سنة ١٩٢٠.
- أن تمنع التجنيد القائم في سوريا.

وطبعاً لم يكن أمام الأمير فيصل سوى رفض هذه الطلبات. والواقع أن الجنرال غورو كان قد أخذ قراره بمحاربة الأمير فيصل، لأنه وقبل أن يأتيه الجواب بالرفض، أعطى أوامره للجيش الفرنسي باحتلال المعلقة ورياق والزحف على دمشق مركز

الحكومة العربية؛ وفي دمشق حاول وزير الدفاع في الحكومة العربية يوسف العظمة مع مقاتليه من الحركة الشعبية وقف تقدم القوات الفرنسية باتجاه دمشق، ودارت بينهم معركة ميسلون الشهيرة في ٢٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ م.، الواقعة على طريق بيروت ـ دمشق، ونظراً لتفاوت القوى، انهزمت القوات العربية أمام القوات الفرنسية واستشهد في المعركة القائد يوسف العظمة.

بعد هزيمة القوات العربية واستشهاد يوسف العظمة في ميسلون ومغادرة الأمير فيصل دمشق، قُضي نهائياً على كل أمل في إقامة الدولة العربية الموحدة، واستتب الأمر للفرنسيين نهائياً، فجزأوا منطقة الشرق الأوسط على هواهم، إلى دويلات طائفية تخدم مصالحهم ومصالح حلفائهم: لبنان الكبير، دولة العلويين، دولة دمشق، دولة حلب ودولة جبل الدروز ولواء الاسكندرونة.

هذا التفتيت للشرق العربي قاومه الوحدويون والقوميون العرب فاستطاعوا أن يوحدوا بين دولتي حلب ودمشق وانضمت إليهم لاحقاً دولة العلويين ودولة جبل الدروز، وألفوا معاً الجمهورية السورية الحالية، وبقي لبنان تحت السيطرة الفرنسية المباشرة، حرة التصرف به، حتى استطاعت فرنسا أخيراً تحقيق ما وعدت به.الموارنة وهو إنشاء دولة تقع تحت سيطرتهم، يتمتعون داخلها بامتيازات خاصة.

ولادة دولة لبنان الكبير

بعد ستة أسابيع من دخول القوات الفرنسية دمشق، وتطبيقاً للمصالح الاقتصادية الفرنسية، والتمنيات السياسية لأكثرية الموارنة، أعلن الجنرال غورو في ٣١ آب (أغسطس) سنة ١٩٢٠ م في خطاب عاطفي شاعري، ولادة لبنان الكبير، الذي يشمل الأراضي الممتدة من جبال عكار في الشمال إلى حدود فلسطين في الجنوب، وأضيف إلى جبل لبنان المدن الساحلية: طرابلس، بيروت، صيدا، صور وسهل البقاع وجبل عامل.

«نستشكف هنا النتائج المتعددة، لهذا التحول من لبنان صغير إلى دولة لبنان الكبير، خاصة الفوارق السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين المناطق المختلفة للبلاد، التي كانت سبب الضغوطات السياسية في فترة الانتداب. ومن جهة أخرى فإن خسارة سوريا لهذه المقاطعات بقيت نقطة خلاف بينها وبين لبنان، إلى درجة أنها تُعتبر من أحد أسباب التدخل السوري في الحرب اللبنانية»[١].

إعلان ولادة دولة لبنان الكبير، شكَّل وضعاً جديداً وتغيرات جذرية في التوزيع الطائفي، وتوازن القوى بين هذه الطوائف، وتغيرت الصورة السياسية السابقة والتي كانت قائمة على التفاعل بين الطائفتين المارونية والدرزية، فأصبحت هناك طوائف جديدة تطالب بلعب دورها السياسي وبمكانتها الاجتماعية وبحصتها الاقتصادية داخل الشكل الجديد للبنان. هذه الطوائف هي السنية والشيعية والروم الأثوذكس. وبعض الموارنة المتطرفين سياسياً، يندمون على قبول أجدادهم بهذا الشكل الجديد للبنان، وهم كانوا يفضلون البقاء ضمن لبنان صغير متجانس مارونياً، من قيام لبنان كبير حيث يقل تأثيرهم وتقل أهميتهم العددية.

كان تعداد السكان التقريبي في جبل لبنان حوالي ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، يؤلف

---

(١) Élizabeth Picard «Liban état - de discorde» Flamarion 1988 P. 64.

الموازنة الأكثرية بنسبة ٦٠ بالمئة والدروز ١٥ بالمئة والروم الكاثوليك ١٠ بالمئة، ولكن بعد ضم المدن الساحلية والبقاع، تغيرت النسب، فحسب الإحصاء الفرنسي سنة ١٩٢٢ م. (المنحاز طبعاً، لأنه قلل من أهمية عدد سكان المناطق الملحقة قسراً إلى جبل لبنان)، بالرغم من ذلك أظهر هذا الإحصاء نسبة ٥٠ بالمئة تقريباً للمسلمين و٥٠ بالمئة للمسيحيين.

إنشاء دولة لبنان الكبير، قضى على فكرة لبنان ملجأ الأقليات. وذلك بانضمام الطائفة السنية، وهي الطائفة الأكثر انتشاراً في العالم العربي والعالم الإسلامي.

الصورة الجديدة للخارطة الجغرافية وللموازين القوى تغيرت كلياً. وضطرت سلطات الانتداب الفرنسية أن تأخذها في عين الاعتبار قدر الإمكان دون الضرر بمصالح حلفائها الموارنة؛ بالرغم مما تقدم، أثار هذا الإعلان بشكل عام، الغبطة في نفوس المسيحيين وخاصة الموارنة، وخيبة أمل عند أكثرية المسلمين.

سنورد ما كتبه الصحفي الفرنسي ألبير لوندر (المشهور بأسلوبه الساخر) وأرسله من بيروت في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٥ م. إلى صحيفة «Le Petit Parisien» يقول: «الوضع في سوريا خطير جداً»[1].

في رسالة أرسلها ألبير لوندر من بيروت في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩٢٥ م. يقول: «الوضع في سوريا خطر جداً».

«الحركة المسلمة هي التي تخيفنا، وأسباب هذه الحركة ليست الأحداث التي جرت هنا في الأربعة أشهر الأخيرة، الأسباب هي أعمق من ذلك. هذه الثورة كانت تتفاعل منذ زمن طويل، وولدت من خيبة أمال المسلمين من السياسة (الفرنسية) العامة التي نتبعها في سوريا.

المسلمون حلموا ببناء الدولة العربية الكبيرة وكانوا ينتظرونها من أيدينا، ولكن نظرتنا إلى مصلحة البلاد تختلف. لقد أوجدنا الدول السورية بما فيها لبنان الكبير.

---

(١) أعيد نشر هذه المراسلات في كتاب خاص طُبع سنة ١٩٩٣ م. في دار النشر الفرنسية Le Seuil ومؤلف من ١٦٠ صفحة.

هذه المعادلة تعطي شكلياً الأهمية للبنان الكبير، حيث المسلمون ومنذ عدة قرون يسيطرون على المسيحيين، وهم يشعرون، بالرغم من أنهم أكثرية، أنهم تحت سلطة المسيحيين. إذاً طموح سياسي لم يتحقق وكراهية دينية مُتأججة، ومن هنا تأتي المأساة. بدأت مع الجنرال غورو واستمرت تتفاعل في زمن الجنرال ويغان».

Beyrouth 13 novembre 1925...).

La situation en Syrie est très grave.

C'est un mouvement musulman qui nous donne chaque jour des inquiétudes plus sériuses. Ce mouvement n'a pas pour causes principales les faits qui se sont déroilés ici durant ces quatres derniers mois, cela n'est que l'apparence. Les causes en sont autrement profondes.

Cette révolte était en puissance depuis longtemps; elle est née de la déception ressentie par les musulmans à la suite de la politique générale menée par nous en Syrie. Les musulmans avaient rêvé la constitution d'une Grande - Arabie et l'attendaient de nos mains/Nous ne la leur devions pas, ne la leur ayant jamais promise; cependant ils l'espéraient. Notre conception de l'intérêt du pays fut différente. Nous avons créé les Etats de Syrie, dont le Grand - Liban. Cette formulequi donnait au Grand - Liban un semblant de prépondérance, fit que les musulmans qui depuis des siècles, avaient dominé les chrétiens, se sentirent, tout en étant la majorité, sous l'influence de ces chrétiens. Donc, ambition ables et reportages 1925: un'/.politique déçue, haine de religion avivée... défi pour la France en Syrie par Albert Londres Juin 1993 Arléa Le Seuil p. 728 - 729 Journal «Le Petit Parisien» 10 novembre 1925.

إن سياسة التفرقة والتحوير تظهر بما كتبه نفس المراسل وفي نفس الوقت، سنتابع نشر ما كتبه الصحفي الفرنسي ونترك الحكم للقراء لما في كتاباته من أشياء مُثيرة:

«خرج المشاغبون من الظل، ونعني بالمشاغبين الرؤساء العرب المتعطشين للشرف والمال، الأتراك وعملاء موسكو، وسنرى شيئاً مُذهلاً.

لم يكن الجنرال ساراي Sarrail قد أطل بأنفه فوق مياه بيروت، حتى أخذ

المسلمون، لأسباب شرحتها سابقاً، يستعدون لليل طويل، بينما المسيحيون ورؤساؤهم عقدوا العزم علناً على مقاطعة المندوب السامي... (عرف الجنرال ساراي بغلاظته، وعدم احترامه لأهل البلاد، وهو مسؤول عن أحداث دمشق المؤلمة، والتي وصفها زغلول باشا المقاوم الوطني في مصر بأنها كارثة العصر، ويقصد بذلك، قصف مدينة دمشق وهدم نصف منازلها وقصف قصر العظم، لذلك لم يكن مرغوباً بمجيئه حتى من قبل الموارنة أصدقاء فرنسا).

المؤامرة مهيئة وهي بانتظار استغلال أي حادث بسيط. الحرب هي حالة دورية عند الدروز. فكل عشر أو اثنتي عشرة سنة، يذهبون ليقاتلوا يميناً أو شمالاً. هذا مرض يصيبهم دورياً، وقد أصابهم الآن وها هم قد وجدوا الفرصة للقتال.

المحرضون العرب دخلوا بمباحثات مع الدروز. قالوا لهم إنكم محظوظون، ستعطون لثورتكم صفة الشرف، ولن تكون هناك أعمال عصابات واقتتال بين القبائل كما كانت عادةً. انزلوا من الجبل ووسعوا حركتكم، وقاتلوا معنا باسم الفكرة الوطنية. تعالوا إلى دمشق».

ورأينا فعلاً، في دمشق الدروز والمسلمون يطلقون النار سوياً كأخوة. نضيف أنهم في هذه الفترة، نسوا كلياً الفكرة الوطنية، وكان همهم النهب فقط. نحن في الشرق.

«قاطعو الطرق هؤلاء كانوا حوالى خمسة آلاف مقاتل، ودمشق أصبحت مركزاً لنشاطهم. نحاربهم حيث وجدوا. الصحف الأجنبية سمت هذا بـ (القصف الكافر لدمشق) ونقل المحرضون، ولأسباب سياسية، الحرب إلى وسط المدينة، والقصف كان فقط حاجز نار.

وجهاء دمشق أنفسهم اعترفوا بذلك، وأرسلو لقطاع الطرق موفدين ليقولوا لهم: إنكم عديمي الوجدان جشعكم جلب لنا القصف، اذهبوا وقاتلوا في صحرائكم قدر ما تشاؤون، ولكن غادروا المدينة. نحن ندفع الجزية وندفع المئة ألف ليرة المطلوبة.

وهكذا كان. ولكم كان نهب دمشق مجرد حادث فقط في مُخطط حزب

العروبيين. في هذه الفترة، طور الحزب ومن يسانده مادياً نشاطهم بسرعة، وأصبح الوضع مخيفاً كل يوم أكثر من اليوم السابق.

وأخذ الثوار مهاجمة كل القرى ومهاجمة وحداتنا العسكرية. ولنعترف بأن قواتنا ضعيفة - فرقة كاميلن Gamelin منذ زمن طويل مقسمة إلى ثلاث قطع - وفي كل مرة كنا مُجبرين على التراجع.

خطر جديد يهددنا. الحزب المسمى بالوطني يحاول استمالة دروز ومسلمي لبنان الكبير، ومُنذ يومين يُركز عملياته في الجنوب قرب الحدود الفلسطينية. هذه الحرب الحقيقية قائمة باسم الاستقلال العربي. لدرجة أننا نتساءل إذا ما كان هناك بعد إمكانية للدور السياسي في الوقت الحاضر»(١).

في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) بعث المراسل نفسه برسالة إلى صحيفته يقول فيها: «لقد حُرفت أحداث سوريا بشكل مُعيب. والحقيقة تأخذ وقتاً طويلاً كي نشرحها ولكن مُنذ الآن نستطيع أن نؤكد أن ما قاله الإنجليز وحتى الفرنسيون ليس له أي علاقة مع الواقع... لا نستطيع الوصول إلى دمشق إلاّ بقطار صغير تتقدمه فرقة عسكرية ويتبعه دبابة عسكرية... في لبنان القتل على الطرقات والمشاغبون (الثائر بنظر العدو هو مُشاغب!) يحققون الانتصارات في الجنوب، على أربعين كلم من صيدا... الهدوء النسبي يوجد حيث نُظهر قوتنا...»(٢).

بيروت ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٥ م

«الحملة المعارضة للانتداب تتسع يومياً. ولنقل أين أصبح الوضع.

هناك ثلاث مراحل في أحداث هذا البلد.

المرحلة الأولى: حرب في جبل الدروز.

المرحلة الثانية: محاولة السيطرة على دمشق.

المرحلة الثالثة: مرحلة العصابات.

---

(١) «Le petit parisien» 13 Novembre 1925.

(٢) Albert londres «Cables et Reportages Le Seuil» Juin 1993 pp. 860.

من هي هذه العصابات وماذا يريد أصحابها؟

أولاً: عصابة رمضان شلش. هذا المواطن لم يكن لديه المال ولكنه حصل على مال نؤكد أنه ليس منا، ونشاطه في منطقة بعلبك.

ثانياً: عصابة نسيب بكري قرب دمشق. هذا السيد هو روكفلر البلد؛ يجهز ويدفع معاشات جنوده، وضع ثروته الهائلة تلبية لطموحاته ويريد أن يكون ملكاً على سوريا ولكنه يتجه نحو المشنقة بدل العرش.

ثالثاً: عصابة حسن كارات kharat، سيد ولكنه ليس بذي أهمية؛ وهو حارس ليلي سابقاً، لذلك يختار أن يهاجم دمشق قبل الفجر.

رابعاً: عكاش وهي عصابة عائلية؛ مؤلفة من ثلاثة أخوة (قُتل منهما اثنان) ومن أبناء عمومتهم.

خامساً: عصابة سوساق Soussak.

سادساً: عصابة سعيد الأطرش. وهي التي انتصرت في جنوب لبنان، الذي يقع على بُعد ثلاث ساعات في السيارة من بيروت.

هذا كل شيء حتى الآن. هذه العصابات في حركة مستمرة ولا نجدها دائماً في مكان سكنها. والبرهان هو محاولتي التي قمت بها، لقد ذهبت إلى مرجعيون لأقدم مُجاملاتي للسيد سعيد الأطرش، لكنه كان قد غادر المكان لأن السلطان الأطرش استدعاه، ولكنني استطعت أن أشاهد عمله الجميل: قرى محروقة، جثث مطمور نصفها، باختصار إنها رائحة كريهة.

هذه العصابات الست تعداد أفرادها الأساسيين ٢٥٠٠ رجل ولكن يزداد العدد خلال تنقلاتهم حيث ينضم إليهم نهّاب البلاد، يفرضون على القرى دفع النقود والغذاء ومقاتلين. وسكان القرى يعتريهم الخوف، وللتخلص من خوفهم ينضمون إلى هذه العصابات. سوريا، حالياً هي على شكل الصين. يا للسعادة.. وصلت المساندة.

نستطيع القول إن الوضع العسكري سنسيطر عليه قريباً وبدون مجهود زائد من طرفنا.

لكن يبقى الوضع السياسي، وهذا أكثر ما نخافه، لأنه لا يكفي أخذ الأمور من عهد الجنرال ساراي فقط، بل العودة إلى سنة ١٩١٩ م أي من عهد الجنرال غورو، مروراً بالجنرال ويغان. وبما أننا أجّلنا أخذ المبادرة فقد سمحنا بالتالي للمسلمين بأخذها. انتدابنا على سوريا وليس على المسيحيين أو المسلمين.

تمنيات البعض يجب أن تهمنا كتمنيات الآخرين. وفقط بهذا الثمن نستطيع إعادة الأمن. وهذا العمل فيه الكثير من المخاطرة ولكن المخاطرة كانت موجودة ولم نخلقها نحن. ولا يكفي الإصلاح بل وجب البناء»[(١)].

العصابات تجول في البلاد والقوميون العرب يُغالون في مطالبهم

بيروت ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٥.

«بعد غد يصل المندوب السامي الخامس من فرنسا إلى مرفأ بيروت ليجد وضعاً عجيباً. العصابات لا تزال هنا. لقد تلقوا درساً قاسياً من طرفنا ولكنهم لم يستفيدوا من الدرس إلاّ قليلاً... البلاد لا تزال تحت رحمة العصابات. لا تزال العصابات في الجنوب اللبناني، تحاول تحريض سكان جبل الشيخ ومنطقة الشوف أي طريق بيروت.

لنرى كيف يتصرفون. تتبعهم البغال والجمال ويحملون البنادق والذخيرة، ويدخلون القرى، يُسلحون المقيمين فيها ويجبرونهم على إقامة حكومة مؤقتة. أين هؤلاء الدروز يأخذون البنادق والذخيرة والقنابل، بهذه الكمية حتى أنهم يستطيعون توزيع بعضها بكرم؟ هذا سر ديبلوماسي. ومتى ثارت القرى، ينتقل الدروز إلى مكان آخر، ينسفون الجسور ويسيطرون على الطرقات، يحرقون القرى، ويقتلون المسيحيين، ويطلقون العنان لوحشيتهم. يقطعون ضحيتهم بين لوحين، يأكلون قلبه ويسحقون رأس عدوهم. (أقول هذه الأشياء لأبرهن على أن بين سكان سوريا من لم يصل بعد إلى درجة كافية من الحضارة).

---

(١) Le petit parisien, 20 Novembre 1925.

البارحة، جاء إثنا عشر شهماً منهم إلى دمشق يستعرضون في وسط المدينة، ووصلوا مركز الشاغور، وعندما سمع أفراد الأمن الداخلي السوري طلقات النار هربوا، كما يهرب جميع (الجندرمة) السوريين، ليس من باب الفزع بل من باب العادة. المشاغبون استولوا على المركز ومحتوياته وعادوا من حيث أتوا وهم ينشدون ويغنون.

إذاً، الأمان غير مؤكد. وحالما تصل قواتنا نرسلها إلى ما هو أهم وأكثر إلحاحاً في سيارة إلى العائلات الفرنسية وأولادهم، لا تخافوا هذه العمليات للسيطرة على البلاد.

لنعود الآن إلى الهجوم السياسي. وهذا السؤال الأساسي. القوميون العرب متعاضدون أخلاقياً مع العصابات، يحتجون على قساوتهم ولكنهم في نفس الوقت يستفيدون من حالة الفوضى التي يخلقونها.

ماذا يريد القوميون العرب؟

أولاً: وحدة البلاد.

ثانياً: دستور.

بكلمة وحدة، يعنون إعادة النظر في دولة لبنان الكبير، وبكلمة دستور، انتخابات عامة تسمح لهم بتأليف مجلس نواب ومجلس شيوخ.

ولكن نحن في بلاد انتداب وهذان المطلبان يدخلان ضمن الأشياء التي علينا بحثها. كيف؟ ـ الآن ـ يقول القوميون العرب ـ بدل إعادة الأمن في البلاد بمعاقبة الثوار، اسمحوا للبلاد أن تنتظم وعندها تتفاهم وتقنع الثوار.

هذا حُلم وهو غلطة لا سبيل لإصلاحها. يجب معاقبة المتوحشين، ونتحدث بعدها مع المثقفين. نحن في القرن العشرين، والدروز لا يزالون في القرن الثالث عشر، وفي القرن الثالث عشر لم يكن يوجد عُصبة الأمم.

هذا بالنسبة للعرب والدروز، ويبقى اللبنانيون. إن لبّيت مطالب البعض أغضبت البعض الآخر. الغليان في كل مكان. البلاد مصابة بحرارة مُرتفعة. الدروز يطلقون

النار والسوريون يتضرعون إلى السماء. وفود لا تحصى تستعد للحضور إلى السرايا، وقد أعلمنا حلب ودمشق بعدم تكليف أنفسهم تعب الانتقال وسيحضر المسؤول الجديد لزيارتهم، ولكنهم لم ينتظروا وجاؤوا إلى بيروت.

غداً، سأذهب بحراً لإحضار السيد هنري دي جوفينيل. يجب أن أسيطر على نفسي لكي لا أقول له ـ السيد المفوض السامي لماذا جئت لتقع في هذا الشقاء»[١].

وتحت عنوان: هل يوجد سوريا؟ وهل يوجد سوريين؟ كتب ألبير لوندر ما يلي:

«ذهبت إلى سوريا، وفي اعتقادي أن سوريا قد حققت حلمها بين ١٩١٩ و١٩٢٤، وأنها لا تطلب أكثر من هذا الزمن الجميل.

اعتقدت أننا أمام قضية واحدة: ثورة الدروز. للأسف! اهتمت فرنسا خلال خمس سنوات ونصف بسوريا قليلاً، لأنها كانت مهتمة بقضايا أخرى. سأحدثكم عن الإرساليات، إن لم توجد لوجب إيجادها بالرغم من معارضة ساراي (المعروف بمواقفه المعارضة لرجال الدين) وذلك لمصلحة فرنسا.

ما هي سوريا؟

هي ليست بلاد ذات قومية بل بلاد الديانات.

في سوريا لا يوجد سوريين.

ـ من أنت أيها السيد؟ تسأل جارك.

ـ أنا ماروني.

ـ وأنت؟

ـ روم أورثوذكس.

ـ وأنت؟

ـ مالكي.

وهذا الأخير روم كاثوليك، وذاك مسلم سني، أو شيعي، أو علوي، أو

---

(١) المصدر السابق 1er Décembre 1925.

إسماعيلي، وهذا يهودي. وذاك بروتستانتي. وهناك اثنان أرمنيان يديران ظهرهما الواحد للآخر!

فتشت عن سوري فاعتقدت أنني وجدت غايتي، لأنن وجدت رجلاً لا يشبه الآخرين.

ـ قلت له: سيدي العجوز، قد تكون سوري.

ـ . . . يهودي شرقي.

تسع وعشرون مذهب، في حين أن البلاد لا تتعدى المليونين والثمانمئة ألف نسمة! كيف سيتفاهمون في الجنة؟

لا ارتباط وطني والارتباط الاجتماعي هو المجموعة الدينية.

وإذا نظرنا إلى الحضارة ففيها كل الدرجات إلاَّ الدرجات العليا.

هناك المتوحش.

الرجل الذي يأكل قلب عدوه، ويسحق رأسه، ويقطع جسده قسمين بين لوحتين وحسب ما تأمرهم ديانته يقطع جسد أخته إلى أربعة أقسام متساوية (قسم لكل من الجهات الأربع) لأن زوج هذه الأخت غادر بيت الزوجية، هل هو متوحش؟ هؤلاء هم الدروز.

هناك النهَّاب. لم يصبح نهَّاباً بل ولد نهَّاب. ينهب بشكل طبيعي مثل القطة (التي تنوِّي) بدون أن نعلمها ذلك. يستطيع أن يعمل في مهنة أخرى ولكن هذا مُجرد صدفة. نحن نقول ـ أفكر إذاً أنا موجود ـ بالنسبة له ـ أنا أنهب إذاً أنا موجود.

وهكذا قصر العظم يلتهب، وهذه كارثة للبلاد. أرسلنا رجال الإطفاء الشجعان، المخلصين، ذهبوا لإطفاء الحريق، ولكن لما رأوا الأشياء الثمينة أمام أعينهم، صرخوا: الله. . . كم أنت كريم! ونسوا أنهم رجال إطفاء وتحولت سياراتهم إلى شاحنات نقل. بدل أن يفرغوا حمولة سياراتهم ملأوا هذه السيارات بالغنائم ونقلوها إلى بيوتهم؛ وحتى أنهم فعلوا ذلك على مرحلتين. . . إنهم يلبون نداء الدم!

وأفراد الشعب لا يعرفون سوى ثلاث ضروريات في الحياة: النوم، الأكل

والطاعة. لا رأي سياسي لهم، بل لهم أسياد. ولاحظت عندما تمر الحمير بالقرب منهم، هذه الحمير الصغيرة مُعذبي الشرق، تنظر إليهم نظرة الأخوة.

هناك بعض الناس يلبسون بدلة. الحصول على بدلة أسهل من الحصول على شهادة علمية. وفي هذه البلاد البدلة تحل محل الشهادة، وكسرة بنطلون تساوي شهادة.

هناك التجار. الذين ينظرون إلى حساباتنا، ولكن تتبع تدهور الفرنك.

وأخيراً النخبة، تحتويهم يد امرأة لقلة عددهم. أمير، باشا، إقطاعي، مترعم يمتلكون الأراضي والقرى الشاسعة، ولكي تزورها فأنت بحاجة لمدة عشرة أيام على ظهر حصان سريع. مثقفين متقلبين، فخورين، ويأكلهم الطموح. هؤلاء المرشحين للعرش يستطيعون أن يكونوا مثل الآلهة: عطشى ولكنهم جائعون أيضاً!

لا يوجد سوريون، ويجب أن أعترف بقوة أنه حتى لا يوجد سوريا أيضاً. أنا أعرف أنه رسمياً أنشأنا دولة سورية مع طوابع بريدية ورئيس، هذه الطوابع لا بأس بها، والرئيس أفضل! ولكن لا يوجد سوريا.

لنتابع الاستشارات، واطلب من جارك، أن يترك الدين جانباً وأن يقل من أي بلد هو صراحة مقابل كأس عرق.

ـ أنا لبناني.

ـ وأنت يا ابن دمشق العزيز، هل أنت سوري؟

ـ لا، أنا عربي.

رجل واحد فقط يعترف أنه في سوريا: هو المفوض السامي الفرنسي».

في الصفحة ٧٣٧ من الكتاب نفسه نقرأ لنفس الكاتب ما يلي:

«لبنانيون وعرب ودروز هذه هي البلاد ـ سوريا ـ (لبنانيون بالمفهوم الديني وكذلك كلمة عرب لأن كلمة عربي حتى اليوم عند الفرنسيين تعني مُسلم) لبنانيون وعرب ودروز لا يتحابون. الديانة الدرزية تأمرهم بلعن الرسول (نعم هذا بعض ما كُتب من أكاذيب) وغريزتهم بذبح اللبنانيين، ومصلحتهم بسرقة الاثنين معاً. اللبناني

يلعن المسلم ويهرب أمام الدرزي. المسلم ينظر بابتهاج إلى الدم الذي يجري ويصفق للدرزي تصفيق الشعائر الدينية». ويختم كلامه باحتقار الجميع بقوله: «هؤلاء هم الأخوة الثلاثة التي على فرنسا أن تكون أُمّاً لهم».

في ما يلي، نص المقطع حرفياً باللغة الفرنسية كما كتبه المراسل الفرنسي نفسه:

«Libanais Arabes, et Druzes, tel est le pays. «Syrie» n'est qu'une expression géographique à l'usage des gens pressés ou volages. Libanais, Arabes et Druzes se haïssent. La religion des Druzes leur ordonne d'insulter le Prophète, leur instinct d'égorger les Libanais, leur intérêt de piller les deux. Le Libanais maudit le musulman et détale devant le Druze. Le musulman regarde avec joie le sang libanais et n'applaudit le Druze qu'autant qu'il en fait libation. Voilà les trois frères à qui la France doit servir de mère!».

هذه هي سياسة فرنسا في ذاك الوقت، ونظرتها إلى اللبنانيين مسلمين ومسيحيين ودروز على السواء: سياسة تفرقة ونظرة احتقار.

عن الصعوبات التي واجهتها فرنسا كتب المراسل يقول:

«لقد وصلنا نحن في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩. دخول ملفت للنظر: موسيقى، طبول وأعلام، والجنرال غورو! صنّين الجبل المهيمن على لبنان هو وردي اللون! المسيحيون يفكرون: لقد جاء دورنا. المسلمون يقولون: المستقبل لن يكون أسوأ من الماضي. زبائن الانجليز الدروز ليسوا منزعجين، ويهيئون أنفسهم للغنيمة!

في هذا الأمل الذي خلقناه، هناك عدم انسجام. ونحن (يقصد الفرنسيين) هل لدينا مُخطط؟ لا نعرف حتى أين نضع أرجلنا!

فيصل في دمشق؛ الانجليز لا يزالون على الشاطىء. علينا أن نحل محل هؤلاء ونطرد أولئك. هؤلاء في حالة غضب قالوا وهم يغادرون: إلى اللقاء ولكن سنرجع، أما فيصل فقد استأصل تاجه من أيدينا، ووضعه بنفسه فوق عقاله ونادى من فوق جبال لبنان: الآن تفضلوا لخلعه من فوق رأسي.

لقد حللنا مكان الانجليز وخلعنا فيصل. وخرجنا بعد النصر ومعنا ٧٠,٠٠٠ رجل وليرات استرلينية (وبعدها...) لقد توافد أمام مكتبنا السياسي: الدروز، البدو، ولابسو الامباز والطاقية... نشحذ فيهم بدون تعب الشجاعات الضعيفة، وغلطتنا الأساسية هي أن الضباط والإداريين الذين جاؤوا إلى سوريا يجهلون كل شيء عنها. كلهم جاؤوا من المناطق المستعمرة مثل السنغال، الكونغو، المغرب والهند الصينية ومن الصحراء، واستعملوا نفس الأسلوب في المعاملة، ولكن ما كان يشفي في الكونغو، يسبب جرحاً في البقاع... وأهل البلاد أجابوا: «لقد قبلنا بالانتداب الفرنسي وليس بانتداب سايغون، نريد أن نتقدم فشدوا بنا إلى الوراء».

ويعترف الكاتب بسوء تصرُّف الفرنسيين بتقسيمهم سوريا إلى أربع دويلات: لبنان الكبير، دولة سوريا، جبل الدروز والعلويين... ويعترف بأن الفرنسيين زادوا حدّة الخلاف بين الدولة السورية ولبنان الكبير وبين المسيحيين والعرب (أي المسلمين).

«الخصام بين المسلمين والمسيحيين سيدوم إلى الأبد، إلاَّ في حال تعب الأقلية المسلمة في لبنان والأقلية المسيحية في دمشق، من تسميم وتنغيص حياة بقية المواطنين، واتفقوا على أن يذهبوا في نفس اليوم وفي نفس الساعة ليرموا بأنفسهم، المسلمون في نهر بيروت والمسيحيون في نهر بردى»(١).

الجنرال ساراي والمعارضة اللبنانية:

«عُيِّن الجنرال ساراي، واسمه وقع على لبنان وقوع الصاعقة.

هذا البلد ـ لبنان ـ قسم من أربع أقسام سوريا، يعيش تحت سيطرة البطريرك ويطيع أساقفته، ويتلقى العلم عند الرهبان. نرسل إليه رجل لامع ولكن في مجالات أخرى، ولكنه معروف أنه مُعارض شديد لسلطة رجال الدين، وهذا لا يرضي الموارنة فعارضوه، ونعتوه باسم صلاح الدين الأيوبي! وحسب العادة فإن البطريرك الماروني يقوم بزيارة رسمية للمفوض السامي الفرنسي ساراي، قداسته له من العمر ٨٣ سنة،

(١) المصدر السابق، 19 Décembre 1925.

وكانت فرصة سانحة (لصلاح الدين أن يهدي السلام إلى الصليبيين!!) ولكنه لم يستغل الفرصة. وساراي لم يرد الزيارة. كان عليه أن ينتقل فقط ١١ كلم ليصل بكركي الجميلة!. ويجب التذكير أنه عند وصول البطريرك إلى السراي، انتظر جيش من (الصليبيين) هذه اللحظة ليصرخوا بأعلى صوتهم: يعيش البطريرك حويك! وليسقط الجنرال ساراي! وبقيت الحال على ما هي عليه مدة أحد عشر شهراً، إلى أن تراجع ساراي، وبقي الفريق الآخر على موقفه»[١].

خلفيات معارضة الانتداب الفرنسي:

«الأتراك يساندهم الروس من جهة والتضامن العربي الانجليزي من جهة أخرى. سياسة تركيا أفصح عنها قنصل تركيا في حلب في لقاء تم في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) عندما ألقى كلمته بحضور الوجهاء والسياسيين يقول ما معناه: بالاتفاق مع روسيا وحسب اتفاق Angora الذي بموجبه نصبح قوى الأمن في آسيا، سيدنا مصطفى رسم لنا هذه الطريق، ولذلك وجب محاربة الانتداب الفرنسي والانجليزي، لقد تم الاتفاق بهذا الشأن مع روسيا والفرس ونجد.

البلاد العربية لعبة بين أيدينا منذ ٥٠٠ سنة. والموضوع ليس تثبيت سلطتنا على هذه الأراضي بل مساعدة هذه البلاد للتخلص من سيطرة الغرب وجرها إلى اتباعنا.

ويتساءل الصحفي: هل على فرنسا التخلي عن مهمتها؟

الجواب بالتأكيد: لا ولعدة أسباب منها، حفظاً لماء الوجه أمام بقية الدول الأوروبية، ثم خدمة لمصالحها، ولاستعاضة رأس المال التي تستثمره في هذه البلاد، وأخيراً لحاجة سكان هذه البلاد إلى فرنسا، وسنترك الكلام للصحفي العزيز:

«لو أن المسلمين كانوا متأكدين أنه في حال مُغادرة فرنسا لن تطمع فيهم بقية الأمم لقالوا لفرنسا: اخرجي! ولكنهم يعرفون أنه في حال خروج فرنسا فإن الأتراك سيأتون من الشمال والانجليز من الجنوب. هم لا يحبون فرنسا ولكنهم بين شرّين،

---

(١) المصدر السابق، 20 Décembre 1925.

فلذلك هم يفضلون فرنسا على تركيا وانجلترا، فهم يقولون لنا: أعطونا الدستور وابقوا هنا لتحموننا من الآخرين.

أما بخصوص المسيحيين فهم يعارضون ذهابنا. لقد ذهبت يوماً إلى بكركي لأقوم بزيارة لقداسة البطريرك حويك أي الملك الروحي في لبنان.

ـ سماحتكم متى سيصبح لبنان سعيداً؟ عندما يترك لنفسه وتذهب فرنسا بعد خمسين سنة مثلاً؟

كان قداسته جالساً بثوبه الرائع على كرسيه، ورغم أنه يبلغ من العمر ٨٣ سنة فقد أشار بعصاه باتجاهي، وكأنه يريد تأديبي:

ـ أبداً أيها السيد، أبداً، أبداً! لا في خمسين ولا في مئة سنة، فرنسا لن تغادر لبنان.

ـ ولكن قداستكم، عصبة الأمم...

ـ عصبة الأمم؟ نحن لا نعرفها. نحن نعرف فرنسا. لقد أمضينا حياتنا ونحن نناديها. الآن هي هنا، ولن نتركها تغادر أبداً. هذه صرخة ٥٠٠,٠٠٠ مسيح.

سوريا هي المقاطعة الأكثر تأثراً بفرنسا، وهل هذا سبب لتركها؟ هذا التأثير عائد إلى فضل عمل الإرساليات: الجامعة اليسوعية، العازرية، والفرير ـ المدارس المسيحية ـ. فمنذ نصف قرن حمل هؤلاء السادة الرهبان والفرير اللغة الفرنسية وثبتوها في بلاد المشرق. وجابهوا مضاربة الجامعة الأميركية.

أين تعلَّمت لغتنا؟ سألت أحد القادة، ثوار الحركة المسلمة، صديقي رياض الصلح، المحكوم بالإعدام سابقاً.

ـ عند اليسوعيين Jesuites.

كما قلت سابقاً: إذا هؤلاء الكبوشيين Capucins لو لم يكونوا موجودين لوجب إيجادهم، وبما أنهم موجودون فوجب مساندتهم. من وقت لآخر يتدخلون بالأمور السياسية، والأفضل أن لا يتدخلوا»[١].

---

(١) نفس المصدر، 12 janvier 1926.

لقد تعمَّدت الإطالة ونقل أكثر ما كتبه الصحفي والمراسل ألبير لوندر، لأن أفكاره لا يزال لها صدى عند بعض الأوروبيين وبالذات عند بعض الفرنسيين حتى يومنا هذا، فإلى الآن لا يزالون يعتبرون أن كل مسلم هو عربي، وأن المسيحي لا يمكن أن يكون عربياً، ولا تزال نظرة التعالي إن لم نقل نظرة الاحتقار موجودة عند الكثيرين من الأوروبيين، وكذلك العنصرية الموجهة بالذات ضد كل ما هو عربي. وأترك كما قلت للقراء أن يحكموا على ما تقدم، فهناك الكثير من الأجوبة على تساؤلاتنا، وعلى ما نحن عليه الآن...

احتفظت فرنسا بإدارة لبنان الكبير إدارة مباشرة بواسطة حاكم فرنسي، طوال ست سنوات، أي حتى إعلان الدستور اللبناني سنة ١٩٢٦ م. معلّلة ذلك بوجود الانقسامات الطائفية الحادة فيه، ونظراً لما سبق، فإن أقل ما يقال عن هذا التعليل أنه عذرٌ أقبح من ذنب! لأن الانقسام الطائفي هو حصيلة السياسة الفرنسية في الشرق منذ أيام لويس الخامس عشر، ونتيجة التعاون المطلق بين السلطات العسكرية الفرنسية والإرساليات الأجنبية وخاصة الكاثوليكية، التي غذت الطائفية وأوجدت الفروقات الاجتماعية بين اللبنانيين، واستمرَّت في سياستها هذه، بل زادت حدّة مع إعلان دولة لبنان الكبير، في حين أنها كانت فرصة تاريخية لتوحيد اللبنانيين، لو أرادوا بمشاركة المسلمين مشاركة عادلة وفعلية بإدارة الدولة الجديدة، ولكنهم بدلاً من ذلك، عملوا على توظيف وتعيين خريجي جامعاتهم ومدارسهم على رأس الإدارة اللبنانية الجديدة وفي المراكز الحساسة، لاستمرار سيطرتهم ونفوذهم الاجتماعي والسياسي على البلاد. ويؤكد اسكندر رياشي ذلك بقوله: «٩٠ بالمئة من السكرتيريا تلاميذ الجزويت واللعازاريين ومدارس الفرير»[1].

لقد تعاقب على الحكم في لبنان الحكام الفرنسيون على التوالي:

- الكابتن جورج ترابو من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٢٣ م. Georges Trabaud
- بريفا أبوار من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٢٤ م. Privat-Aubouard

---

(١) اسكندر رياشي: «رؤساء لبنان كما عرفتهم»، ص ١٥، بيروت ١٩٦١.

ـ الجنرال فندنبرغ من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٥ م. Vandenberg

ـ ليون كيلا من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٢٦ م. Léon Cayla.

إنشاء دولة لبنان الكبير، وإقامة نظام من نوع استعماري طائفي عليه، من قبل الفرنسيين (كان يساند الحاكم الفرنسي مجلس استشاري من ١٧ عضواً يُمثلون الطوائف اللبنانية وليس الشعب اللبناني ومعينين من قبل الجنرال غورو نفسه) لم يكن ليرضي اللبنانيين وخاصة المسلمين منهم؛ (خلال سنة ١٩٢٢ م. وقَّع أهالي طرابلس والملحقات عرائض يطالبون فيها بإلحاقهم بسوريا لأنهم لم يروا فائدة من إلحاقهم بلبنان. ورفضوا حمل تذاكر نفوس لبنانية مما اضطر المفوضية العليا على إلغاء الشطر الأدنى من التذكرة الذي ينص على أن حامليها من الرعيّة اللبنانية. وفي شباط (فبراير) ١٩٢٣ بعث زعماء بيروت وطرابلس وصيدا وصور بمذكرة إلى الجنرال ويغان كرَّروا فيها الاحتجاج على ضم مناطقهم إلى لبنان دون استشارة أهل البلاد لاعتبارات منها الإضرار باقتصادهم وإلقاء العبء على عواتقهم بكثرة الضرائب[1].

حسب ما جاء في هذه المذكرة يتبيَّن أن معارضة سكان المدن الساحلية المسلمين كانت معارضة يطغي عليها العنصر الاقتصادي، فهم يحتجون لأنهم لم يروا فائدة من إلحاقهم بلبنان، ولاعتبارات منها الإضرار باقتصادهم وإلقاء العبء على عواتقهم بكثرة الضرائب. بمعنى آخر لو أنهم حصلوا على ما حصلت عليه الطائفة المارونية من امتيازات، ولم تحمِّلهم فرنسا من الضرائب فوق طاقتهم، لما اعترضوا على هذا الانضمام؛ خاصةً أن الشعور القومي العربي كان ضعيفاً، وللبيان نكتب ما ذكره د. شعيب في كتابه، عن لسان تقي الدين الصلح في مقابلة جرت معه في ١٦ شباط (فبراير) سنة ١٩٧٨ م. :

«فعندما أرسل الأمير فيصل الفريق شكري باشا الأيوبي كحاكم على بيروت وعلى أمل أن يستقبله الوحدويون والمسلمون البيروتيون اجتمع بعض الوجهاء منهم في منزل عمر بيهم وبعثوا برسالة إلى الأمير فيصل ورد فيها: لا نقبل أن ترسل دمشق

---

(١) شعيب، د. علي عبد المنعم: «تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء»، ص ٣٠ ـ ٣١.

بواحد سوري»[1].

لذلك نؤكد أن من أهم أسباب الطائفية كان العامل الاقتصادي، والحصول على امتيازات خاصة وصراع على السلطة، ولذلك قلنا إنه كان أمام اللبنانيين فرصة تاريخية لإقامة دولة ديموقراطية تمثل الشعب اللبناني لا الطوائف اللبنانية، ولكن سياسة التفرقة الاستعمارية من جهة وأطماع بعض الطوائف من جهة أخرى أدت إلى ما نحن عليه الآن، فلا الموارنة حصلوا على لبنانهم الماروني، ولا المسلمين حصلوا على الدولة العربية الموحدة، والاثنان لم يستطيعا بعد، بناء لبنان القوي المحصن بالديموقراطية الصحيحة التي تحترم حقوق الإنسان، وتحترم الحريات العامة والخاصة، ولا بناء لبنان العدالة الاجتماعية والمساواة، ولا بناء الدولة الحديثة، دولة عمل المؤسسات وتطبيق القانون.

كان الوضع الداخلي في البلاد مضطرباً ولم يستطع الفرنسيون السيطرة الكلية عليه، وأخذت معارضة استمرار الحكم الفرنسي المباشر للبنان تتزايد. ولتهدئة الخواطر، أصدرت السلطات الفرنسية قراراً في ٨ آذار (مارس) من سنة ١٩٢٢ م. يقضي بإقامة مجلس تمثيلي للبنان الكبير، مُنتخباً من قبل الذكور فقط، وله حق التشريع (وهنا نتساءل كيف أن فرنسا التي ترفع شعار المساواة والأخوة والحرية في بلادها، تُميز في لبنان بين حقوق المرأة والرجل). وفي ٢١ أيار (مايو) جرت الانتخابات، ولكن قاطعها جانب كبير من المسلمين احتجاجاً على ضمِّهم دون استشارتهم إلى جانب اتهام هذه الانتخابات بالتزوير والتدخل والضغط من قبل الفرنسيين. بعد أحداث ١٩٧٥ تبدَّلت الظروف السياسية فقاطع الموارنة أول انتخابات بعد الحرب.

وفي ٢٥ أيار (مايو) عام ١٩٢٢ انتخب هذا المجلس حبيب باشا السعد رئيساً له وتوالى على الرئاسة نعوم لبكي سنة ١٩٢٣ وإميل إده سنة ١٩٢٤ م.، ولكن المعارضة كانت قائمة وخاصة المطالبة بحاكم لبناني بدل الحاكم الفرنسي. في شهر

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٠.

تشرين أول (اكتوبر) من سنة ١٩٢٤ م. وعد المفوض السامي ويغان Weygand بوضع دستور للبنان، ولكن لم يستطع أن يحقق ما وعد به لانتقال مركزه من لبنان، وحلَّ مكانه جوفينيل Jouvenel الذي طلب من المجلس النيابي وضع مسوَّدة للدستور اللبناني.

ألَّف المجلس النيابي لجنة قامت باستفتاء ١٨٩ شخصية، عن شكل الحكومة، حول تأليف البرلمان من مجلس أم مجلسين، عن مسؤولية الوزارة، تعيين أو انتخاب مجلس شيوخ وعن اعتماد الطائفية أم لا لتوزيع المقاعد في البرلمان؟. فقط ١٣٢ شخصية أجابت على الأسئلة المطروحة و٥٧ شخصية الباقية قاطعت هذا الاستفتاء، وهم وجهاء من الطائفة السنية. وهنا لا بد أن نشير إلى:

- التحول في موقف الطائفة الشيعية: اشتراك وجهاء الطائفة في هذا الاستفتاء، هو دليل قبولهم بقيام الجمهورية اللبنانية، لأنهم شعروا بأن قيام الجمهورية اللبنانية يعطيهم دوراً سياسياً لم يكن لهم سابقاً، فهم أقلية في العالم العربي والإسلامي ولا دور سياسي لهم، ولكنهم سيصبحون ضمن لبنان أقلية ذات أهمية سياسية.

- الطائفة السنية بقيت معارضة لقيام الجمهورية اللبنانية، وزاد ارتباطها العربي، لأنها لم تكتفِ بالمقاطعة فقط بل وجهت العرائض والبرقيات تطالب بالوحدة مع سوريا على أساس اللامركزية[(١)].

- استفتاء الأعيان والوجهاء وليس الشعب، وهذا تثبيت وتكريس للإقطاعية السياسية، ولسياسة الاستزلام والمحسوبية التي أصبحت قاعدة للحياة السياسية اللبنانية فيما بعد.

- قبل وضع الدستور، لم يتم التفاهم بين اللبنانيين على شكل الدولة الذي يريدون، ولم يكن هناك إجماع على قيام الجمهورية اللبنانية.

«هال أنصار الكيان اللبناني حزم أنصار الوحدة السورية في موقفهم، لذلك

---

(١) ملحق صحيفة «النهار» اللبنانية، تاريخ ١ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥، و«تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء»، د. علي عبد المنعم شعيب، ص ٣٩.

استعجلوا وضع دستور للبنان حتى يكرس كدولة». يقول يوسف سالم أحد أعضاء لجنة وضع الدستور، «غير أن اللجنة لم تنتظر ورود الأجوبة بل نشطت للعمل على الفور. ولم تكن الرسائل قد وصلت إلى أصحابها بعد، حين بدأ ميشال شيحا بوضع نصوص الدستور مستلهماً من الدستور الفرنسي الصادر سنة ١٨٧٥، ومستمداً منه معظم نصوص الدستور اللبناني العتيد»[١]. هناك من يعترض، على هذه التفاصيل، ولكن المؤكد، أن مجلس النواب بدأ دراسة مسوّدة الدستور في جلساته بين ١٩ و٢٢ أيار (مايو).

(١) د. شعيب، المصدر السابق، ص ٤١.

ولادة الجمهورية اللبنانية

في ٢٣ أيار (مايو) من سنة ١٩٢٦ م. حضر المفوض السامي هنري دي جوفنيل إلى المجلس النيابي ليعلن بدء العمل بموجب الدستور الجديد، بعد أن أقر مجلس النواب الدستور اللبناني، الذي بموجبه تحوّلت دولة لبنان الكبير إلى الجمهورية اللبنانية (اعتباراً من أول أيلول (سبتمبر) ١٩٢٦، دولة لبنان الكبير تحمل إسم الجمهورية اللبنانية)، وعين المفوض السامي أول مجلس شيوخ للبنان، واجتمع المجلسان النيابي والشيوخ وانتخبا معاً وعلى أثر توصية من سلطات الانتداب، المرشح الوحيد شارل دباس أول رئيس للبنان وهو من طائفة الروم الأرثوذكس. أرادت سلطات الانتداب بترشيح أرثوذكسي بدلاً من ماروني على رئاسة البلاد أن تبرهن عن ليونة في سياستها ولتخفيف حدّة المعارضة الإسلامية.

ولكن ولادة الجمهورية اللبنانية لم تضع حداً للخلاف بين اللبنانيين، ولم تنهِ الانتداب الفرنسي، ولم تغيِّر في نظرة فرنسا إلى لبنان، ولم تهدأ معارضة أغلبية السكان في المناطق التي أُلحقت بلبنان، منها موقف العشائر في منطقة بعلبك الهرمل والفعاليات من تجار وأصحاب الأملاك والمحامين والأطباء والمهندسين الممثلين للرأي العام في البلاد الملحقة بلبنان. (تضمنت رسالتهم ملاحظة على أثر اجتماع عقدوه، ونوردها كما هي بدون تعليق): «. . . لا يمكن تأمين حياتنا في داخل لبنان أصلاً حيث حقوقنا السياسية والقومية مهضومة وستبقى كذلك أبد الدهر»[1].

لم تخف سلطة الانتداب، وبقيت تتدخل في أمور لبنان الداخلية، وبقيت فرنسا تمارس نفس السياسة السابقة حتى أن حلفاءها أنفسهم تذمَّروا من هذه السياسة فأرسلوا مذكرة إلى رئيس الحكومة ووزير الخارجية الفرنسي يشكون بها تصرفات المفوضين الفرنسيين. الواقع أن فرنسا أعطت لبنان فقط مظهر الدولة المستقلة، ولكن في النهاية

---

(١) المصدر السابق عن السعيد، ص ٤٤.

كانت سلطات الانتداب هي التي تقرِّر كل شيء؛ كما بقيت فرنسا على سياستها المنحازة إلى الطائفة المارونية، وجاء الدستور الجديد ليضمن امتيازات هذه الطائفة. واتبعت فرنسا هذه السياسة لتؤمن بواسطة حلفائها، استمرارية وجودها وتأثيرها في منطقة الشرق الأوسط.

سنورد بعض الملاحظات، ونظهر بعض المواد التي دار الخلاف حولها، منها المادة رقم ١٧ التي حدَّدت صلاحيات رئيس الجمهورية:

- رئيس الجمهورية هو رأس السلطة التنفيذية، يساعده في تطبيقها الوزراء، وهو الذي يعيِّن رئيس الوزراء، كما أن بيده السلطة في حل مجلس الوزراء، ومن صلاحياته تعيين من يشاء في المراكز الحساسة وكما يشاء في الحالات التي لا يلحظها القانون... أعطت هذه المادة صلاحيات واسعة لرئاسة الجمهورية، مما جعل بعض اللبنانيين يعترض عليها وهي لا تزال نقطة خلاف بين اللبنانيين حتى يومنا هذا.

- المادة ١٢ تقول بأن كل اللبنانيين يُقبَلون في كل الوظائف بدون تفضيل إلاَّ تفضيل الخبرة والمقدرة وحسب القانون... بينما المادة ٩٥ (التي تعود إلى ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩٤٣ م) تقول بما معناه: بصورة مؤقتة وبُغية العدالة، تُمثل الطوائف في الوظائف الحكومية بتوازن وكذلك في تأليف الحكومات، على أن لا يلحق ذلك الضرر بمصالح الدولة.

فهناك تضارب واضح بين المادتين: لا طائفية الوظيفة في الأولى وتقسيم طائفي مؤقت في الثانية، ولا زال المؤقت ساري المفعول حتى اليوم.

- المادة ٧٦ تُعطي رئيس الجمهورية الحق في طلب تعديل الدستور، كما تُعطي المادة ٧٧ نفس الحق إلى مجلس النواب، شرط الحصول على موافقة ثلاثة أرباع أعضاء المجلس، ونظراً للتركيبة الطائفية لهذا المجلس يصبح تطبيق هذه المادة شبه مستحيل.

ونتوقف عند هذا الحد من الملاحظات، مع اعترافنا بأهلية أهل القانون في لبنان ومقدرتهم على إعطاء لبنان الدستور الذي يستحق.

في ظل النظام الطائفي وقبل أن يحصل لبنان على استقلاله، بدأ ممثلو الطوائف بالدفاع عن مصالح أبناء طائفتهم بدل الدفاع عن أبناء لبنان.

في كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٢٨ م بدأ الخلاف على صلاحيات مجلس النواب ومجلس الشيوخ، وعلى امتيازات وحقوق الطوائف، مما حدا بالمفوض السامي بونسو إلى تعديل الدستور، وإلغاء مجلس الشيوخ وإلحاقه بمجلس النواب وأمر بتأليف حكومة ثلاثية برئاسة بشارة الخوري... فاحتجت الطوائف غير الممثلة في هذه الحكومة، وفي طليعتها الطائفة الشيعية، حيث انسحب الشيعي صبري حماده من جلسة مناقشة البيان الوزاري، احتجاجاً لعدم وجود وزير شيعي، كما أن يوسف الزين احتج بدوره على الغبن اللاحق بالطائفة الشيعية وحرمانها من مراكز الدرجة الأولى ومن الوظائف الرئيسية.

بدأت الإفرازات السامة للنظام الطائفي قبل أن يحصل لبنان على استقلاله، ودامت حكومة بشارة الخوري ثمانية أشهر أي حتى آب (أغسطس) سنة ١٩٢٨ م حيث جاءت بعدها حكومة حبيب باشا السعد، التي عدّلت الدستور في نيسان (ابريل) ١٩٢٩ (أيام الرئيس شارل دباس، الذي تولّى الحكم مرّتين) فمدّدت رئاسة الجمهورية من ثلاث سنوات إلى ست سنوات غير قابلة للتجديد. ثم جاء إميل إده على رئاسة الحكومة التي لم تدم أكثر من خمسة أشهر، وكانت البلاد تمر في أزمة اقتصادية خانقة، وللحد من النفقات لم يرَ حلاً أفضل من إغلاق حوالى ١١١ مدرسة حكومية، وهو المعروف بسياسته الفرنسية. «لقد أحضره الفرنسيون معهم إلى لبنان في باخرة حربية سنة ١٩١٨ م بعد أن كان محكوماً عليه بالإعدام من قبل السلطات التركية، ليصبح مستشاراً للمفوض السامي الفرنسي Coulondre وهو يتكلّم الفرنسية أفضل من اللغة العربية، وكان متصلّباً لبنانياً ويميل إلى اعتبار المسلمين خطراً على لبنان»[١].

هذا القرار أثار حفيظة المسلمين لأنه يضر خاصة بالطلاب المسلمين الذين كانوا بأمس الحاجة إلى هذه المدارس بعكس الطائفة المارونية التي لديها ما يزيد عن

---

(١) «تاريخ لبنان»، كمال صليبي، ص ٢٦٨.

حاجتها في هذا المجال (راجع جزء التعليم). في هذه الفترة تغيَّرت نظرة السلطة المنتدبة، فأرادت توزيع وظائف الدولة حسب النسب الطائفية، ولذلك لا بد من إجراء إحصاء، وكان من الطبيعي أن يشحذ الإحصاء الشعور الطائفي ويظهر الميول السياسية والولاءات الخفية ويوتر الأجواء بين المسيحيين والمسلمين، لأن كل طائفة كانت تشجع أبنائها في المشاركة بالإحصاء حتى تحصل على أكبر حصة ممكنة من القسمة، وأراد الموارنة تسجيل المغتربين، وهذا ما لم يكن ليرضى به المسلمون، وهو ما يزال من نقاط الخلاف بين اللبنانيين.

عمدت السلطات الفرنسية إلى الإحصاء كوسيلة لتلهي بها اللبنانيين عن المطالبة بتحسين أوضاعهم المعيشية، ولتدير الظهر عن الوضع الاقتصادي الرديء التي أدت إليه سياسة فرنسا الاقتصادية بعد انهيار بورصة نيويورك فأفلست على أثرها المصانع والمؤسسات التجارية اللبنانية. كرَّس الانتداب في إحصاء الطوائف، الطائفية في لبنان، وزاد خلافاً جديداً على خلافات اللبنانيين الكثيرة. اضطراب الأوضاع الاجتماعية والسياسية، جعل المفوض السامي بونسو Henri Ponsot يعلِّق العمل بالدستور اللبناني في ٩ أيار (مايو) سنة ١٩٣٢ م. بحجة معالجة الأوضاع المعيشية، وعاد لبنان إلى سابق عهده تحت السيطرة الفرنسية المباشرة.

عرفت هذه الفترة التقاء الأهداف بين أنصار الأمة اللبنانية وأنصار الوحدة السورية في محاربة السيطرة الفرنسية المباشرة، ولكن هذا اللقاء لم يدم طويلاً ولم يستطيعوا التفاهم حول الشكل الذي يريدونه للبنان، وعادت الأمور إلى نقطة البداية وعلى ما كانت عليه من خلاف وانقسام، واستمر تعليق الدستور حتى وصول المفوض السامي الجديد دي مارتيل Damien de Martel الذي أفرج عن الدستور اللبناني، في تموز (يوليو) ١٩٣٣ م.

وفي ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٤ عُيِّن حبيب باشا السعد رئيساً للجمهورية حتى ٢ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٣٦ م. حيث خلفه إميل إده الذي فاز على خصمه السياسي ومنافسه بشارة الخوري (العداء والصراع السياسي واختلاف الرؤية والشخصية والثقافة بين إده والخوري صبغ الحياة السياسية لفترة طويلة خاصة أن كلاً

منهما أسَّس حزباً سياسياً: الكتلة الوطنية ـ كتلة إده ـ والكتلة الدستورية برئاسة بشارة الخوري).

ومع اقتراب نهاية فترة الانتداب، حاولت فرنسا أن تحافظ على استمرارية تدخلها وحماية مصالحها في الشرق الأوسط والحصول على امتيازات، بإقامة معاهدات مع كل من سوريا ولبنان؛ ففي ٩ أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٣٦ م. تم التوقيع على المعاهدة الفرنسية ـ السورية وبدأت الاستشارات بشأن معاهدة مماثلة فرنسية ـ لبنانية، بموجب هاتين المعاهدتين يصبح كل من سوريا ولبنان دولتين مستقلتين، ولكن تربطهما علاقات مميَّزة مع فرنسا في أيام الحرب كما في أيام السلم، وذلك بالسماح للجيش الفرنسي باستعمال القواعد العسكرية الأرضية والجوية والبحرية، وبالإشراف على تأسيس وتنظيم الجيش اللبناني والجيش السوري، وعلى الدولتين اللبنانية والسورية العودة إلى فرنسا في حال حاجتهما إلى مساعدة تقنية، إلى آخر ما هنالك من تفاصيل تدخل كلها ضمن فكرة تفضيل فرنسا على بقية الدول. ونشير هنا إلى أن المراسلات والتفاهم الذي حصل بين المفوض السامي دي مارتيل والرئيس إده ودوِّن كملحق بالاتفاقية، وهو أن تضمن الجمهورية اللبنانية تمثيل جميع الطوائف بالتساوي في الحكومة وفي وظائف الدولة (المعروف تحت الرقم بـ ٦ و٦ مكرر 6-6 bis)، وافق المجلس النيابي على المعاهدة الفرنسية ـ اللبنانية بالإجماع في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٦ م. ولكن هذه الموافقة لم تكن من رأي المسلمين المعارضين لتثبيت لبنان بحدوده النهائية والقضاء على إمكانية ضمهم إلى سوريا، فعمَّت المظاهرات والاضطرابات المناطق الإسلامية احتجاجاً.

وفي ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه حصلت أول مواجهة مسلَّحة بعد إنشاء لبنان الدولة، بين المسيحيين والمسلمين وأدَّت إلى وقوع ضحايا، وهذه المواجهة كانت الحافز لتأسيس حزب «الكتائب». وعملاً بالاتفاقية كلَّف الرئيس إده المسلم السني خير الدين الأحدب تأليف الحكومة سنة ١٩٣٧ م. بعد مشاركة الأحدب في الحكم خفَّت مُعارضة المسلمين السنة لقيام الدولة اللبنانية المستقلة، وانطلاقاً من هذا التاريخ أصبح رئيس الوزراء دائماً سنياً ورئيس الجمهورية دائماً

مارونياً. وفي آذار (مارس) ١٩٣٨ جاء لرئاسة الحكومة خالد شهاب وتلاه عبد الله اليافي، ولكن مع إعلان الحرب العالمية الثانية حلَّ المفوض السامي غبرييل بييو Gabriel Puaux مجلس النواب في ٢١ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٩ م. وعُلِّق الدستور للمرة الثانية وسيطرت سلطة المفوض السامي على سلطة رئيس الجمهورية إميل إده، الذي كان يصطدم إلى جانب معارضة الفرنسيين لسلطته بمعارضة خصمه التقليدي بشارة الخوري وأنصاره، فلم يعد يحضر إلى مكتبه وبقي شبه معتزل في منزله.

بعد تراجع الحلفاء أمام الجيش الألماني ودخول هذا الأخير باريس في ١٤ حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٠ م. وقعت فرنسا بدورها تحت السيطرة الألمانية، وأصبح الجنرال بيتان Philippe Pétain رئيس حكومة فيشي Vichy المتعاونة مع الألمان. كان الولاء في لبنان لحكومة فيشي، وحل مكان غبرييل بييو المفوض السامي الجنرال هنري دنتز Henri Dentz في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٠ م. على أثر الحرب العالمية الثانية، ساء الوضع المعيشي من جديد، وعمَّت الفوضى والاضطرابات البلاد، دون أن تستطيع السلطات المحتلة والسلطات المحلية بقيادة إميل إده وعبد الله بيهم، إيجاد حل للأزمة الخانقة، فأجبروا على الاستقالة في نيسان (ابريل) سنة ١٩٤١ م.

النزاع بين أنصار حكومة فيشي بقيادة الجنرال بيتان وأنصار فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول، كان له ردات فعل في سوريا، ولاء قيادة الجيش الفرنسي في الشرق الأوسط لحكومة فيشي جعل هذه المنطقة حُكماً مُعادياً للحلفاء؛ لذلك ألقت طائرات الحلفاء في ٨ حزيران (يونيو) ١٩٤١ المناشير فوق سوريا ولبنان تُعلن سيادتهما واستقلالهما باسم فرنسا الحرة، وكان هذا التاريخ بمثابة نهاية عهد الانتداب على سوريا ولبنان.

دخل الحلفاء الأراضي السورية واللبنانية في ٨ حزيران (يونيو) سنة ١٩٤١ م، واستولى الجنرال كاترو Catroux من أنصار فرنسا الحرة، على منصب الجنرال دنتز مناصر حكومة فيشي، وأعلن رسمياً في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) استقلال لبنان،

دون أن يصبح هذا الاستقلال نافذ المفعول. وفي ٩ نيسان (ابريل) من عام ١٩٤٢ عيَّن الجنرال دنتز، الماروني ألفريد نقاش رئيساً للبلاد، وتألفت حكومة برئاسة السني أحمد الداعوق، وتم فيها ولأول مرة تعيين وزير خارجية للبنان. ولكن الضائقة المعيشية في البلاد والضغوطات الشعبية، قضت على هذه الحكومة فاستقالت في بداية صيف ١٩٤٢ م. وطُلب من سامي الصلح تأليف حكومة جديدة.

الصراع القديم الجديد بين الفرنسيين والإنجليز لم يتوقف، وكذلك التحالفات المحلية لم تتغيَّر كثيراً، وانقسمت القوى السياسية إلى:

ـ أغلبية مسيحية بقيادة إميل إده تدافع عن فرنسا ومصالحها في الشرق.

ـ أغلبية مسلمة مع القوميين العرب (مسلمين ومسيحيين) إلى جانب أنصار بشارة الخوري في الكتلة الدستورية ومعهم كميل شمعون (الذي سيصبح رئيساً للجمهورية فيما بعد، والذي قيل فيه إنه تابع إلى جهاز المخابرات العسكرية الإنجليزية) تؤيد السياسة الإنجليزية المشجعة للسياسة العربية، خاصةً أنه في هذه الفترة عادت فكرة الدولة العربية الموحدة للانتعاش من جديد، وهذا ما أخاف مؤيدي الكتلة الوطنية فتصلَّبوا بموقفهم.

نلاحظ أن كل هذه المواقف الحزبية والسياسية والمذهبية والدينية تعود لتظهر دورياً كلما تأزمت الأمور الخارجية من صراع بين الدول الأجنبية، فأصبح لبنان المرآة التي تنعكس عليها الأحداث، لتعدد الولاءات السياسية والدينية والمذهبية لسكانه، وتخف أو تزيد حدّة حسب الظروف الاقتصادية وتتغيَّر حسب المصالح.

أثَّر الصراع الفرنسي ـ الانجليزي بشكل واضح في هذه المرحلة بالذات، على تاريخ لبنان، لأنه بعد إعلان الاستقلال سارعت انجلترا بالاعتراف باستقلال سوريا ولبنان ولم يكن هذا الاعتراف الانجليزي السريع من رأي الفرنسيين، خاصةً وأن الجنرال الانجليزي ادوار سبير Edward Spears (الوزير الانجليزي لسوريا ولبنان) وتطبيقاً لتعليمات حكومته في تهدئة الوضع في الشرق الأوسط بدأ بالضغط على السلطات الفرنسية لإجراء انتخابات بأسرع وقت؛ وبالرغم من تعليمات الجنرال ديغول

أجبر الجنرال الفرنسي كاترو بالموافقة على إجراء الانتخابات، ولذلك أُبعد عن الحكم كل من الرئيس ألفريد نقاش ورئيس الحكومة سامي الصلح، وعُيِّن أيوب تابت رئيساً للجمهورية ورئيساً للوزراء معاً وذلك لإجراء والإشراف على الانتخابات العامة في البلاد... ولكن أيوب تابت هو صديق لإميل إده وفي نفس الخط السياسي، وليس له صفات الرئيس المحايد، فلم يكن مقبولاً من أنصار بشارة الخوري، ولم يكن مقبولاً من المسلمين، لأنه في توزيع المقاعد في مجلس النواب أعطى ٣٢ مقعداً للمسيحيين (أدخل في حساباته وتقديرياً المغتربين مُعتبراً أن أكثريتهم من الطائفة المسيحية) و٢٢ مقعداً فقط للمسلمين في حين أن عددهم يفوق هذه النسبة بكثير. وأمام معارضة المسلمين الشديدة لسياسته، عمد الجنرال كاترو باستبداله بالروم الأرثوذكس بترو طراد وتم الوفاق على إعطاء المسيحيين ٣٠ مقعداً والمسلمين ٢٥ مقعداً، ومنذ هذا التاريخ عُمل بهذه النسبة ٦ إلى ٥ بشكل أن عدد النواب هو دائماً حصيلة الضرب بالرقم ١١.

حصلت الانتخابات تحت إشراف الجنرال الانجليزي سبير والفرنسي جان هللو Jean Helleu الذي حلَّ مكان كاترو والرئيس اللبناني المليونير بترو طراد، وكانت النتيجة فوز الكتلة الدستورية وحلفائها. وفي أول اجتماع للمجلس الجديد في ٢١ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٣ م. انتخب الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية اللبنانية مُنتخباً من قبل أول مجلس نيابي مُنتخب بدوره من قبل الشعب اللبناني، وكان من الطبيعي أن يطلب الرئيس الجديد من حليفه رياض الصلح تأليف أول حكومة تتمثل بها الطوائف الست: المارونية، السنية، الشيعية، الروم الأرثوذكس، الروم الكاثوليك والدروز.

ومع الرئيس بشارة الخوري والرئيس رياض الصلح، بدأت مرحلة جديدة من التاريخ اللبناني.

الميثاق الوطني

قبل أن نتكلم عن الميثاق الوطني، يجب أن نتوقف قليلاً عند التغيرات التي حصلت في مواقف الطوائف اللبنانية، وعن حالة هذه الطوائف، وأهميتها وعن نظرتها الجديدة للبنان.

بعد أن عارضت الطائفة الشيعية أثناء الثورة العربية والسنوات التي تلتها، قيام لبنان المنفصل عن سوريا والعالم العربي، عادت وقبلت بذلك في قيام لبنان بميزات خاصة (سنتطرَّق إليها لاحقاً) عندما شعرت أن مصلحتها كأقلية تتفق وقيام مثل هذا الكيان السياسي، وأنها قد تحصل داخل لبنان الصغير على ما قد لا تحصل عليه داخل الدولة العربية الكبيرة من حقوق سياسية ومكتسبات. وكذلك كان حال الطائفة السنية، فقد خفّ حماسها للدولة العربية الموحدة، لأنها بعد المقاطعة الطويلة للاشتراك في الحياة السياسية اللبنانية، عادت وقبلت المشاركة عندما حصلت على رئاسة الوزارة، وكذلك الحال بالنسبة لبقية الطوائف. المطالبة كانت باسم المذهب لأبناء المذهب كمصلحة دنيوية وليست للمذهب كدين، وعندما حصلت هذه الطوائف على حصتها السياسية بشيء من التساوي وصلت إلى نوع من التفاهم، تجسد بينها باتفاق أصبح معروفاً بالميثاق الوطني.

الميثاق الوطني الواقع هو حصيلة مجهود شخصيتين سياسيتين: شخصية مارونية مثلت التيار السياسي الماروني المعتدل تحت راية حزب الدستور وبرئاسة الشيخ بشارة الخوري، وشخصية مسلمة سنية مُعتدلة هي الأخرى في سياستها العربية؛ تلاقيا في مرحلة وصل معها النضوج السياسي بين اللبنانيين إلى نقاط مُشتركة، واستطاعا بالتالي أن يدفع كل واحد منهم بطائفته للقبول بما اتفق عليه. وبمعنى آخر ساعدت ظروف سنة ١٩٤٣ م. على وضع الميثاق: حُصول لبنان على استقلاله الفعلي، توقف التدخل الأجنبي العلني وزرع سياسة التفرقة، وبالذات التدخل الفرنسي، ضُعف التيارات السياسية المتطرفة عند أغلبية الطوائف، حصول

هذه الطوائف على مكاسبها واطمئنانها على وجودها السياسي داخل الجهاز اللبناني، وصول شخصيات سياسية تقليدية إلى مجلس النواب استطاعت التأثير على ناخبيها والقبول بالصيغة الجديدة، الرغبة عند الجميع بالحصول على الاستقلال الكامل والحقيقي.

خير الدين الأحدب أول رئيس وزراء سني للبنان، أيام رئيس الجمهورية إميل إده، قال رداً على انتقاد البعض لسياسته اللبنانية، وهو القومي العربي المتحمس سابقاً، «إذا قرز العرب الاتحاد... وجودي في السرايا اللبنانية لن يمنعهم من تحقيق ذلك»، وهذا دليل على تبدل الموقف... كما أن تصرفات المفوضين الساميين الفرنسيين في بعض المراحل أثارت احتجاج الموارنة أنفسهم، كل هذا سهَّل الاتفاق.

ماذا يقول الميثاق؟

الميثاق لم يضع التفاصيل للحياة السياسية اللبنانية، بل هو توافق على الخطوط العريضة لهذه السياسة، والميثاق ليس بقانون مكتوب ومُصدق عليه من قبل مجلس النواب، وليس اتفاقاً بين جميع أفراد الشعب اللبناني: هو تفاهم فوقي بين شخصيتين سياسيتين لأكبر طائفتين في ذاك الوقت «جاء بشارة الخوري إلى مكتبي في جريدة النداء واجتمع برياض الصلح، ولم يكن بينهما ثالث، وانتهيا بعد ذلك إلى ما يسمونه اليوم ـ الميثاق الوطني»[١]، قبلت به بقية الطوائف للأسباب التي سبق ذكرها، «الميثاق هو تفاهم (طوائفي) أكثر منه وطني»[٢]، كان الخطوة الأولى الضرورية لانطلاق الحياة السياسية في لبنان، ولكنها ليست الكافية لخلق الانسجام الدائم بين اللبنانيين، غير أن من حسناته أنه أعطى فرصة زمنية استقر فيها الوضع السياسي والأمني في البلاد، ولكن للأسف لم يُعدَّل هذا الميثاق ولم يُطور حسب تطورات مواقف الطوائف والتوازن الجديد بينها، لأن موازين القوى بين الطوائف عُرضة لتغيرات ديموغرافية واجتماعية وعلمية، وما كان مقبولاً من طائفة ما في الأمس هو

---

(١) كاظم الصلح نقلاً عن علي شعيب «تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء» ص ٢٢٩.

(٢) Elizabeth Picard «Liban état de discorde» pp. 16.

عُرضة للنقد اليوم.

وتم الاتفاق على النقاط التالية حسب ما أعلنه بشارة الخوري نفسه:

- الاستقلال الكامل والحقيقي بالنسبة إلى بلدان الغرب وكل بلدان الشرق.
- لا وصاية ولا حماية، لا وضعية خاصة لصالح أية دولة.
- التعاون إلى أقصى الحدود مع الدول العربية الشقيقة.
- الصداقة مع كل البلدان الأجنبية التي تعترف باستقلالنا الكامل وتحترمه.

«لبنان ذو وجه عربي ولفتة عربية. جزء لا يتجزأ من العالم العربي، ويملك مميزات خاصة. رغم عروبته لم ينقطع عن الروابط الثقافية والحضارية مع الغرب، بحيث أن تلك الروابط تقوده إلى التقدم الذي ينشده»[١].

كان من الأصح القول، لبنان ذو وجه (غربي)، لأن الجوهر هو شرقي، شرقي التربية والتقاليد والعادات وميزات الكرم والضيافة والنخوة والشرف والروابط العائلية واحترام الأهل وتقديس الوالدين واحترام المرأة - خلال كل الحروب الأهلية في لبنان، الجميع حافظ على احترام المرأة، المقاتلون لم يخطفوا النساء ولم يغتصبوهم كما فعل الصرب في البوسنة وكوسوفو - ولكن المظهر (الوجه) غربي، بتقليد الحياة الغربية في المظهر الخارجي من لباس وطريقة العيش. بيروت هي العاصمة العربية الأكثر تأثراً بالغرب في بنائها وملاهيها ونواديها ولكن روحها شرقية، بيروت تجسد لقاء الشرق بالغرب، لقاء المادة الغربية مع الروح الشرقية، وهذا ما يحسدنا عليه الغرب نفسه.

هذه العادات الشرقية الأصيلة هي التي تشد المغترب اللبناني، وتخلق الحنين في نفسه وتدفعه إلى العودة إلى لبنان ليتشبع من جديد بكل هذه العواطف التي يُحرم منها في بلاد الغربة، وليست مظاهر المدنية المادية الجافة الجامدة. هذه قيم مشتركة وموجودة عند جميع اللبنانيين تقرّب بينهم وتوحِّد طريقة عيشهم.

إذاً، الميثاق الوطني هو في النهاية حل وسط بين موقفين متطرفين، لم يكن

(١) Rabbath «La Formation historique du Liban» p. 524.

ليتم لو لم يقبل كل فريق مبادلة المواقف مع الفريق الآخر: مقابل قبول أنصار الدولة العربية الموحدة بالكيان اللبناني المستقل، قَبِلَ الصف الانفصالي بعروبة لبنان وبدخوله نادي الجامعة العربية وأتباع سياسة عدم الانحياز إلى أي دولة أجنبية.

الميثاق يُنهي مبدئياً سعي الموارنة وراء الحماية الأجنبية وخاصة الفرنسية، ويُنهي سعي المسلمين وراء الوحدة العربية التي تُقضي على الكيان اللبناني الخاص. وهكذا أصبح لبنان غربي وعربي ومسلم ومسيحي في الوقت نفسه.

الميثاق لم يقضِ على النظام الطائفي بل طبق النظام الطائفي، على أن يكون ذلك لفترة مؤقتة، كما لحظت ذلك المادة ٩٥، ولكن كما أشرنا لا تزال هذه المادة سارية المفعول، وعلى أساسها وزعت (الحصص) طائفياً ونسبياً بين الطوائف، على أثر توصية من الجنرال الإنكليزي سبير وحسب نتيجة إحصاء سنة ١٩٣٢ م:

عدد النواب هو حصيلة ضارب ١١ وبنسبة ٦ نواب مسيحيين إلى ٥ نواب مسلمين، على أن توزع وظائف الدولة مناصفة، ولكن حسب هيكلية معينة تبقى معها الأفضلية للموارنة بحيث يحتفظون برئاسة الجمهورية وبقيادة الجيش، السُّنة برئاسة الوزراء، ويعطى للشيعة رئاس مجلس النواب، وللروم الأورثوذكس نيابة رئاسة مجلس النواب، وبشكل عام للدروز وزارة الدفاع أو وزارة الخارجية. وهكذا بقية المراكز كلها موزعة توزيعاً طائفياً حيث الانتماء الطائفي هو أهم من الجدارة والمقدرة والمعرفة والاختصاص وكل ذلك بحجة التوازن الطائفي.

النتيجة الطبيعية للميثاق وللنظام الطائفي (الدائم) هو تفتيت لبنان إلى مجموعات لها قياداتها الروحية وقياداتها الزمنية، والمواطن مُلزم الولاء للقيادتين إذا أراد العمل في الدوائر الحكومة أو إذا كانت لمصالحة علاقة مع الدولة. الفرد في لبنان مُقيد بارتباطاته الدينية والمذهبية والعائلية والجبية داخل نفس العائلة والثقافية والمحيط الذي يعيش فيه، وحصيلة التفاعلات هذه تُحدد نظرته وتعامله مع بقية المواطنين ومع الوطن.

النظام الطائفي يحمي نفسه بدفاعات ذاتية لأن مصلحة القيادتين الروحية والزمنية لكل طائفة تلتقي مع استمرارية هذا النظام، فحماية لمصالحهم يصبحون

مدافعين عن الطائفية، وقد يكون هذا سبباً في استمرارية المادة ٩٥ إن لم يكن الخوف من التطرق إلى الأساسيات هو سبب هذا الجمود السياسي والذي لا يتحرك إلاّ بعد خضات تزعزع أركان الوطن، يدفع اللبنانيون ثمنها غالياً من دمائهم وأموالهم وتدفع بهم إلى الهجرة.

بعد وصول بشارة الخوري ورياض الصلح إلى سدة الحكم، وبفضل التفاهم القائم بين الرجلين، بدأ عهد جديد بمفهوم سياسي جديد بين الطوائف اللبنانية، خاصة بين الطائفتين المارونية والسنية، بحيث أصبحتا الطائفتين الأكثر سلطة سياسياً وعددياً داخل لبنان المستقل، وكان هَمُّ الحكومة الأول الحصول على الاستقلال الفعلي للبلاد، لأن السيطرة الفرنسية لا تزال قائمة على المؤسسات، مع وجود الجيش الفرنسي؛ فبدأت الحكومة اللبنانية المحادثات مع المفوض الفرنسي هللو Helleu لوضع حد نهائي للانتداب الفرنسي على لبنان مطالبين بتسلُّم الإدارات العامة، وتحويل المفوضية الفرنسية إلى هيئة دبلوماسية، كما أعلنت نيتها بتعديل الدستور بما يتماشى وعهد الاستقلال الحقيقي.

بعد أن شاور المفوض الفرنسي هللو حكومته (أي حكومة فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول والمقيمة مؤقتاً في الجزائر) أعلن رفضه للرغبة اللبنانية وأن حكومته لن ترضى عن تغير في الدستور من طرف واحد، طبعاً هذا الموقف هو للحصول على أكثر امتيازات ممكنة قبل إعطاء لبنان استقلاله كاملاً، وهذا الموقف هو مُشترك عند جميع الدول الاستعمارية. قرار الحكومة الفرنسية وما تبعه من تصرفات المفوض السامي هللو كان أكبر خدمة تُقدمها فرنسا إلى لبنان، لأنها وحدت الموقف اللبناني ونمّت الشعور الوطني، وبدأ أخيراً اللبنانيون ببناء تاريخ مُشترك لهم ولبلادهم؛ هذه الوقفة الوطنية، جعلت مجلس النواب يأخذ قراراً بالإجماع، بتعديل كل ما له علاقة بالانتداب والتأكيد على استقلال لبنان، وإلغاء القرار الذي يجعل من اللغة الفرنسية اللغة الرسمية الثانية في البلاد، وصادق رئيس الجمهورية بشارة الخوري فوراً على هذه القرارات وصدرت في الجريدة الرسمية في اليوم التالي في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣.

عند عودته من الجزائر فوجىء هللو بالقرار اللبناني، فثار غضبه وتصرف بردة فعل حمقاء بأن أعطى أوامره إلى كل من البحرية الفرنسية والقوات السنغالية في ١١ تشرين الثاني بمداهمة بيوت الزعماء اللبنانيين وإلقاء القبض عليهم بما فيهم رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، وهكذا تم القبض على الرئيسين وبعض السياسيين الآخرين والزج بهم في قلعة راشيا في منطقة وادي التيم، وأمر بتعليق الدستور وعين رجل فرنسا المخلص إميل إده رئيساً للدولة.

هذا التصرف الأحمق من قبل المندوب السامي، جمع اللبنانيين ووحد بينهم فتلاقى حزب «الكتائب» المسيحي مع حزب «النجادة» المسلم ومع الأحزاب والمنظمات الوطنية الأخرى مسلمة ومسيحية في وقفة وطنية رائعة، قَلَّ ما عرف لبنان مثلها، فعمت المظاهرات احتجاجاً على تصرفات الفرنسيين وتأييداً للقادة اللبنانيين، مما أجبر سلطة الانتداب على فرض منع التجول.

تابع الأعضاء الباقون من حكومة الصلح نشاطهم السياسي، فلم يرضخوا لإرادة الفرنسيين فتخفوا بالقرب من بشامون وألفوا حكومة مؤقتة، وقرروا إبدال العلم اللبناني المعمول به حتى ذاك التاريخ (وهو عبارة عن علم فرنسا أضيفت إليه الأرزة في الوسط) بالعلم اللبناني الحالي، وحظيت الحكومة المؤقتة بتأيد شعبي كبير، وبمساندة إنجليزية أيضاً، مما جعل إميل إده (رجل فرنسا) في عزلة من جديد.

تصرفات هللو وحّدت اللبنانيين مسلمين ومسيحيين ضد سياسة فرنسا، وهذا ما أشار إليه الجنرال كاترو Catroux لدى عودته إلى لبنان، فعزل هللو عن منصبه وتولى إدارة الأمور بنفسه، فأطلق سراح السياسيين اللبنانيين في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر)، فدخلوا العاصمة وسط ترحيب شعبي وشعور بالنصر على سلطة الانتداب. هذا التاريخ كان البداية الحقيقية لنهاية عصر الانتداب والانطلاقة الفعلية على طريق الاستقلال.

هذه الفرص التاريخية النادرة، لم يُحسن رجال السياسة استغلالها لتقوية الشعور الوطني، وصهر اللبنانيين في بوتقة واحدة لبناء لبنان المستقل على أسس ومفاهيم وطنية جديدة، عبر عنها الشعب بعفوية، فوقعوا في شباك الصراعات الداخلية، فعاد

الصراع من جديد بين أنصار إده من الكتلة الوطنية وأنصار بشارة الخوري من الكتلة الدستورية، وظهور المتطرفين المؤيدين لدوام العلاقة المميزة مع فرنسا ووجودها العسكري، إلى جانب الصراع على مركز رئاسة الجمهورية عند الموارنة (انشقاق وزير الداخلية كميل شمعون عن الثنائي خوري ـ الصلح، وهذا من باب الصراع المسبق على رئاسة الجمهورية) والصراع على رئاسة الوزراء بين الرؤساء المحتملين مثل عبد الحميد كرامي، وصائب سلام وعبد الله اليافي. هذه الصراعات الداخلية أضاعت الفرصة الذهبية في تنمية الولاء للبنان الجديد والتخلص من إرث الانتداب الطائفي وبناء دولة العدالة والقانون وعمل المؤسسات.

لبنان المستقل

بعد الانطلاقة الصحيحة على طريق الاستقلال في تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩٤٣ أصبح الاستقلال فعلياً في سنة ١٩٤٤ بعد أن تسلم لبنان جميع الإدارات، وفي ٣١ كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٩٤٦ غادر آخر جندي فرنسي الأراضي اللبنانية، وبدأ عهد لبنان المستقل.

رئاسة بشارة الخوري (١٩٤٣ ـ ١٩٥٢)

بعد خروج الرئيس الخوري وأعضاء حكومته من معتلقهم، حصلوا على تأييد شعبي واسع النطاق، والتف اللبنانيون حول زعمائهم وباركوا سياسة الميثاق الوطني، القائمة على علاقات الصداقة مع العالم الغربي عامةً ومع فرنسا خاصةً، وهكذا قدمت فرنسا التجهيزات اللازمة للجيش اللبناني، والمساعدة المالية للدولة اللبنانية حديثة العهد. تضامن وثيق مع العالم العربي وحضور على الساحة الدولية.

هذه السياسة استقبلت استقبالاً حسناً من قبل الدول العربية، وفي لقاء الاسكندرية في ٨ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٤٤، تعهد العرب باحترام السياسة اللبنانية وسيادة لبنان الكاملة ضمن حدوده الحالية. وهكذا، أخذ لبنان مكانه بسرعة داخل المجموعات الدولية والعربية، بحيث أصبح من مؤسسي الجامعة العربية إلى جانب المملكة العربية السعودية، مصر، العراق، سوريا، شرقي الأردن واليمن في

٢٢ آذار (مارس) من سنة ١٩٤٥ وأصبح عضواً في منظمة الأمم المتحدة مُنذ تأسيسها في ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة ١٩٤٥ م.

لكن النجاح الذي حققه عهد بشارة الخوري في مجال السياسة الخارجية، للأسف قابله فشل في مجال السياسة الداخلية، فلم يستطع الإفلات من شباك الطائفية، ولم يستطع تحسين الوضع المعيشي، فانغمس بلعبة التوازنات الطائفية لتجييرها قدر الإمكان لصالحه الشخصي ولصالح الطائفة المارونية بطغيان رئاسة الجمهورية على رئاسة الحكومة والانتقاص من حقوق المسلمين في وظائف ومراكز الدولة، (تبدلت حكومات كثيرة في عهده، عبد الحميد كرامي، سامي الصلح، سعدي المنلا)، الرشوة في الإدارات العامة، التبذير في أموال الدولة، إلى جانب الضائقة المعيشية، فعمت الإضرابات (الريجي، المرفأ، عمال سكة الحديد)، واستعملت القوة ضد المضربين ذهب ضحيتها جرحى وقتيلة هي العاملة وردة ابراهيم[1]. وفي نهاية ولايته أصبح همه التجديد فاتبع سياسة الترضية بإرضاء النواب بالمكاسب والمراكز للحصول على أصواتهم، ولم يتورع عن معاكسة الميثاق الوطني نفسه بدعم ترشيح حبيب أبي شهلا لرئاسة مجلس النواب في حين أن هذا المركز هو للطائفة الشيعية.

لقد نجح بشارة الخوري بتجيير أصوات النواب، فاستطاع تعديل الدستور والحصول على ولاية جديدة، هذه السابقة خلقت الخلاف بين الموارنة وخاصة مع أنصار الرؤساء المحتملين لرئاسة الجمهورية وعلى رأسهم كميل شمعون، كما عارض هذه السياسة كمال جنبلاط الزعيم التقليدي للدروز وأمام المعارضة الصاخبة، وبعد اغتيال رياض الصلح في الأردن فقد الشيخ بشارة حليفه القوي فأُجبر على الاستقالة في ١٨ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٥٢ م.

رئاسة كميل شمعون (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨)

استطاع كميل شمعون الوصول إلى الرئاسة بفضل التحالف الماروني ـ الدرزي،

---

(١) د. علي عبد المنعم شعيب «تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء» ص ٢٣٩.

بينه وبين كمال جنبلاط، ولكن هذا التحالف لم يدم طويلاً، وكان التحالف الأخير بينهما. وما أن وصل شمعون إلى سدة الرئاسة، حتى عمل على تقوية مركز رئاسة الجمهورية على أكثر ما كان عليه أيام بشارة الخوري، وأعطى الأفضلية للطائفة المارونية، واستطاع شمعون أن يكسب تأييد أنصار بشارة الخوري السابقين، وأن يقوي مركزه الشخصي فحكم بحزم، وطبق سياسة قاسية خاصةً مع المعارضة، وعدّل قانون الانتخاب في سنة ١٩٥٣، وخفض عدد النواب من ٧٧ إلى ٤٤ نائباً؛ هذا التلاعب بمجرى الانتخابات أدى إلى تحجيم المعارضة وإبعاد الزعماء التقليديين عن مراكز السلطة (حمادة، الأسعد، سلام، كرامي، جنبلاط، فرنجية، الخوري) فما كان من هذه القوى السياسية التقليدية إلاّ أن تحالفت ضده، إلى جانب معارضة المسلمين لأن دورهم أصبح ثانوياً في عهده.

هذا على الصعيد الداخلي، أما على الصعيد الخارجي، فقد واجه شمعون ظروفاً صعبة للغاية، إذ أن منطقة الشرق الأوسط كانت في حالة غليان، وشهدت أحداثاً كثيرة كان من الصعب على لبنان ألاّ يتأثر بها، منها التدخل الأميركي في المنطقة بعد انتهاء الدور الإنجليزي والفرنسي، خاصة أنه أصبح ساحة صراع للحرب الباردة الدائرة بين الأميركيين والروس، وبروز التحالفات، من حلف بغداد سنة ١٩٥٥ م. إلى نظرية أيزنهاور؛ ولكن التأثير الأكبر كان لانقلاب ـ الضباط الأحرار ـ في مصر سنة ١٩٥٢ ووصول جمال عبد الناصر إلى مركز القيادة وبما كان له من شخصية قوية استطاع أن يُحيي الشعور بالوحدة العربية من جديد خاصةً عند المسلمين، إذ بعد تأميم قناة السويس هاجم الفرنسيون والإنجليز و«الإسرائيليون» مصر، مما أثار غضب الشعوب العربية، ومساندةً لمصر طالب التيار العربي في لبنان بواسطة ممثليه في الحكم عبد الله اليافي وصائب سلام قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا وإنكلترا، ولكن شمعون المعروف سابقاً بتعاطفه مع السياسة الإنجليزية وتالياً مع السياسة الأميركية، رفض الاستجابة، وتابع سياسته الغربية وتقرّب من أميركا بجر لبنان وعكس روح الميثاق الوطني إلى الدخول في حلف أيزنهاور Eisenhower سنة ١٩٥٧ م، فاستقال سلام واليافي، وانقسم لبنان من جديد إلى ما أصبح مألوفاً: أنصار

العالم العربي من جهة وأنصار العالم الغربي من جهة أخرى.

ولكن هذه المرة أخذ الانقسام الطابع السياسي أكثر منه الطابع الطائفي، لأن أمام سياسة شمعون الداخلية والخارجية، توحدت المعارضة في جبهة وطنية ضمت مسلمين ومسيحيين، وأخذت المعارضة شكل العصيان المدني الذي عُرف بأحداث ١٩٥٨: مظاهرات وإضرابات ومواجهة مع قوى الأمن مما أدى إلى وقوع الضحايا واهتزاز الاقتصاد. (ولكن اللبنانيون لم يتعظوا من هذه الحرب الصغيرة، فوقعوا في ما هو أعظم في حرب ١٩٧٥). ولم يقاوم الميثاق الوطني طويلاً، أمام سياسة الأحلاف الخارجية مثل القبول بنظرية أيزنهاور أو محاولة جر لبنان إلى الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة والانتقاص من حقوق بعض الطوائف وإعطاء حقوق زائدة إلى طوائف أخرى.

أمام تردي الأوضاع في البلاد طلب شمعون من الجيش التدخل لقمع الانتفاضة، ولكن قائد الجيش رفض الأمر، بحجة أن ليس من دور الجيش التدخل في الشؤون الداخلية ومساندة أي رئيس للبقاء في سدة الحكم؛ فما كان من الرئيس شمعون سوى التوجه وطلب المساعدة من الولايات المتحدة الأميركية، التي أرسلت بقوة عسكرية إلى لبنان في ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٨. (وكان هذا أول تدخل عسكري أجنبي في لبنان مُنذ الاستقلال)، وانتهت المساعي الدبلوماسية خاصة الأميركية بالمجيء بقائد الجيش فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية والذي تم انتخابه من قبل المجلس النيابي في ٣١ تموز.

لا بد للاعتراف للرئيس شمعون بما حققه في مجال الاقتصاد، بفضل الهدوء في بداية عهده، والاستقرار الذي عرفته البلاد في هذه الفترة، والسرية المصرفية، وتدفقت رؤوس الأموال على لبنان، خاصة العربية، وازدهر الاقتصاد وعرفت الليرة اللبنانية عصرها الذهبي وأصبحت من أكثر العملات ثبوتاً بعد أن وصلت تغطية قيمتها إلى ٩٥ بالمئة من الذهب، كما يُعترف لشمعون إعطائه المرأة اللبنانية حق الاقتراع، ومحاولته إصلاح الإدارة ومؤسسات الدولة رغم فشله، لأن لا إصلاح مُمكن لهذه المؤسسات في ظل نظام المحسوبية والعائلية والإقطاعية السياسية والنظام الطائفي.

موقف قائد الجيش فؤاد شهاب الحيادي من الأحداث، جعله مقبولاً من الجميع، وأكثرية اللبنانيين من مسلمين ومسيحيين كانوا على رضا بانتخابه رئيساً للجمهورية في ٣١ تموز، وأخذ منصبه بعد مغادرة شمعون الرئاسة في ٢٢ من شهر أيلول (سبتمبر)، ولكن بالرغم من هذا التغيير في رئاسة الجمهورية، إلاّ أن الأحداث لم تتوقف وإن خفت حدتها، فبقيت المناوشات بين أنصار الجمهورية العربية المتحدة من جهة وبين أنصار شمعون وحزب «الكتائب» من جهة أخرى.

كلّف الرئيس شهاب، رشيد كرامي بتأليف أول حكومة في عهده، فألفها من وزراء أكثرهم موالي للجبهة الوطنية، مما لم ترضَ عنه «الكتائب» وبعض الفئات المسيحية، وعلى أثر تصريح كرامي، بأن حكومته جاءت لتقطف ثمار الثورة[١]، وخاصة بعد مقتل صحفي كتائبي، أضرب الكتائب مع أنصارهم احتجاجاً، وشُلت البلاد، وبدأت الاشتباكات التي أخذت الطابع الطائفي، مما أدى إلى تبديل في تركيبة مجلس الوزراء في ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) وتأليف حكومة جديدة من أربع أعضاء: وزيرين سُنَّة ووزيرين موارنة، أي وزيرين من كل فريق (بالتعادل)، وعفى الله عما مضى وولد شعار: لا غالب ولا مغلوب.

«بعد أحداث ١٩٥٨ اكتشف المسؤولون اللبنانيون على أثر دراسة فريق فرنسي IRFED فداحة اللامساواة التي تميز بلادهم، وهي الأكثر في العالم: ٤ في المئة أغنياء فوق العادة ويمتلكون ٣٣ بالمئة من الدخل الوطني بينما نصف سكان لبنان يتقاسمون ١٨ بالمئة فقط! وتبين النقص الهائل في الطرقات والكهرباء ومياه الشرب والمدارس والمستشفيات خاصة في المناطق البعيدة عن العاصمة بيروت وخاصة في لبنان الجنوبي»[٢].

ولم يكن حال البقاع وخاصة منطقة بعلبك الهرمل أفضل من وضع الجنوب،

---

(١) ـ «تاريخ لبنان». كمال صليبي. ص ٣١٠.

(٢) Elizabeth Picard «Liban état de discorde» Flammarion 1988.

وبمعنى آخر وضع مناطق التواجد الشيعي حيث الحرمان هو في جميع المجالات. هذا الوضع دفع الرئيس شهاب إلى انتهاج سياسة عادلة اجتماعياً وإعطاء المسلمين بعض حقوقهم، لأنه يعرف كي يتعلق المسلم بلبنان، ويجب أن يكون لديه نفس شعور الارتياح المسيحي، والحصول على نفس الرفاهية والشعور بالعدالة والمساواة، فأنشأ مؤسسة الضمان الاجتماعي بفروعه من طوارىء العمل إلى صندوق حماية الأم والطفل والأمراض المهنية؛ وإن لم يغطِّي صندوق الضمان الاجتماعي جميع اللبنانيين فكان ولا يزال من أروع ما حققه شهاب خدمةً للشعب اللبناني. واهتم بإيصال الكهرباء والماء والطرقات إلى جميع اللبنانيين، كما اهتم بقطاع التعليم والصناعة، واتبع سياسة منسجمة مع روح الميثاق الوطني، عكس ما فعله شمعون وبشارة الخوري نفسه، أحد واضعي الميثاق، فاتبع سياسة الانفتاح على العالم العربي وخاصةً مع الرئيس جمال عبد الناصر، دون أن يعادي العالم الغربي، كما اتبع سياسة متوازنة داخلياً بإعطاء المسلمين ما يعود لهم من وظائف في إدارات الدولة. وانسجاماً مع نفسه وبعد أن أصلح ما استطاع لم يحاول التجديد لرئاسته كما فعل أسلافه، بل رفض تعديل الدستور لهذه الغاية وغادر الرئاسة، مشكوراً من قبل الكثير من اللبنانيين لأنه في عهده عرف لبنان أفضل فترة في تاريخه الحديث.

طبعاً لا يخلو رئيس من الانتقاد مهما فعل، فالبعض يأخذ على الرئيس شهاب، دور المكتب الثاني العسكري وتدخله في العمليات الانتخابية، مما أثار تحفظ السياسيين التقليديين والعمل على إيصال رئيس من نفس مدرستهم السياسية لاحقاً.

رئاسة شارل حلو (١٩٦٤ ـ ١٩٧٠)

رجل فكر أكثر منه رجل سياسة، وصل إلى الحكم في فترة عصيبة، حيث الفلسطينيون أصبحوا مشكلة لبنانية خطيرة، وانقسم اللبنانيون بين مؤيد ومعارض لتصرفاتهم. كما أنه لم يستطع أن يكمل ما بدأ به شهاب وفشل في محاولته تطهير الإدارة من الفساد، مما جعل جميع المتضررين من كبار الموظفين ومن جميع الفئات الدينية يتحالفون ضد سياسته، (كم هو سهل التقاء أهل السياسة في لبنان عندما تُهَدَّد مصالحهم). لم تكن ظروف السياسة الخارجية أفضل من السياسة الداخلية، لأنه بعد

سنة ١٩٦٨ تعاظم الوجود الفلسطيني المسلح، وتعاظم الرد «الإسرائيلي». ففي ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) من نفس العام حطم الجيش الإسرائيلي ١٣ طائرة لشركة طيران الشرق الأوسط اللبنانية على أرض مطار بيروت الدولي. ردة الفعل على الساحة اللبنانية كانت مزيداً من الانشقاق والخلاف بين المؤيدين والمعارضين للعمل الفلسطيني المسلح في لبنان ومن لبنان.

في ١٥ كانون الأول كلف رشيد كرامي من جديد، بمهمة تأليف الحكومة، ورغم تعاطفه مع الفلسطينيين، لم يقبل هؤلاء بالحد من حرية الحركة في لبنان فبدأت الاضطرابات في صيدا وبقية المدن المتعاطفة مع الفلسطينيين وانتهى الأمر برشيد كرامي بتقديم استقالته وعاشت البلاد أزمة حكومة دامت سبعة أشهر.

وبقيت الأمور على حالها إلى ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) تاريخ اتفاق القاهرة الذي حدد دور الفلسطينيين وأوجد ما سمي بمنطقة «فتح» Fatahland (راجع المشكلة الفلسطينية)، عندها ارتفعت الأصوات المعارضة للاتفاق لتتهم الرئيس حلو بالانتقاص من وحدة الأراضي اللبنانية وبعدم احترام روح الميثاق الوطني. (مسكين هذا الميثاق!).

رئاسة سليمان فرنجية (١٩٧٠ ـ ١٩٧٦)

قل دور الزعماء التقليديين في عهد الرئيس شهاب، فسعوا إلى إيصال أحدهم إلى سدة الحكم، وتم اختيار سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية اللبنانية في ١٧ آب (أغسطس) ١٩٧٠، ولكنه لم يستطع الحد من صعود اليسار اللبناني ومن العمل الفلسطيني المسلح، أضف إلى ذلك التفاوت الاجتماعي والخلاف على الامتيازات بين الطوائف، فأصبحت المواقف متباعدة إلى درجة المواجهة. وبعد الاعتداء «الإسرائيلي» وقتل بعض القادة الفلسطينيين داخل العاصمة بيروت في ٩ و١٠ نيسان (أبريل) عام ١٩٧٣، زاد غضب الفلسطينيين وحلفائهم، محملين رئيس الجمهورية وقائد الجيش مسؤولية التقصير في الرد على الإسرائيليين. فعمت المظاهرات العاصمة وبعض المدن اللبنانية الأخرى، وتدهور الوضع إلى حد استقالة رئيس الوزراء صائب

سلام، فجاء مكانه أمين الحافظ المعروف بتعاطفه مع الفلسطينيين لتأليف حكومة جديدة. ولكن مجيء الحافظ لم يهدىء الوضع بل زاده اضطراباً. وفي ٢ أيار (مايو) حصلت مواجهة مسلحة بين الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين. وهذا الوضع الداخلي المضطرب وردات فعل مواقف دول المنطقة، من إسرائيل إلى العراق إلى سوريا، أدت بأمين الحافظ إلى الاستقالة، وجاء مكانه تقي الدين الصلح.

أمام غياب السلطة القوية، وضعف الدولة زادت الاضطرابات حدة. وفي آذار (مارس) ١٩٧٤ عمت الإضرابات البلاد وبدأت تهب رياح الحرب. تابع الفلسطينيون هجماتهم على شمالي «إسرائيل» وتابع الطيران «الإسرائيلي» قصفه للأراضي اللبنانية، والشعب اللبناني منقسم على نفسه، وأصبح وضع البلاد السياسي في حالة شلل كلي. في ٢٥ أيلول (سبتمبر) استقال تقي الدين الصلح بدوره هو الآخر، وجاء مكانه رشيد الصلح. بدأت سنة ١٩٧٥ بقصف الطيران «الإسرائيلي» قصفاً شديداً للجنوب اللبناني، كما زاد احتجاج حزب «الكتائب» على حالة الأمر الواقع والسيطرة الفلسطينية في لبنان (وإقامة دولة ضمن الدولة)، طبعاً موقف القوى اليسارية والتقدمية كان يقول العكس، وهكذا اجتمعت كل الشروط اللازمة لبدء الحرب، وبسرعة بدأت هذه الحرب في غياب سلطة الدولة، وأخذ الجميع بالتسلح تأهباً للحرب الواقعة لا محالة، والتي لا ينقصها سوى الشرارة الأولى لتندلع. وهذه الشرارة لم تتأخر بأن حصلت في نيسان (أبريل) ١٩٧٥ م ودخل لبنان في جنون حرب أهلية طويلة.



الفصل الخامس

الحرب اللبنانية

I ـ أحزاب وميليشيات الطوائف

١ ـ الأحزاب والميليشيات المسيحية :

ـ حزب الكتائب اللبنانية

ـ حزب الوطنيين الأحرار

ـ المردة، جيش التحرير الزغرتاوي، الرابطة المارونية، حراس الأرز

٢ ـ الأحزاب والميليشيات المسلمة :

ـ الحزب التقدمي الاشتراكي

ـ حركة ٢٤ تشرين الأول الديموقراطية

ـ حركة المحرومين

ـ حزب الله

II ـ ميليشيات الأحزاب السياسية :

ـ الحزب الشيوعي اللبناني

ـ الحزب السوري القومي الاجتماعي

ـ حزب البعث العربي الاشتراكي

III ـ الزعامات التقليدية :

IV ـ الجيش اللبناني

V ـ الطابور الخامس

VI ـ أصحاب (الدكاكين)

VII ـ المنظمات الفلسطينية

ـ منظمة التحرير الفلسطينية

ـ الصاعقة

ـ جبهة التحرير العربية

اندلاع الحرب

ـ المرحلة الأولى: نيسان/ ابريل ١٩٧٥ م. إلى أيار/ مايو ١٩٧٦ م (مرحلة سكان الداخل)

ـ المرحلة الثانية أو المرحلة السورية

ـ المرحلة الثالثة أو المرحلة «الإسرائيلية»

ـ المرحلة الرابعة: سوريا تركز مكانتها في لبنان

ـ اتفاق الطائف

ـ انطلاق الجمهورية الثالثة.

I ـ أحزاب وميليشيات الطوائف

من خصائص الحرب اللبنانية الأخيرة التي بدأت سنة ١٩٧٥ م. تعدد الفئات المتقاتلة وتعدد الدوافع والأهداف، هذا مما يشرح لنا الصفات العديدة التي أعطيت لهذه الحرب: حرب دينية طائفية، حرب أهلية، صراع يمين ويسار، صراع الفقراء ضد الأغنياء، معارك الآخرين على أرض لبنان... إلخ. والواقع أن حرب لبنان الأخيرة كان فيها كل هذه الصفات معاً وبأقدار مختلفة حسب مراحل الحرب.

أغلب الطوائف اللبنانية الأساسية، دخلت الحرب بمجموعات قتالية لها صبغة الطائفة الواحدة، انبثق البعض منها من أحزاب كانت موجودة قبل الحرب، والبعض الآخر ولد أثناء الأحداث.

١ ـ الأحزاب والميليشيات المسيحية:

ـ حزب «الكتائب اللبنانية»

ولدت منظمة «الكتائب» في أواخر سنة ١٩٣٦ على أثر الانقسام بين مؤيدي الوحدة مع سوريا وغالبيتهم من المسلمين الأرثوذكس، ودعاة الكيان اللبناني المستقل وأكثريتهم من الموارنة. نشأت فكرة تأسيس هذا الحزب، على أثر تجول مؤسسه بيار جميل في أوروبا كمندوب رياضي للبنان، حيث شاهد الاستعراضات الرياضية المنظمة للشبيبة الأوروبية، فقرر تطبيقها على الشبيبة في لبنان، ولكن سرعان ما تحولت الفكرة الرياضية إلى فكرة سياسية: وذلك بالرد على مظاهرات طالبي الوحدة مع سوريا بمظاهرات مضادة (... على مظاهرات في طرابلس، أجبنا بمظاهرات في إهدن وجونيه وجبيل... وعلى مناشير توزع في صيدا أجبنا بمناشير أخرى، وعلى إضراب بإضراب آخر وعلى إقفال مدينة بإقفال مدينة أخرى، وعلى وفد من عندهم إلى المفوضية العليا بوفد من عندنا...)[١].

---

(١) علي شعيب «تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء (١٩١٨ ـ ١٩٤٦)». ص ٢٢٥ عن بيار الجميل =

في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩٣٧ وبمناسبة عيد المولد النبوي، قامت منظمة «النجادة» باستعراض حملت به الأعلام السورية، مما أثار غيظ أنصار الكيان اللبناني فقاموا بدورهم بمظاهرة مُضادة كان على رأسها حزب «الكتائب». هذا الانقسام السياسي الطائفي أدى إلى اتخاذ قرار من قبل الحكومة في ١٨ تشرين الثاني من سنة ١٩٣٧ م. بحل حزبَيْ «النجادة» و«الكتائب» كونهما لم يعودا تجمعات رياضية بل تجمعات شبه عسكرية. هذا القرار أدى إلى تصادم في ٢١ تشرين الثاني بين «الكتائب» وقوى الأمن سقط فيها جرحى من الطرفين.

وبالرغم من قرار الحل بقي حزب «الكتائب» يزاول نشاطه كالسابق، نشاطات اجتماعية، صحية، إدارية وسياسية. وفي سنة ١٩٤٣ م طالب حزب «الكتائب» بالاستقلال مع أكثرية الشعب اللبناني.

النشاط العسكري الكتائبي كان سبباً لحل الحزب للمرة الثانية، وفي سنة ١٩٥٢ م أعاد نشاطه الحزبي داخل الحياة السياسية اللبنانية(١).

بعد الحرب اللبنانية تقارب حزب «الكتائب» من حزب «الأحرار» واجتمعا تحت راية «القوات اللبنانية». قُدِّر الجناح العسكري بثلاثة آلاف مُقاتل، وشارك في الحرب مشاركة فعالة.

في سنة ١٩٩١ وللمرة الثالثة حُل الحزب من جديد ولا يزال. لقد أعطى هذا الحزب رئيسي جمهورية هما الأخوين جميل، أبناء مؤسس الحزب بيار الجميل: بشير الذي قُتل في سنة ١٩٨٢ وأمين الذي ترأس البلاد من سنة ١٩٨٢ إلى سنة ١٩٨٨.

وكان حزب «الكتائب» يتلقى المساعدات من الأردن، مصر، إسرائيل وبعض الدول الغربية وخاصة فرنسا(٢).

ـ حزب «الوطنيين الأحرار»

أسسه الرئيس كميل شمعون سنة ١٩٥٨ م. وجناحه العسكري يُعرف (بالنمور)

= «لبنان بين واقع ومرتجى». بيروت ١٩٧٠.

(١) Gérard Figuie «le point sur le Liban» pp. 72. edition 96 Anthologie.

(٢) A. R. Hijazi «la paix au Liban, une utopie?» 1983 pp. 67.

ساندته بعض الإمارات العربية، الأردن، وبطريقة غير مباشرة «إسرائيل»[(١)].

إلى جانب هاتين المجموعتين المهمتين، هناك عدة تنظيمات أقل أهمية ذات تأثيرات مَناطقية محلية ضيقة منها:

- «المردة».

- «جيش التحرير الزغرتاوي» (نسبة لمدينة زغرتا) تحت قيادة عائلة الرئيس سليمان فرنجية.

- «الرابطة المارونية»، أسسها د. الشمالي.

- «حراس الأرز».

٢ ـ الأحزاب والميليشيات المسلمة:

- «حركة الناصريين المستقلين»

أسسها ابراهيم قليلات، وهو مسلم سني من مدينة بيروت. طالبت هذه الحركة بدولة حديثة علمية وعربية، بديل عن الدولة الطائفية المارونية. عُرِف مقاتلوها باسم «المرابطون»، وكان من بين أعضائها الكثير من الطائفة الشيعية. كانت تساندها كل من ليبيا وحركة «فتح» الفلسطينية[(٢)].

- «الحزب التقدمي الاشتراكي»

أسسه كمال جنبلاط سنة ١٩٤٩، وهو حزب علماني اشتراكي ومقاوم للطائفية، وأكثر أعضائه هم من الطائفة الدرزية. حُل جناحه العسكري سنة ١٩٩١ م.

- «حركة ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) الديموقراطية الاشتراكية»:

أسسها فاروق المقدم في مدينة طرابلس سنة ١٩٦٩، وهدفها مقاومة الإقطاع السياسي واستغلال الجماهير العربية، وأكثر أعضائها هم من الطائفة السنية.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

ـ «حركة المحرومين»

أسسها موسى الصدر سنة ١٩٧٤ م. (وهو من أصل إيراني واختفى في ليبيا سنة ١٩٧٨ م. بطريقة لا تزال غامضة) جناحها العسكري يُعرف باسم أفواج المقاومة اللبنانية (أمل) وشاركت مشاركة فعلية في الحرب اللبنانية، وخاصة في اشتباكاتها مع الفلسطينيين في العاصمة والجنوب اللبناني، وحُلت سنة ١٩٩١ م. طالبت «حركة المحرومين» بلا طائفية الوظيفة، وبإلغاء الطائفية السياسية.

«الشيعة لا يستطيعون طلب المساعدة من العراق بالرغم من أن أكثر شعبه من الشيعة، لأن النظام سني. ولا يستطيعون أيضاً طلب مساعدة سوريا لأن النظام علوي؛ ولتمويل منظمتهم وتسليح ميليشياتهم، توجه المسؤولون الشيعيون إلى أخوانهم في المذهب: الإيرانيين. وبما أن الإيرانيين على خلاف مع العراقيين، فقد قبلوا بترحاب إمداد «حركة المحرومين» بالسلاح والمعدات والمال»[1].

ـ «حزب الله»

أسسه سنة ١٩٨٢ الشيخ صبحي الطفيلي، وهو الآن على رأس المقاومة الوطنية في الجنوب اللبناني، وكل أعضائه من الشيعة المتعاطفين مع إيران، يُمثل السيد محمد حسين فضل الله الرئيس الروحي للحزب.

للحزب ممثليه في مجلس النواب، وأصبح له دور فعال في الحياة السياسية اللبنانية لا يُمكن تجاوزه.

إلى جانب هذه الأحزاب والحركات المهمة كان يوجد تجمعات صغيرة، مثل: «التوحيد»، «الشعب العامل» وغيرهما.

---

(١) المصدر نفسه. ص ٦٧.

II ـ ميليشيات الأحزاب السياسية

ـ «الحزب الشيوعي اللبناني»

تأسس في ٢٤ تشرين أول (أكتوبر) من العام ١٩٢٤ م. بعد لقاء بين المثقفين الوطنيين التقدميين، تحت اسم «حزب الشعب اللبناني» وكان فؤاد الشمالي أول أمين عام للحزب، ومركزه الرئيسي في بكفيا. وفي سنة ١٩٢٥ م أُحتفل لأول مرة بعيد العمال في أول أيار (مايو) في لبنان.

تم الاندماج بين حركة الشبيبة الأرمنية «سبارتاك» في الرقة بسوريا وحزب الشعب اللبناني تحت التسمية الجديدة «الحزب الشيوعي السوري» ولكن في لبنان تابع عمله العلني تحت اسم «حزب الشعب اللبناني»، وقاد المظاهرات والمطالبة بحقوق العمال مما أدى إلى اضطهاد مسؤوليه والزج بهم في السجون عدة مرات. في السنوات الأولى للحزب كان حوالى ٦٠ بالمئة من أعضائه من الأرمن و٤٠ بالمئة فقط من العرب، وذلك حسب التقرير الذي قدمه الحزب في مؤتمر الأممية السادس الذي انعقد في موسكو سنة ١٩٢٨ م.

في سنة ١٩٣٠ م أصبح أكثر أعضاء الحزب من العرب، وأصبح يعمل علانية تحت تسمية «الحزب الشيوعي السوري»، ولكن مُنذ سنة ١٩٦٦ م. أصبح هناك «حزب شيوعي لبناني» مستقل، وبالرغم من قلة أعضائه فهو من الأحزاب الناشطة ولعب دوراً مهماً في الحياة السياسية اللبنانية. وشارك في المعارك العسكرية أثناء الحرب وساند المقاومة الفلسطينية، وهو بطبيعته ضد النظام الطائفي.

يجمع في صفوفه: ٥٠ بالمئة من الشيعة، ٣٠ بالمئة من المسيحيين و٢٠ بالمئة من السنة والدروز.

ـ «الحزب القومي السوري الاجتماعي»

أسسه أستاذ اللغة الألمانية في الجامعة الأميركية أنطون سعادة سنة ١٩٣٢ م. وهو حزب علماني يدعو إلى وحدة سوريا الكبرى: (سوريا للسوريين والسوريون أمة

واحدة) ودعا إلى فصل الدين عن الدولة. حُورب هذا الحزب من قبل الكنيسة المارونية (راجع كتاب الأسقف لويس خليل «مؤامرة على الدين والوطن: الحزب السوري الاجتماعي» نُشر سنة ١٩٣٦ م.) ومن قِبَل السلطات، فحُلَّ للمرة الأولى سنة ١٩٤٩ م. بتهمة المؤامرة على أمن الدولة، وأُوقف مؤسسه أنطون سعادة وأُعدم.

اعترُف بالحزب مُجدداً سنة ١٩٥٨ م. وحُلَّ ثانية على أثر الانقلاب الفاشل سنة ١٩٦٢ م. وعاد إلى نشاطه من جديد سنة ١٩٧٠ م. وشارك في الحرب اللبنانية، وهو مُساند من قبل سوريا وليبيا[١].

- «حزب البعث العربي الاشتراكي»

أسسه ميشال عفلق، مسيحي سوري سنة ١٩٤٧ م. وشعاره: «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة» ويطرح الاشتراكية نظاماً اقتصادياً، والعلمانية نظاماً سياسياً، ويعمل لوحدة العالم العربي وفي صفوفه الكثير من عرب الشرق الأوسط وعرب المغرب العربي.

توصل الحزب إلى مركز القيادة في كل من سوريا والعراق، ولكن الخلاف بين البلدين أدى إلى انقسام الحزب إلى:

- حزب البعث العربي السوري.
- حزب البعث العربي العراقي.

ظهر أول عمل له في لبنان أثناء أحداث ١٩٥٨ م. وأصبح مُعترفاً به رسمياً مُنذ سنة ١٩٧٠.

أثناء الحرب كان هناك الكثير من التجمعات والأحزاب الصغيرة ولكن أكثرها اضمحل بعد الحرب أو ذو نشاط ضعيف لذلك لن نأتي على ذكرها...

---

(١) المصدر السابق، ص ٦٦.

III ـ الزعامات التقليدية

تتميز الحياة السياسية في لبنان بوجود ما يسمى «بالزعامات التقليدية»، كانت هذه الزعامات قبل الحرب تتحكم بالحياة السياسية اللبنانية، لدرجة أن لا شيء يُحل أو يُربط في مناطق نفوذهم بدون موافقتهم. نذكر من هذه الزعامات: الأسعد وحمادة عند الشيعة، جنبلاط وأرسلان عند الدروز، فرنجية والخازن عند الموارنة، سلام عند السنة، وفرعون عند المسيحيين... بنى هؤلاء الزعماء مكانتهم السياسية والاجتماعية أيام الإقطاع الزراعي، وتوارثوه حتى يومنا هذا، البعض منهم خسر مكانته السياسية بعد الحرب الأخيرة، خاصة الزعماء التقليديين عند الطائفة الشيعية مثل عائلتي الأسعد وحمادة. عنصر الوراثة في السياسة اللبنانية، جعل أبناء هؤلاء الزعماء يصلون إلى مراكز المسؤولية في الحكم في أعمار جد مُبكرة!

تقاسم السلطة بين هؤلاء الزعماء يتم بشيء من التفاهم الضمني، على أساس أن كل زعيم سيد في منطقته وزعيم على سكانها بصرف النظر عن انتماءاتهم الطائفية، مما أدى إلى نوع جديد من التعامل بين هؤلاء الزعماء وهو تبادل الخدمات، وهذا الأسلوب حتماً يقوي مركز كل زعيم في منطقته ويثبت استمرارية الزعامة، وسابقاً قل ما كانوا يختلفون فيما بينهم.

IV ـ الجيش اللبناني

في غياب القرار السياسي الوطني الصريح والأوامر المحددة، استطاع الجيش اللبناني البقاء على الحياد، ولكن للأسف فموقف الحياد هذا لم يدم طويلاً مع تطورات الحرب، فانقسم الجيش على نفسه ومن الداخل:

- قسم بأُمرة الضابط أحمد الخطيب «جيش لبنان العربي»، الذي ساند قوات التيار المسلم.
- قسم بقيادة هنري بركات، وساند التيار المسيحي.

ـ جيش «لبنان الحر» بقيادة سعد حداد، الذي تعامل مع «إسرائيل»، فموّلته «الدولة العبرية» مُقابل مراقبة وحماية حدودها الشمالية.

أما بقية العسكريين فمنهم من عاد إلى بيته، ومنهم من انضوى في أحزاب وحركات طائفته.

V ـ الطابور الخامس «مقاتلو الظل»

أكثر الدول المعنية بالقضية اللبنانية كان لها وجود عسكري داخل لبنان، بواسطة عملائها أو رجال مخابراتها، بما فيها الدول الأوروبية، وكانت تتدخل لإذكاء نار الحرب كلما قضت مصالحها بذلك. وإلى جانب النشاط العسكري على ساحات القتال كانت هناك حرب خفية بين الهيئات الدبلوماسية لهذه الدول، تنتهي أحياناً باغتيالات وخطف لسفراء وموظفي هذه السفارات؛ لذلك يردد اللبنانيون: المشاكل تحبل خارج لبنان ولكن الولادة دائماً في لبنان.

VI ـ (أصحاب المراجل، القبضايات، أصحاب الدكاكين، فارضو الخوات... إلخ)

أسماء كثيرة أُعطيت لهذه الفئة، التي هي موجودة في الأصل داخل المجتمع اللبناني ومعروفة بـ«القبضايات» وفي اللغة الشعبية بألقاب مختلفة، وحتى في هذا المجال كان لكل طائفة اسمها المحبب: أبو عبد البيروتي وهو سني من بيروت كما يدل إسمه، أبو علي لبناني شيعي، أبو طنوس لبناني مسيحي. قبل الحرب كانت هذه الأسماء تدل على شخصيات شعبية مُحببة، تُغذي الأدب الشعبي بالقصص والروايات والنكات... ولكن مع الحرب أصبحوا سواعد للبيع يعملون لمن يدفع أكثر، خاصة أنه ليست لديهم أفكاراً سياسية معينة، وكانت سلطتهم لا تتعدى في بعض الأحيان حدود الشارع الذي يسكنون فيه أو مجموعة منازل من حيِّهم، وبالرغم من ذلك استطاعوا أن يزرعوا الرعب والخوف في نفوس المواطنين، لأنك إن لم تستجب إلى طلباتهم، سيلحق الأذى بممتلكاتك، وتختفي سيارتك ويسرق منزلك في غيابك، وينهب ويحرق متجرك.

VII ـ المنظمات الفلسطينية

قُدِّر عدد الفلسطينيين في لبنان، مع بداية الحرب اللبنانية، بـ ٤٠٠,٠٠٠ فلسطيني، وأكثرهم كان يحمل السلاح ضد «إسرائيل» ومنضوي داخل منظمات مُختلفة:

- «منظمة التحرير الفلسطينية»

أُنشئت سنة ١٩٦٩ م. ويترأسها ياسر عرفات مُنذ ذلك الوقت، منها:

- «جيش التحرير الفلسطيني».
- «منظمة فتح»، حيث نجد:
- «جبهة التحرير الشعبية»، يرأسها جورج حبش.
- «الجبهة الديمقراطية الشعبية»، يرأسها نايف حواتمة.
- «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» القيادة العامة ويرأسها أحمد جبريل.

- «الصاعقة»

هي قوة عسكرية فلسطينية، تحت الرعاية السورية.

- «جبهة التحرير العربية»

هي قوة عسكرية تحت رعاية العراق.

اندلاع الحرب

هذا العدد الضخم من الأحزاب والمنظمات والزعماء والطوائف والعملاء. داخل هذا البلد الصغير، يُعطي فكرة عن حالة الضغط التي كانت موجودة في بداية سنة ١٩٧٥ م. ومن السهل التكهن بقرب المواجهة بين هذه الأطراف وهذا ما حصل.

أكثر الذين كتبوا عن لبنان وعن الحرب اللبنانية، حددوا بداية الحرب انطلاقاً من حادث عين الرمانة في شهر نيسان (أبريل) سنة ١٩٧٥ م. ولكن من عايش الأحداث، ويرجع قليلاً إلى الوراء يرى أن فتيل الحرب، أُشعل قبل ثلاثة أشهر أثناء أحداث مدينة صيدا التي ذهب ضحيتها النائب معروف سعد والذي كان على رأس مظاهرة احتجاج... ولكن الانفجار حصل في عين الرمانة.

الوضع المتفجر لم يكن بحاجة إلى أكثر من حادث بسيط حتى ينفجر، البعض يقول بأن الحادث بدأ على أثر إطلاق نار على كنيسة حارة حريك من عناصر مجهولة، هل قرب الكنيسة من مخيمات الفلسطينيين يكفي لاتهام هؤلاء؟ لم تُعرف هوية مُطلقي النار، وحالة الانفعال العاطفي عند الجميع طغت على التفكير الهادىء، وسكت الكلام وبدأت لغة الرصاص. وعلى أثر مرور أوتوبيس في منطقة عين الرمانة المسيحية، ينقل عناصر فلسطينية عائدة من اجتماع سياسي، بحالة حماس انفعالي هتافات وأناشيد وأعلام، صادف وجود عناصر من حزب «الكتائب» في نفس المنطقة بمناسبة اجتماعية... فاعتبروا تصرفات الفلسطينيين عمل استفزازي ضدهم، فأطلقوا النار على الأوتوبيس وقتلوا ٢٧ فلسطينياً. بعد هذه اللحظة تسارعت الأمور، فناصرت الأغلبية المسلمة والأحزاب اليسارية والتقدمية الفلسطينيين؛ وناصرت الأغلبية المسيحية وأحزاب اليمين حزب «الكتائب». طبعاً هذا الحادث على خطورته لم يكن وحده كافياً لإشعال حرب أهلية، ولكنه كان نقطة الماء التي بسببها طفح الكيل. وقد استعرضنا سابقاً بعض أسباب هذه الحرب، ولذلك لن نأتي على ذكرها مرة ثانية.

حكومة الصلح لم تستطع السيطرة على الموقف فاستقالت، وكُلف رشيد

كرامي بتأليف حكومة جديدة ولكنه بدوره لم يفلح بتهدئة الأوضاع وزادت المواقف تصلباً ووقعت الحرب.

وحتى نُعطي صورة مبسطة قدر الإمكان عن هذه الحرب المعقدة وبكلمات قليلة، سنقسم مدة السبع عشرة سنة حرب إلى أربع مراحل: أولاً المرحلة التي شغلها الفلسطينيون واللبنانيون، ثانياً مرحلة دخول سوريا، ثالثاً مرحلة التدخل الإسرائيلي وأخيراً المرحلة السورية الثانية.

I ـ المرحلة الأولى: نيسان (أبريل) ١٩٧٥ إلى أيار (مايو) ١٩٧٦ م. (مرحلة سكان الداخل):

لم تكن الحرب اللبنانية كبقية الحروب التي تقع بين جيشين أو فئتين تفصلهما جبهة حرب أو جبهات مُحددة، بل كانت كفوهة بركان يهب دون إنذار وفي أماكن مختلفة دون استطاعة أحد التكهن بها مُسبقاً، وما أن يتوقف القتال في منطقة حتى يندلع في منطقة أخرى.

كانت أكثر العمليات العسكرية لهذه المرحلة داخل العاصمة بيروت. فبعد معارك شهر نيسان، بدأ التراشق بين شقي العاصمة بمدافع الهاون والقذائف المدفعية الأخرى، وبدأ الكلام عن (بيروت الشرقية وبيروت الغربية)، في هذه المرحلة تجمعت أغلبية أحزاب اليسار تحت قيادة كمال جنبلاط، زعيم «الحزب التقدمي الاشتراكي»، لتشكل «الحركة الوطنية اللبنانية» والتي قدمت في شهر آب (أغسطس) من سنة ١٩٧٥ برنامجاً لحل المشكلة اللبنانية على أساس ديمقراطي، وإلغاء الميثاق الوطني وتعديل السلطة التشريعية والتنفيذية وخلق توازن عادل جديد بين اللبنانيين وإلغاء النظام الطائفي. طبعاً كل الفئات اللبنانية لم تكن مستعدة لتقبل هذه التعديلات وهذا التحول السريع في المجتمع والحياة السياسية اللبنانية خاصة في تلك الظروف القتالية، فاستمر القتال.

سنشير فقط إلى المحطات الرئيسية في هذه الحرب، وردات الفعل على المجتمع اللبناني بكثير من الإيجاز، وذلك كمادة للتحليل لا لكتابة التاريخ:

معركة الفنادق (تشرين ١٩٧٥ م.)

كانت المعركة المهمة الأولى بين الميليشيات المسيحية بقيادة حزب «الكتائب»، والميليشيات المسلمة وعلى رأسها «المرابطون». أثناء المعارك جرى تخريب مُنظم للفنادق والمنطقة التجارية، وكانت تُختم عمليات نهب المحلات التجارية والسكنية والفنادق بإشعال النار وحرق ما تبقى، كي تُصبح غير صالحة للاستعمال وبدون ترك أي أمل لأصحابها في العودة إليها ثانية. وللوقاية من القذائف والرصاص، كان يعمد المقاتلون إلى إنجاز خروقات في حيطان الأبنية ويستعملونها ممرات تسلل للوصول إلى خطة المواجهة. كانت المعارك ضارية القتال تجري من فندق إلى آخر ومن طابق إلى آخر في نفس الفندق ومن غرفة إلى غرفة في نفس الطابق. هذه المعارك الطاحنة خلفت بنايات وفنادق أكلتها النيران، وشوارع جعلت أرضها القذائف، ومجارير على الهواء وخراب مُفزع.

استطاعت الميليشيات المسلمة السيطرة على منطقة الفنادق (غربي مرفأ بيروت) ومنطقة السان جورج، وتراجعت الميليشيات المسيحية من كل بيروت الغربية. كانت الخسائر في الأرواح جسيمة ومن الطرفين؛ وكانت معارك الفنادق من المعارك القليلة التي فاق فيها عدد قتلى المحاربين عدد قتلى المدنيين.

ـ السبت الأسود (٦ كانون أول/ ديسمبر ١٩٧٥ م.)

في هذا التاريخ قامت الميليشيات المسيحية بحواجز «تصفية» مفاجئة، في وسط العاصمة وبالذات ساحة الشهداء (!) في هذا اليوم أصبحت الهوية اللبنانية قنبلة على بعض حامليها فجلبت لهم الموت... إن كان من الصعب التمييز بين المسلم والمسيحي شكلاً، كان من السهل جداً التعرف على طائفة اللبناني بمجرد الاطلاع على هويته، بدعة لبنانية أخرى، هي كتابة الدين والطائفة على الهوية، شئت أم أبيت (هذه هي ديمقراطية الطائفية في لبنان!).

وهكذا دفع ثمن «هذه البدعة» حوالي مائتي مسلم من حياتهم فذبحوا بكل برودة أعصاب في وسط المدينة وفي وسط النهار.

هذا اليوم الرهيب بقي في ذاكرة الناس تحت اسم «السبت الأسود» أو عند البعض بـ «سانت بارتيليمي» Saint - Barthélémy!

- **الاستيلاء على حي الكرنتينا (١٤ و١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٧٦ م.)**

استولت القوات المسيحية على هذا الحي الواقع قرب المرفأ في القسم الشرقي من العاصمة، وكان يسكن هذا الحي طبقة فقيرة من الأكراد والفلسطينيين والشيعة اللبنانيين في شبه أكواخ يرشح منها الفقر ويقدر عددهم بـ ٣٥,٠٠٠ نسمة... فشردوا وطردوا إلى القسم الغربي من المدينة، بعد أن ذهب منهم مئات القتلى.

في نفس الوقت هاجمت هذه القوات مخيماً للفلسطينيين في ضبيه قرب مدينة جونيه (في سنة ١٩٤٨ م تم توزيع هؤلاء الفلسطينيين على أساس طائفي، غالبيتهم مسيحية ولكنهم ليسوا موارنة، فقبلوا في منطقة مسيحية لبنانية!)، وأثناء الحرب أصبحوا غير مرغوب فيهم فطردوا.

- **سقوط الدامور (٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٧٦ م.)**

تحالفت القوات المسلمة مع القوات الفسلطينية وهاجمت بلدة الدامور المسيحية الواقعة على بُعد ٢٠ كلم جنوبي العاصمة بيروت، فتهم نهب المدينة وإحراق بيوتها وطرد سكانها باتجاه المنطقة الشرقية عن طريق البحر، وذهب منهم عدد كبير من الضحايا.

وتدخل الطيران اللبناني للمرة الأولى فقصف المهاجمين من قوات اليسار والفلسطينيين، مما زاد حذر المسلمين. والسؤال هو: لماذا لم يتدخل وفي نفس الظروف عند مهاجمة الكرنتينا؟

بعد أحداث السبت الأسود، الكرنتينا والدامور... تجمع اللبنانيون بشكل عام، في مناطق طغى عليها اللون الطائفي الواحد، وأصبح الكلام عن مناطق مسيحية ومناطق إسلامية، الكل أصبح يفتش عن منطقة تواجد طائفته ليلجأ إليها، فانقسمت بيروت إلى قسمين: قسم شرقي مسيحي وقسم غربي مسلم يفصل بينهما خط نار عُرف فيما بعد بالخط الأخضر لنبوت الأعشاب البرية فوق المتاريس وعلى جدران

الأبنية المحطمة وفي حفر الشوارع، وأخذ كل فريق يراشق الفريق الآخر عشوائياً بالقذائف الرشاشة والمدفعية فوق هذا الخط الفاصل، دون هدف مُعين، المهم أن تقع القذيفة في الجهة المقابلة على رؤوس المدنيين الأبرياء المذعورين، في غياب كلي للأماكن الآمنة والملاجىء التي تقيهم شر القصف العشوائي المفاجىء، فلم يعد هناك مكان آمن، ومغادرة المنزل لشراء الحاجات الضرورية أصبح مخاطرة، وكثير من هؤلاء المدنيين ماتوا على أبواب الأفران والمحلات التجارية وفي الأسواق أو في طريق عودتهم إلى بيوتهم بعد إنهاء أعمالهم. وبعد كل مرحلة هدوء يعود القصف الجنوني على أكثر ما كان عليه حدة، ويزيد عدد القتلى ويزيد الخراب في الممتلكات، وأصبح الرعب وتوازن الرعب سيد الموقف: القصف من جهة، يقابله قصف من الجهة الأخرى، الخطف يقابله خطف مُضاد. وهكذا دواليك. . . وبدأ اللبنانيون يهاجرون من بلادهم التي أصابها جنون الحرب.

استمرار الوضع السيء فتح المجال لكل الاحتمالات، وتصلبت المواقف وأخذ كل فريق ينظم صفوفه. ففي كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ نظمت القوات المسيحية نفسها تحت لواء «الجبهة اللبنانية».

في ١١ آذار (مارس) استولى الجنرال عزيز الأحدب (مسلم سني) على مبنى الإذاعة والتلفزيون، وطلب من رئيسي الجمهورية والحكومة تقديم استقالتهما. الرئيس فرنجية أبدى استعداده للاستقالة شرط أن يطلب منه ذلك ثلثي مجلس النواب، وهذا ما حصل في ١٣ آذار، ولكن وبالرغم من ذلك رفض فرنجية الاستقالة قبل نهاية ولايته؛ وفي ١٧ آذار أمر الجنرال الأحدب جنوده بالتوجه نحو القصر الجمهوري لإجبار الرئيس على الاستقالة، وكانت المفاجأة أن هبت لمساندة الرئيس فرنجية منظمة «الصاعقة» الفلسطينية (التي ترعاها سوريا). هذا ما يبدو غير منطقي لأول وهلة: الفلسطينيون يساندون الرئيس الماروني! والواقع أن الرئيس فرنجية هو حليف وصديق لسوريا ولا عجب في هذه المساندة.

غياب السلطة جعل الوضع يتدهور إلى أعلى درجات الخطورة، فبدأت الحركة الوطنية هجومها على «القوات اللبنانية»، التي خسرت منطقة الشوف المتن، عاليه

فتراجعت إلى وسط لبنان. وأمام القصف المركز على القصر الجمهوري غادر الرئيس فرنجية القصر إلى جونيه، وطلبت «الكتائب» من جميع المسيحيين التأهب والتسلح العام لأن الوضع أصبح خطيراً للغاية، فقد طردوا من المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي طريق بيروت ـ دمشق، وبدأ الكلام عن «réduit chrétien» المنطقة المسيحية الصغيرة المحاصرة.

أمام هذا الوضع طلب الرئيس فرنجية من سوريا التدخل لحل المشكلة اللبنانية، وفي ١٢ نيسان (أبريل) ١٩٧٦ م. أعلن الرئيس حافظ الأسد استعداد القوات السورية التوجه إلى لبنان كي تدافع عن كل المظلومين بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية. ولقد كانت سوريا دائماً على علاقة طيبة مع الرئيس فرنجية، وتلاقى هذا الطلب مع رغبة سوريا أن تظهر كقوة عسكرية كبيرة في المنطقة، وأن تكون أيضاً قوة سياسية لا يمكن التغاضي عنها في الصراع الدائر في الشرق الأوسط. ولذلك عليها التأثير على القوة الفلسطينية الصاعدة، كما أنه ليس من مصلحة سوريا أن تترك الحرب في لبنان تتفاعل لتنتهي بخلق دويلة مارونية تصبح حتماً حليفة لـ «إسرائيل».

كانت سوريا هي الدولة العربية الوحيدة القادرة على التدخل المباشر في الحرب اللبنانية، وكل الظروف مؤاتية لهذا التدخل:

- الموارنة في وضع عسكري سيء للغاية، والتدخل السوري سيكون بمثابة خشبة النجاة.

- وضع سوريا الجغرافي يسمح لها بالسيطرة على خطوط إمدادات الحركة الوطنية والمنظمات الفلسطينية.

- فلسطينيي «الصاعقة» يدينون لها بالولاء.

- المسلمون في البداية كانوا غير راضين عن هذا التدخل، الذي كانوا يعتبرونه لصالح المسيحيين، ولكنهم انتهوا باعتباره ضروري لإحلال السلام في لبنان، كما أن فكرة الوحدة العربية والشعور القومي العربي لا يزال حياً عند بعض المسلمين والقوميين العرب ولذلك لا ينظرون إلى السوري كأجنبي.

وطبعاً سوريا تعرف كل هذه العوامل لذلك أعلنت استعدادها ـ التدخل لإعادة الأمن على الأراضي اللبنانية، شرط أن يطلب منها ذلك جميع الفرقاء.

الزعماء المسيحيون كانوا أول من رحب بهذه المبادرة، ابتداءً برئيس الجمهورية الذي أعلن: «الموقف السوري هو موقف شجاع»، بيار الجميل أعلن بدوره في جريدة الحزب «العمل»: «قرار الرئيس حافظ الأسد هو موقف تاريخي، واضح ومُخلص...» وفي ١٥ نيسان ركزت جريدة «العمل» على أهمية متابعة المبادرة السورية في لبنان «والكتائب» عملت كل ما في وسعها لإنجاح هذه المبادرة، الرئيس شمعون أعلن هو الآخر بدوره فقال: «المبادرة السورية هي ضرورية في الوقت الحاضر لإعادة الهدوء والسلام على أرضنا». ردات الفعل العربية على هذه المبادرة كانت مُختلفة، ففي حين أن مصر والعراق لم تشجعا المبادرة، أكد الأردن بلسان الملك حسين أثناء زيارته لواشنطن: «فقط التدخل العسكري السوري قادر على إعادة السلام في لبنان» كما أن «إسرائيل» أكدت عدم تدخلها شرط أن يبقى التواجد العسكري السوري شمالي (الخط الأحمر) نهر الليطاني.

موقف الدول الكبرى كذلك كان مختلفاً ففي حين عارضت روسيا هذه المبادرة، حافظت فرنسا على موقف الصمت بينما أميركا أعطت موافقتها.

أمام كل هذه المواقف المشجعة والظروف المؤاتية، لم تتوانَ سوريا عن لعب دورها كقوة إقليمية في المنطقة، خاصة أن هذا التدخل بنظر بعض العقائديين هو واجب قومي.

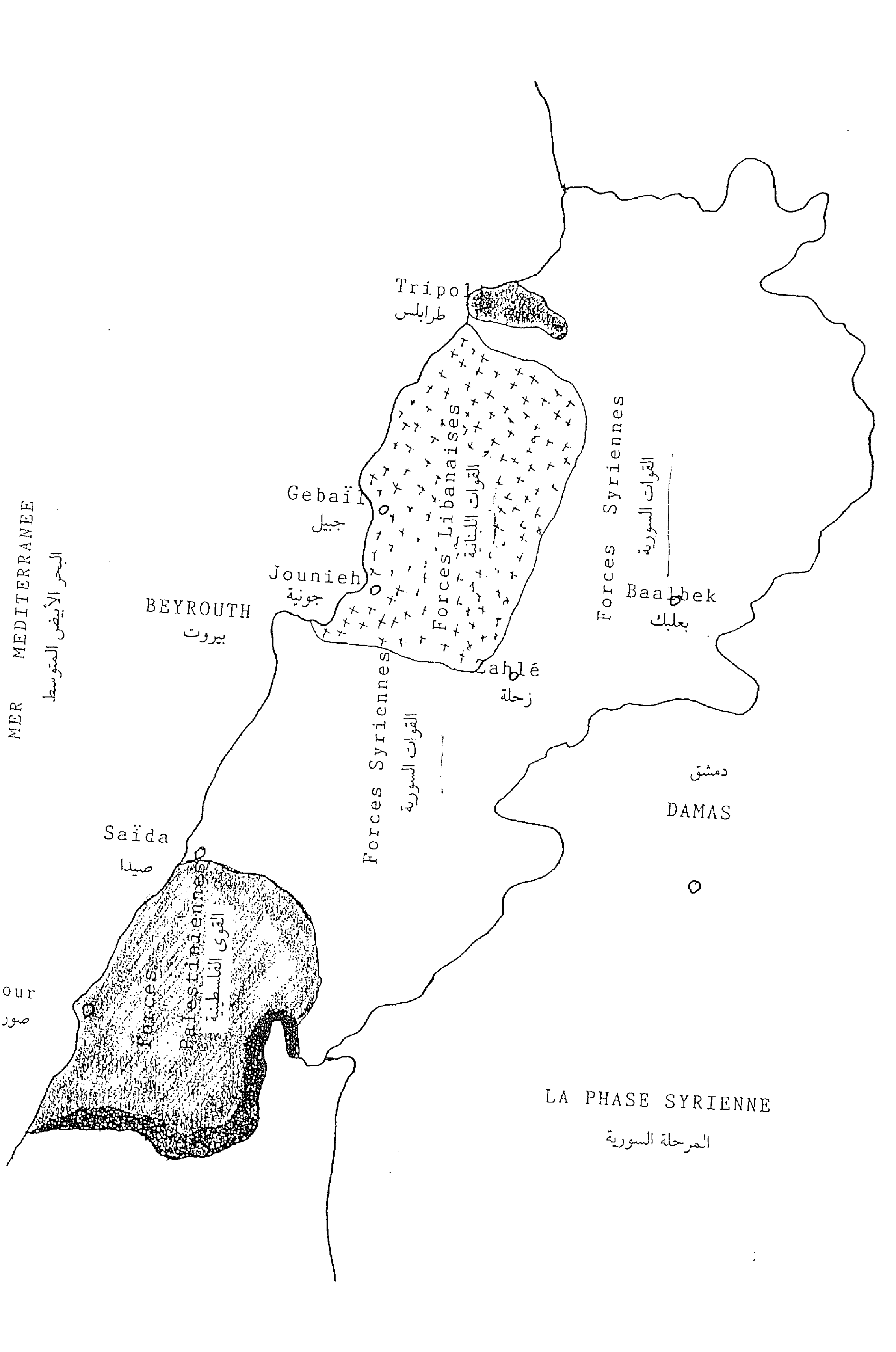
II ـ المرحلة الثانية أو المرحلة السورية

انتخب الياس سركيس المدير السابق للبنك المركزي رئيساً للجمهورية خلفاً للرئيس فرنجية، وتولى مهام الرئاسة مُنذ ٨ أيار (مايو) ١٩٧٦ م. ولكنه هو الآخر عجز عن إعادة الأمن والسلام الأهلي إلى لبنان.

في ٣١ أيار والأول من حزيران (يونيو) سنة ١٩٧٦ م. دخلت طلائع الجيش السوري الأراضي اللبنانية، فتوجه قسم من هذا الجيش نحو العاصمة بيروت عن طريق

ضهر البيدر، والقسم الآخر توجه نحو مدينة صيدا على بعد ٥٠ كلم جنوبي بيروت. حاولت الحركة الوطنية مع بعض الفلسطينيين عرقلة دخول القوات السورية، فحصلت بعض الاشتباكات في منطقة بحمدون وعلى مدخل مدينة صيدا ولكن حُسمت بسرعة لصالح الجيش السوري، وهكذا تمت السيطرة على طريق الإمدادات الفلسطينية والحركة الوطنية وانتشر الجيش السوري في لبنان دون دخول مناطق «القوات اللبنانية» ودون تخطي نهر الليطاني جنوباً.

دخول القوات السورية رفع الضغط عن «القوات اللبنانية»، فنشطت من جديد وأخذت زمام المبادرة في المنطقة الشرقية فهاجمت في ٨ حزيران (يونيو) سنة ١٩٧٦ م. حي النبعة واستولت عليه، وطردت سكانه وهم من الشيعة باتجاه بيروت الغربية حيث جاء أكثرهم ليسكن في الضاحية الجنوبية، حتى هذا الوقت سكان الضاحية الجنوبية كانوا خليطاً من مسيحيين ومسلمين يعيشون بأمان في منازل تفصل بينها بساتين الليمون، ولكن خوفاً من ردات الفعل غير المنضبطة غادر السكان المسيحيون الضاحية الجنوبية إلى منطقة بيروت الشرقية، وحل مكانهم مهجري حي النبعة ومهجري الجنوب، وأمام الطلب الزائد على بيوت السكن شهدت الضاحية حركة عمرانية لم تعرفها من قبل، ولكن للأسف بشكل فوضوي وبدون احترام لأبسط قواعد التجمعات السكنية، لا حدائق ولا مساحات عامة. وهكذا وفي غضون سنوات قليلة تحولت بساتين الليمون إلى غابة من الباطون المسلَّح، وازدحمت بالسكان الفقراء فتحولت الضاحية الجنوبية الجميلة إلى حي «المحرومين» وأصبحت بُكلة حزام البؤس الذي يلف العاصمة. وهكذا حولت الحرب الكافرة جنة عدن إلى جهنم مُحرقة.



LA PHASE SYRIENNE

المرحلة السورية

سقوط مخيم تل الزعتر

يقع مُخيم اللاجئين الفلسطينيين هذا على طريق المتن داخل المنطقة الشرقية، وتعرّض في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٧٦ م إلى قصف شديد. وفي ١٢ آب (أغسطس) وبعد ٧٠ هجوماً سقط المخيم بين أيدي «القوات اللبنانية»، ٢,٥٠٠ فلسطيني سقطوا قتلى في هذه المعارك و٨٠٠ مقاتل مسيحي لقوا حتفهم أثناء القتال.

سقوط تل الزعتر إلى جانب الخسائر البشرية الكثيرة كان ضربة موجعة لـ «منظمة التحرير الفلسطينية»، ونصراً بالنسبة لـ «القوات اللبنانية»، وبعد القضاء على آخر معقل لليسار داخل المنطقة الشرقية بدأ الكلام عن التقسيم وعن «المنطقة المحررة» وعن «المنطقة المارونية» Marounistan؛ بالرغم من أن المنطقة المعنية لا تعادل أكثر من ١٨ بالمئة من مساحة لبنان، لأن الشمال وإن يسكنه الموارنة فهو لا يتبع نفس السياسة.

قوات الردع العربية

المنحى الذي أخذته الأحداث لم يكن مرغوباً فيه من بعض الدول العربية، كما أن التقارب السوري ـ الماروني لم يكن مرغوباً فيه من قبل قوات الحركة الوطنية والفلسطينيين، فنشأت فكرة (تعريب) المشكلة اللبنانية.

اجتمعت كل من المملكة العربية السعودية، مصر، الكويت، لبنان، سوريا و«منظمة التحرير الفلسطينية» في الرياض للتفاهم على حل للمشكلة اللبنانية، الذي تمت الموافقة عليه نهائياً في اجتماع القاهرة الموسع في ٢٥ تشرين أول (أكتوبر) سنة ١٩٧٦ م. والذي يقول:

- وقف إطلاق النار مباشرةً.
- إنشاء قوات ردع عربية مؤلفة من ٣٠,٠٠٠ جندي مهمتها إعادة السلام والأمن.
- إعادة العمل باتفاق القاهرة المعقود سنة ١٩٦٩ م بين لبنان والفلسطينيين، وخاصة بما يتعلق بمنطقة عمليات «فتح» العسكرية Fatahland.

- التأكيد على وحدة وسيادة لبنان الوطنية.

- الاعتراف بـ «منظمة التحرير الفلسطينية» كممثل وحيد للشعب الفلسطيني.

وكان السؤال: هل السلطة السورية في لبنان ستضعف بعد هذه القرارات؟ الجواب: لا. لأن سوريا أظهرت حنكة سياسية كانت نتيجتها أن عماد قوات الردع العربية كان الجيش السوري بحيث يؤلف الأكثرية المطلقة ٢٥,٠٠٠ جندي سوري مقابل ٥,٠٠٠ جندي موزعين بين السودان، ليبيا، اليمن والإمارات العربية المتحدة، والتمويل كان من الإمارات والمملكة العربية السعودية.

انتشرت قوات الردع العربية في بيروت وبعض المناطق اللبنانية، وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٦ م. تم تأليف حكومة تكنوقراطية لا سياسية برئاسة سليم الحص. ولكن «الجبهة اللبنانية» رفضت التعامل مع هذه الحكومة، وتعاونت مع «إسرائيل» ورفعت شعار تقسيم لبنان.

هذا الموقف لـ «القوات اللبنانية» المعادي للسياسة العربية، وخاصة التعامل مع «إسرائيل»، لم يكن من الممكن أن ترضى عنه دمشق، فتبدلت المواقف: التباعد بين سوريا «والقوات اللبنانية» قابله تقارب مع «منظمة التحرير الفلسطينية».

هذه الفترة كانت غنية بالأحداث منها:

انسحاب قوات الردع العربية، ولم يبقَ في لبنان سوى القوات السورية، وفي ١٦ آذار (مارس) سنة ١٩٧٧ م اغتيل رئيس «الحركة الوطنية» كمال جنبلاط، مما زاد المشكلة اللبنانية تعقيداً والوضع تدهوراً.

في تشرين الثاني (نوفمبر) من نفس السنة قام الرئيس المصري أنور السادات بزيارته التاريخية إلى «إسرائيل»، فأحدثت زيارته زلزالاً سياسياً في العالم العربي ارتجت له منطقة الشرق الأوسط وكان دويها الأقوى طبعاً في لبنان. هذا ما دفع بعض الدول العربية الرافضة لسياسة السادات للتجمع سياسياً «دول الطوق» في جبهة رافضة لهذا الشكل من الصلح مع «إسرائيل» ورافضة لكل محادثات منفصلة مباشرة مع العدو «الإسرائيلي» ومن هذه الدول: الجزائر، ليبيا، اليمن الجنوبية و«جبهة التحرير

الفلسطينية»، هذا مما زاد التقارب بين سوريا و«جبهة التحرير الفلسطينية»، والقوى الوطنية اللبنانية.

نلاحظ أن خلال سنة تسارعت الأحداث فتغيرت المواقف والتحالفات، وأصبحت الساحة اللبنانية مرآة تنعكس عليها أحداث المنطقة والأحداث الدولية، وغاب الحديث عن المطالب الاجتماعية الحياتية والأمور السياسية الداخلية، وأصبحت اللعبة أكبر من لاعبيها، وأصبح اللبنانيون حجارة شطرنج بين أيدي اللاعبين الكبار.

شهدت بداية سنة ١٩٧٨ م. تزايد الاعتداءات العسكرية «الإسرائيلية» على جنوب لبنان وضراوة الرد على العمليات الفدائية، وعلى أثر عملية فدائية حصلت في ١٧ آذار (مارس) داخل «إسرائيل» في مدينة تل أبيب، أغار الجيش «الإسرائيلي» على جنوب لبنان باعتداء وحشي موسع لم يسبق له مثيل، ثلاثون ألف جندي «إسرائيلي» بمدافعهم ودباباتهم تساندهم البوارج البحرية والطيران الحربي، دخلوا لبنان في عملية تمشيط وتصفية للمقاومة الفلسطينية، دون أي مراعاة لسكان الجنوب اللبناني، فأحرقوا القرى الشيعية وهجَّروا أهلها باتجاه العاصمة بيروت بعد أن خسروا كل شيء، وتابع الجيش «الإسرائيلي» تقدمه باتجاه نهر الليطاني، وأعلن رئيس وزراء «إسرائيل» مناحيم بيغن أن الجيش (تساهال) سيبقى في لبنان حتى الحصول على ضمانات كافية بضبط نشاط الفلسطينيين العسكري. وأمام خطورة الوضع اجتمع مجلس الأمن وطلب من «إسرائيل» سحب قواتها من لبنان، وأكد على وحدة الأراضي اللبنانية وعلى سيادة لبنان عليها، وقرر إرسال قوات طوارىء دولية FINUL وهذا ما قبلت به الحكومة اللبنانية مباشرة.

في شهر نيسان (أبريل) ١٩٧٨ م رحلت القوات «الإسرائيلية» جزئياً عن لبنان، واحتفظت بمنطقة عرضها الوسطي ١٠ كلم^{2} من أرض الجنوب اللبناني وعلى امتداد الحدود، وكلفت الجنرال سعد حداد، (التي كانت «الدولة العبرية» تموله وتجهزه وتدرب عناصره، والذي حكم عليه بالخيانة العظمى من قبل الحكومة اللبنانية) بمراقبة هذه المنطقة، وأعطيت هذه المنطقة اسم «لبنان الحر».

تفاعل تدهور العلاقات بين سوريا «والقوات اللبنانية» وأدى إلى تراشق مدفعي بينهما، وإلى قصف كثيف ومركز للمنطقة الشرقية، فانقسمت الطائفة المارونية إلى قسم مؤيد للسياسة السورية في لبنان وإلى قسم آخر معارض. في ١١ أيار (مايو) ١٩٧٨ قطع الرئيس فرنجية علاقاته مع الجبهة اللبنانية وانضم إلى سوريا. وفي ١٣ حزيران (يونيو) قام أخصام فرنجيه «الكتائبيون» بمهاجمة معقله زغرتا وقتلوا ابنه طوني مع زوجته وابنتهما وقتلوا حوالي ثلاثين عنصراً من أنصاره... وبدأت المواجهة بين فئتين وانقسمت الطائفة المارونية على نفسها.

بعد هذه المرحلة، زاد تعاون «القوات اللبنانية» مع «إسرائيل» وبشكل مكشوف، وتمت لقاءات بين بشير الجميل ودوري شمعون مع الجنرال عازر وايزمان وزير الدفاع «الإسرائيلي»، هذه اللقاءات التي لم تعد سرية على أحد، واعترف بها مناحيم بيغن بدوره لاحقاً، فتكلم عن استقبال وفد لبناني في شهر آب (أغسطس) ١٩٧٨ م. (بعد هذه اللقاءات بدأنا نشاهد دبابات شيرمان عند «الكتائب»، وظهور المدربين الإسرائيليين وتفريغ المعدات والذخيرة ليلاً...)[١].

بعد القتال بين الجيش السوري «والقوات اللبنانية»، طلب مجلس الأمن وقف القتال وبدء المحادثات. وتم بين ١٥ و١٧ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٧٨ اجتماع في بيت الدين، طالب بضرورة الحفاظ على وحدة لبنان وعلى السيادة اللبنانية. ولكن بقيت مجرد تمنيات واستمر القتال واستمرت المناوشات تقطّعتها هدنات.

في تموز (يوليو) ١٩٨٠ أعلنت «الكتائب» توحيد كل القوى المسيحية تحت لوائها. أصبح شفيق الوزان رئيساً للوزراء. وها هي خمس سنوات حرب دون أي بصيص أمل بحل قريب للمشكلة اللبنانية.

معركة زحلة (نيسان ١٩٨١ م.)

زحلة هي إحدى المدن الداخلية اللبنانية تقع على منحدر جبل لبنان الشرقي

---

(١) Jean Pierre et Patrick Bourra «le Liban». pp. 15.

وتمتد إلى سهل البقاع، أغلبية سكانها من طائفة الروم الكاثوليك، موقعها الستراتيجي جعلها هدفاً عسكرياً. فهي تقع على تقاطع طريق بيروت ـ دمشق وبيروت ـ حمص، وهي حيوية بالنسبة للجيش السوري إذ تقع على خط إمداداته الطبيعي.

في شهر نيسان (أبريل) ١٩٨١ م. احتلت قوات «الكتائب» المدينة وبدأت بشق طريق عسكري استراتيجي لربط المدينة بمنطقة كسروان معقل الموارنة، وأمام هذا الخطر دخل الجيش السوري المعركة ضد «الكتائب» في زحلة وجبل صنين، فتدخلت «إسرائيل» لنجدة «الكتائب»، وجرت معارك جوية بين كل من سوريا و«إسرائيل»، نصَّبت على أثرها سوريا صواريخ سام في سهل البقاع، فهددت «إسرائيل» بقصف هذه الصواريخ ولكنها لم تفعل بل تابعت قصفها للفلسطينيين وقوات «الحركة الوطنية»، وألحق القصف «الإسرائيلي» البحري والجوي والأرضي أضراراً جسيمة في الأرواح وكالعادة ذهب ضحيتها الشعب اللبناني... أكثر من مئتي قتيل و٧٠٠ جريح في الأحياء الشعبية في بيروت... وأخيراً تحرك الشعور الأميركي فأرسلت أميركا مبعوثها فيليب حبيب، وهو من أصل لبناني لفرض وقف إطلاق النار الذي عُمل به في ٢٤ تموز (يوليو).

إلى جانب هذه المحطات المهمة في الحرب اللبنانية والتقاتل بين الطوائف والأحزاب والجيوش، حصل مع مرور الوقت وبعد أن طالت الحرب، تقاتل بين أبناء الطائفة الواحدة، فكما حصل عند الموارنة حصل عند بقية الطوائف، وأغلب الأحيان كان التقاتل نتيجة صراع خفي على القيادة أو خلاف بين «أمراء الحرب» أو حصيلة مزاحمة بين الزعماء التقليديين وزعماء الحرب الجدد. القتال داخل كل طائفة كانت نتيجته أن أوصل الحرب إلى آخر حدودها، وكثيراً ما كان يسبب أضراراً تفوق الأضرار التي سببها القصف المعادي، لأن القتال كان يحصل داخل المنطقة الواحدة وحتى بين الأخوة من نفس البيت... هذا القتال انتهى بأن أفرغ المقاتلين من قدراتهم وأنهك قواهم ولم يعد عندهم الرغبة في القتال ولا الإمكانيات، وخفت المعارك لقلة الراغبين في القتال، ولكن قبل الوصول إلى هذه المرحلة كم من آلام ودموع وعذاب للمواطنين الذين أصبحوا غير قادرين أن يستوعبوا كل هذه التحالفات التي تتغير في كل لحظة،

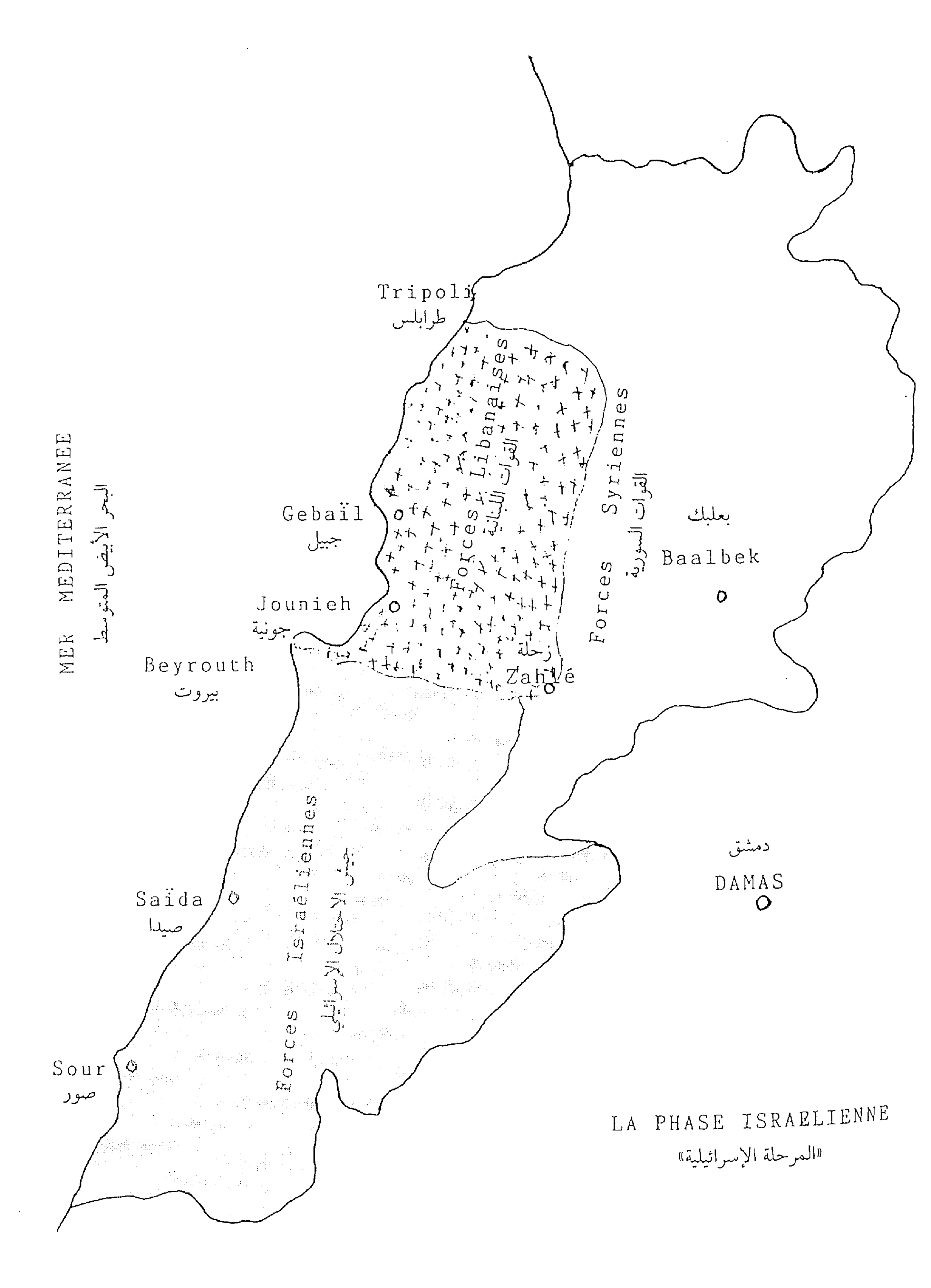
فعدوّ الأمس يصبح صديق اليوم والعكس صحيح. . . وأكثر الأحيان لا يعرفون من أين تأتيهم القذائف ومن يقذفها.

III ـ المرحلة الثالثة أو المرحلة «الإسرائيلية»

قبل أن نكتب عن الاجتياح «الإسرائيلي» للبنان، يجب أن نذكر أنه على أثر قصف «إسرائيل» للمخيمات الفلسطينية في لبنان، قام رجال المقاومة الفلسطينية برشق شمالي «إسرائيل» بقذائف الكاتيوشا، فوقع ثمانية قتلى «إسرائيليين» من سكان الجليل الأعلى، فاغتنمت الفرصة «إسرائيل» وعللت رسمياً اجتياحها للبنان بأنه للمحافظة على أمن منطقتها الشمالية.

الرد «الإسرائيلي» على العمليات العسكرية الفلسطينية كان عنيفاً للغاية ووحشياً، وأدى القصف المتواصل للمخيمات الفلسطينية طوال أسبوع إلى مقتل ٥٠٠ فلسطيني وأكثر من ١٠٠٠ جريح. إصابة الجليل الأعلى بقذائف الكاتيوشا الفلسطينية، جعل الرعب يدب في قلوب «الإسرائيليين» فأخلوا الجليل وفرغت القرى من أكثر سكانها، واستغل بيغن الوضع بأن زاد من أهمية الخطر على شمالي «إسرائيل» وذلك ليبرر اجتياحه للبنان، فأظهر الفلسطينيين بأنهم مخربين لا رحمة عندهم ولا شفقة، والآن يهددون الجليل وغداً سيهددون باقي «إسرائيل» فوجب القضاء عليهم. الواقع كل هذا المخطط وهذه الدعاية كانت فقط للتحضير النفسي وقبول العالم باجتياح لبنان بحجة تأديب الفلسطينيين، والواقع أن ما أرادته «إسرائيل» هو القضاء على الثورة الفلسطينية، وتحول الاسم الجميل «سلام الجليل Paix en Galilée» إلى حرب صليبية ضد الفلسطينيين وسكان لبنان الجنوبي.

للقيام بعملية عسكرية من هذا النوع، استطاع بيغن الحصول على موافقة «حزب الليكود»، ومباركة الجنرال آرييل شارون وزير الدفاع «الإسرائيلي» وموافقة قسم من الشعب «الإسرائيلي». هذا داخلياً، أما عالمياً فلا خوف على الموقف الأميركي، فهو دائماً موافق على المواقف «الإسرائيلية» خاصة بوجود الجنرال هيق Haig المؤيد المطلق لـ «إسرائيل»، أما الموقف الروسي فكان مجرد احتجاج شكلي ولم يؤثر على مجرى الأحداث. هذا بالنسبة للقوتين العالميتين، أما بالنسبة للدول الأوروبية فلا وزن



Tripoli
طرابلس
Forces Libanaises
القوات اللبنانية
Forces Syriennes
القوات السورية
MER MEDITERRANEE
البحر الأبيض المتوسط
Gebaïl
جبيل
Baalbek
بعلبك
Jounieh
جونية
Beyrouth
بيروت
Zahlé
زحلة
دمشق
DAMAS
Saïda
صيدا
Forces Israëliennes
جيش الاحتلال الإسرائيلي
Sour
صور
LA PHASE ISRAELIENNE
«المرحلة الإسرائيلية»

لها ولا تأثير لتصريحاتها. . . وأما موقف الدول العربية فلم يعد يخيف «إسرائيل» لبس فقط لتفوقها العسكري، بل لأنها استطاعت أن تبعد أكبر قوة عربية عن ساحة الصراع، ولا حرب ممكنة بدونها؛ لقد أمنت «إسرائيل» الجانب المصري بعقد معاهدة سلام منفردة وإرضائه بإعادة سيناء.

ومن يدري أنه لم يكن هناك من يرغب بتحجيم الضيوف الفلسطينيين الذين أصبحوا مزعجين لبعض الدول المضيفة، فكان الصمت سيد الموقف؟

«إسرائيل» قوية بكل هذه المواقف، فبدأت اجتياح لبنان بقصف مدفعي غزير قل نظيره في ٦ حزيران (يونيو) من سنة ١٩٨٢ م. مع قصف جوي وبحري للجنوب اللبناني، وتهجير شيعة الجنوب من جديد بنفس الشروط المأساوية نساء وأطفالاً وعُجز في عيونهم الغضب وفي قلوبهم الحقد. . . تلاحقهم قذائف البوارج «الإسرائيلية» طوال الطريق البحرية المؤدية إلى بيروت. اشترك ٦٠,٠٠٠ جندي «إسرائيلي» في أكبر اجتياح لدولة عربية مستقلة عضو في الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى، زرعوا الخراب في الممتلكات وأزهقوا الأرواح دون أن يتحرك الضمير العالمي والمنظمات الإنسانية، ويرفعوا شعار حق التدخل الإنساني. . . حتى القوات الدولية لم تقم بواجبها، فقط النرويجيين حاولوا منع تقدم القوات «الإسرائيلية» فدفعوا ثمن هذه المحاولة قتيلاً منهم فتوقفوا عن المقاومة، والفرقة النبالية استطاعت أن تحافظ على مواقعها، ومر الجيش «الإسرائيلي» خارج نطاق عملياتها وذلك بعد مفاوضات مع «إسرائيل»؛ وبعد الانتهاء من هذه المعاملات الشكلية على الحدود مع القوات الدولية، أصبحت طريق لبنان مفتوحة للجيش «الإسرائيلي».

استولى الجيش «الإسرائيلي» على قلعة الشقيف وعلى مدن الجنوب الواحدة بعد الأخرى، النبطية، صور، حاصبيا. . . وتقدم الجيش «الإسرائيلي» باتجاه العاصمة مروراً بمنطقة الشوف دون أن يلقى أي مقاومة. وفي ٩ و١٠ حزيران وصل «الإسرائيليون» منطقة خلدة حيث تصدت لهم «حركة أمل» والقوات الفلسطينية. (٢٠٠٠ قتيل و٧٠٠٠ فلسطيني أسير والبقية محاصرة داخل بيروت الغربية). في ١٣ حزيران بدأ «الإسرائيليون» قصف بيروت الغربية، واستقبل الموارنة الجيش «الإسرائيلي» في بعبدا

وبيروت الشرقية استقبال الفاتحين، وبيروت الغربية مُحاصرة كلياً. . . !

وقعت معارك قصيرة ولكن عنيفة، بين الجيش السوري والجيش «الإسرائيلي»، انتهت بالموافقة على وقف إطلاق النار في ١١ حزيران.

وصول القوات «الإسرائيلية» ودخولها أول عاصمة عربية موجودة تحت حماية قوات عربية، حدثٌ تاريخي كبير، وبالرغم من ذلك ردة الفعل العالمية كانت جد خجولة، وجود الجيش السوري داخل بيروت الغربية وتقدم الجيش «الإسرائيلي» أدى إلى اشتباكات محدودة بين القوتين، الاشتباك الأول حصل بين ٧ و١٠ حزيران، واشتباك آخر محدود في ٢٤ تموز (يوليو) وآخر في آب (أغسطس) ثم في شهر أيلول/سبتمبر. خسرت «إسرائيل» في هذه المواجهة ين ٥٠ و١٠٠ دبابة، طائرتين وطائرتي هوليكوبتر، وخسرت سوريا ٨٨ طائرة، ٦ هوليكوبتر، وبين ١١٦ و٤٠٠ دبابة ـ حسب المصادر ـ ومنصات الصواريخ في البقاع. المعركة التي خسرتها سوريا ليست بمعركة فاصلة عسكرياً، لأن دمشق رفضت المزايدة العسكرية ولم ترمِ في المعركة أكثر من ١٥ بالمئة من قوتها. ولكن كان لها أهمية معنوية: لأن قوات الردع العربية .F.D.A لم تكمل مهمتها، وأظهرت أنها غير مستعدة لإتمام المهمة أمام الجيش «الإسرائيلي»[١].

«بيروت الغربية كان تعدادها من ٤٠٠,٠٠٠ إلى ٥٠٠,٠٠٠ نسمة بينهم بين ١٥,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠ مقاتل: من ١٠,٠٠٠ إلى ١٢,٠٠٠ فدائي، ٢,٥٠٠ مقاتل من الحركة الوطنية، ١,٥٠٠ شيعي من «حركة أمل»، ٢,٠٠٠ جندي سوري. هؤلاء المقاتلون تحصنوا جيداً ومعنوياتهم كانت عالية»[٢].

«إسرائيل» كانت تعرف جيداً أن أي هجوم للسيطرة على بيروت الغربية سيكلفها غالياً بالأرواح والمعدات وهي ليست مستعدة لدفع الثمن، لذلك أفرغت حقدها قنابل أمطرت بها بيروت الغربية مستعملةً لذلك أفضل ما توصل إليه السلاح الغربي وعلى

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٠.

رأسه الأميركي، الذي أظهر وفي عدة مناسبات سابقة أنه يفوق وبكثير تقنية وفعالية السلاح الروسي، فاستعملت القنابل العنقودية والفسفورية الحارقة والقنابل المسماة بالذكية أي محددة المهمة، قصف مركز على بعض النقاط وعشوائي على الجميع فأصابت هذه القنابل المراكز التجارية والأسواق والمستشفيات ومراكز التموين والأفران. وقطعت «إسرائيل» المياه والكهرباء والإمدادات الغذائية عن السكان. وحسب مصادر «اليونيسف» .U.N.I.C.E.F.K فقد تم إحصاء ٢٩,٥٠٦ بين قتيل وجريح، بينهم ١١٨٠٠ طفل و٨٦٨ امرأة، و١١٠٠ مقاتل و٢٩٩٤ جريح مصابون بحروق خطيرة من جراء القنابل الفسفورية. حاولت «إسرائيل» تحويل بيروت الغربية إلى جحيم لا يطاق لتحطيم معنويات وإرادة المقاومين ففشلت. وأخيراً وأمام الهمجية «الإسرائيلية» تحرك الضمير الأميركي وضغط رونالد ريغن على مناحيم بيغن بقبول مقترحات المبعوث الأميركي فيليب حبيب التي تقول بأن يطلب لبنان بشكل رسمي قوة فصل دولية مؤلفة من قوات فرنسية، إيطالية وأميركية تحضر إلى العاصمة بيروت، لتشرف على مغادرة المقاتلين الفلسطينيين لبنان مع أسلحتهم الخفيفة إلى سوريا وباقي الدول العربية.

وبدأت عملية خروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت، مع قدوم القوات الفرنسية في ٢١ آب، وانتهت مع مغادرة عرفات لبنان إلى اليونان في ٣ أيلول (غادر بيروت ١٥,٦٠٠ مقاتل) وبعد انتهاء مهمتها غادرت قوات الفصل هذه لبنان (الأميركيون في ١٠ أيلول والإيطاليون في ١١ أيلول والفرنسيون في ١٣ أيلول).

بيغن لم يستطع القضاء على الفلسطينيين ولكنه استطاع إبعادهم عن حدوده، وبالنسبة له فقد حققت عملية «سلام الجليل» أهدافها.

بشير الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية

انتهت ولاية الرئيس الياس سركيس في أيلول سنة ١٩٨٢ م. دون أن يستطيع عمل أي شيء لبلاده.

والسؤال المطروح من هو الرئيس القادم؟ الجميع يعلم ضرورة اختيار رئيس

قوي لهذه المرحلة الصعبة، الرجل الماروني القوي في ذاك الوقت هو بشير الجميل الذي أظهر رغبته في الرئاسة وقدم ترشيحه في ٢٧ أيلول، فهل سيحصل على قبول المسلمين لترشيحه بالرغم من كونه رئيساً لـ «الجبهة اللبنانية»؟ وبالرغم مما حصل بين «الكتائب» والمسلمين، وبالرغم من تعامله مع «إسرائيل»؟ أسئلة كثيرة كان الجواب عليها رهن الظروف الآنية، النواب ليس لهم لا حرية القرار ولا حرية الحركة، بشير الجميل يعرف كل هذه الظروف وهذه العوامل، لذلك بدأ بتغيير مواقفه السياسية وأخذ يتصرف كرئيس مُقبل للجمهورية اللبنانية، فمد يد التعاون إلى الفعاليات المسلمة في البلاد، وجال يطلب موافقة الدول العربية فزار العربية السعودية، وأعلن بأن على القوات «الإسرائيلية» والسورية مغادرة لبنان. ورغم كل الليونة في المواقف لم يحصل على إجماع حول شخصه، ولكن وضع البلاد كان في حالة لم تسمح لمعارضيه من النواب إظهار معارضتهم والكثير منهم لزم الصمت.

في ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٨٢ م. انتخب بشير الجميل رئيساً للجمهورية في ظروف خاصة: «الإسرائيليون» في بيروت ومن جهة أخرى، عين مكان الانتخاب في ثكنة الفياضية وهي تحت السيطرة «الإسرائيلية»، وكي يستطيع النواب الوصول إلى مكان الاجتماع وجب الطلب من «الإسرائيليين» أن يتفضلوا ويتراجعوا بعض مئات الأمتار عن ثكنة الفياضية، فتراجعوا قليلاً ولكن الضغط النفسي على الحاضرين لم يتراجع.

غريب قدر بشير الجميل، في ١٤ أيلول (سبتمبر) وقبل أن يبدأ مهامه كرئيس للجمهورية مات تحت أنقاض البناية المركزية لحزب «الكتائب اللبنانية». ومات معه ٢٠ شخصاً وأصيب حوالي ٦٠ شخصاً بجروح.

مجازر صبرا وشاتيلا (١٦ ـ ١٨ أيلول ١٩٨٢ م.)

بعد أن غادر المقاتلون الفلسطينيون لبنان أصبحت مخيماتهم بدون دفاع ولا حماية، وبقي في داخلها جماعات مُحطمة نفسياً لا تزال تحت صدمة رحيل أبنائها المقاتلين الذين تركوا وراءهم النساء والأطفال والعجز، وبحجة ضبط الوضع الأمني بعد اغتيال بشير الجميل دخل «الإسرائيليون» بيروت الغربية، وأخذوا مواقع لهم فوق

التلال المحيطة بمخيم صبرا وشاتيلا. وأوكلوا إلى قوات «الكتائب» مهمة مراقبة وضبط سكان المخيم (وكأن هؤلاء الفلسطينيين المحطمين نفسياً والمجردين من السلاح قادرين على القيام بعمل ما).

فرصة سانحة لقوات «الكتائب» لتعاقب من اعتقدت أنهم سبب اغتيال رئيسهم. وتلبية لطلب القوات «الإسرائيلية»، دخلت «القوات الكتائبية» المخيم في ١٦ أيلول، وبدأت المجزرة في ليلة الرعب الطويلة، فَقُتل ١٣٠٠ من سكان المخيم دون أن يعرفوا من هو القاتل ودون مقاومة تُذكر، فاجأ الموت أكثرهم وهم في حالة سبات، والباقون ماتوا في حالة ذعر وهلع دون مُغيث، مئات من اللبنانيين الشيعة المعدمين دفع بهم الفقر إلى مشاطرة الفلسطينيين مخيماتهم، رفعوا الهوية اللبنانية علها تنجيهم من الموت، فماتوا قتلاً والهوية اللبنانية في أيديهم.

في الأيام التالية اكتشف العالم كله بواسطة صور الجرائد والمجلات وأفلام التلفزيونات فظاعة المجزرة، صور رهيبة حركت شعور واستنكار العالم أجمع، بما فيه «العدو الإسرائيلي» نفسه: أزقة الأكواخ الحقيرة المحطمة، مملوءة بجثث الحيوانات وجثث البشر في أوضاع مأساوية لا تنتسى.

وتحت ضغط الرأي العام العالمي لم يستطع «الإسرائيليون» نكران مسؤوليتهم في هذه المجازر، وكيف يستطيعون أن ينكروا ذلك وهم يشاهدون بأم أعينهم من فوق التلال المحيطة ما يجري، ويسمعون العويل وصراخ الاستغاثة والرصاص القاتل. قسم من الشعب «الإسرائيلي» هاله ما رأى فطلب فتح تحقيق.

انتهى التحقيق (تحقيق كاهان Kahan) إلى النتائج التالية:

- دخل الجيش «الإسرائيلي» بيروت الغربية بالرغم من مُعارضة الحكومة اللبنانية، وهذا التصرف يُعتبر خرقاً لقرارات مجلس الأمن.

لقد أُعطيت مهمة السيطرة على المخيمات إلى الكتائبيين رغم علم المسؤولين «الإسرائيليين» برغبة قوات «الكتائب» بالثأر لمصرع رئيسها.

- الجرائم التي ارتكبت، كانت مرئية ومسموعة من قبل العسكريين «الإسرائيليين».

ـ الوزير إسحق شامير أُعلم في الأمر ولكنه لم يفعل شيئاً لإيقاف المجزرة.

وبالرغم من هذا التقرير الذي يدين «إسرائيل» بوضوح، بقي بيغن في الحكم، وتابع شامير مهامه كوزير للخارجية في الحكومة «الإسرائيلية».

فقط طُلب من آرييل شارون الاستقالة من وزارة الدفاع!

انتخاب أمين الجميل رئيساً للجمهورية (٢١ أيلول ١٩٨٢)

بعد ثلاثة أيام من الأحداث الأليمة، أُنتخب أمين الجميل (شقيق بشير الجميل) بأكثرية ساحقة ٧٧ صوتاً، ثامن رئيس جمهورية للبنان.

ومُنذ استلامه الحكم، شجع الرئيس الجديد الحوار بين اللبنانيين فدعى جميع الفرقاء الحضور إلى القصر الجمهوري على أن يعرض كل منهم وجهة نظره، وفعلاً حصل بعض التقارب بين اللبنانيين فولد بعض الأمل بعودة الأمن والسلام إلى لبنان.

وجاءت بعض الأحداث لتقوي هذا الأمل:

ـ على أثر أحداث صبرا وشاتيلا، طلبت الحكومة اللبنانية إرسال قوات دولية إلى لبنان، فوصلت هذه القوات في ٢٤ أيلول ١٩٨٢ م. (للمرة الثانية وخلال شهر واحد) مؤلفة من ٣٨٠٠ جندي من القوات الأميركية والفرنسية والإيطالية ولحقت بهم فيما بعد قوة رمزية إنجليزية، مهمتهم الفصل بين المتقاتلين ومساعدة رئيس الجمهورية الجديد بإعادة الأمن واستعادة السلطة.

ـ بين ٢٦ و٢٨ أيلول انسحب «الإسرائيليون» من بيروت مما سمح بفتح المطار والمرفأ من جديد.

ـ في ٣٠ أيلول تم توحيد العاصمة، والتقى سكان بيروت الشرقية والغربية على خطوط التماس (الخط الأخضر)، بمهرجان شعبي مختلط ظهر به الشعور اللبناني العربي الأصيل شعور التسامح والمحبة وقيم الضيافة والكرم، وأن هذه الحرب القذرة ليست حرب الشعب اللبناني الأصيل الذي كفاه بكاء ودموع.

ـ الرئيس الجميل قام بدوره بنشاط دبلوماسي فاتصل بكل دول القرار من عربية وأجنبية.

ـ تم تنظيم الجيش من جديد (حوالي ٣٠,٠٠٠ جندي) وجهز بالمعدات ودخل بيروت الغربية تحت قيادة جديدة.

ـ عادت ثقة رجال الأعمال ببيروت من جديد وبدأ الكلام عن المشاريع الكبرى. كل هذا أحيا الأمل من جديد بسلام يعم لبنان بأجمعه وليس فقط العاصمة بيروت، ولكن للأسف السلطة الرسمية لم تبسط سيطرتها على كل البلاد بل كانت موجودة فقط فوق ٢٥ بالمئة من الأراضي اللبنانية، والباقي تحت سيطرة الميليشيات والقوات السورية و«الإسرائيلية»؛ والقتال بين الميليشيات لم يتوقف، ففي طرابلس ساء الوضع من جديد، ونشب القتال بين السنيين والعلويين (امتداداً للقتال بين الطائفتين في مدينة حماه السورية)، مئات البازدران الإيرانيين تسللوا ودخلوا منطقة بعلبك، لمساندة وتدريب أنصار «أمل» الإسلامية، اشتباكات بين «أمل» الإسلامية والجيش اللبناني!... في الشوف الاشتباكات قائمة بين الدروز و«الكتائب»... للأسف السلام الأهلي لا يزال بعيد المنال!

اتفاق ١٧ أيار بين «إسرائيل» ولبنان

«إسرائيل» كعادتها لا تعطي شيئاً بدون مقابل، ورغم نجاح مهمتها بإبعاد الفلسطينيين عن حدودها الشمالية، وتجريدهم من السلاح، فهي تريد أن يدفع لبنان ثمن انسحابها، ولا توافق على مُغادرة لبنان قبل الحصول على مكسب سياسي من الدولة اللبنانية، وتطبيقاً لسياستها بجر كل دولة عربية بمفردها إلى طاولة المحادثات، هكذا فعلت مع لبنان تحت الضغط الأميركي، ولكن أخذ القرار اللبناني ليس بهذه البساطة، خاصة أن هذا الاتفاق يضع شروطاً من الصعب القبول بها، وهي:

ـ حرية تنقل الأفراد والبضائع بين البلدين.

ـ برنامج انسحاب القوات «الإسرائيلية» مُرتبط ومشروط ببرنامج انسحاب القوات السورية.

ـ الحد من نوعية السلاح المسموح للجيش اللبناني استعماله في جنوب لبنان، وتأليف دوريات مُشتركة من الجيشين لحفظ الأمن.

ـ إلى جانب شروط كثيرة أخرى بقيت سرية ولكن كلها تمس بسيادة لبنان على أراضيه.

رغم محاولة الحكومة اللبنانية إظهار قدر المستطاع استقلالية القرار اللبناني، عادت فرضخت للضغوط الأميركية، ووقَّعت على الاتفاق في اجتماع في منطقة خلدة بيروت، ثم في اجتماع كريات شمونة شمالي «إسرائيل».

وفي ١٧ أيار ١٩٨٣ م. تم التوقيع النهائي على الاتفاقية من قبل رؤساء الوفود اللبنانية و«الإسرائيلية» والأميركية (فتال، كيميش، ودرابر - Fattal - Ki,iche) Drapper.

هل هناك من علاقة مع الانفجار الذي حصل أثناء المحادثات في ١٨ نيسان ضد القوات الأميركية وذهب ضحيته ٤٠ قتيلاً أميركياً وحوالي مئة جريح؟

على كل حال، اختلفت ردود الفعل على هذا القرار بين مؤيد صراحة مثل مصر، ومعارض مثل «منظمة التحرير الفلسطينية» وبين مواقف بين الطرفين مثل السعودية، والموقف السوري طبعاً كان موقفاً معادياً للاتفاق واعتبره غير مقبول وبموجبه يخسر لبنان سيادته... وأعلنت سوريا أنها لن تنسحب من لبنان قبل نقض هذا الاتفاق. و«الإسرائيليون» بدورهم أعلنوا أنهم لن ينسحبوا من لبنان طالما هناك وجود للجيش السوري فيه... مسكين لبنان... ماذا ينتظر؟ الموقف الأميركي معروف، فرنسا غائبة عن الساحة اللبنانية، روسيا أعلنت أن الاتفاقية تجعل لبنان تابع للسياسة «الإسرائيلية» وأعلنت معارضتها الشفهية للاتفاق ليس أكثر... هذا الاتفاق أشعل نار الحرب من جديد وانتهت الهدنة بين الحركة الوطنية المعارضة للاتفاق وبين الحكومة اللبنانية وتألفت «جبهة الإنقاذ الوطني» بقيادة وليد جنبلاط ورشيد كرامي والرئيس فرنجية.

في آب (أغسطس) ١٩٨٣ اجتمع في باريس ممثلو لبنان وفرنسا وأميركا للتفاهم على انتشار الجيش اللبناني في الجبل بعد انسحاب «إسرائيل»، ولكن في هذه الأثناء وتحت ضغط المقاومة وخوفاً على جنودها انسحبت «إسرائيل» في ٣ أيلول إلى ما بعد نهر الزهراني دون أن تلوي على شيء.

كان للقوات «الإسرائيلية» بالتعاون مع «القوات اللبنانية» الدور الأول والأساسي

في تهجير المسيحيين من الجبل، ولم يستطع الجيش اللبناني الانتشار وكان عرضة لمعارك مع قوات «الحركة الوطنية» التي استطاعت الاستيلاء على مدينة بحمدون والتلال المحيطة. وأمام تدهور الأوضاع من جديد تم التفاهم على مؤتمر وطني للصلح يجري في جنيف في ٣١ تشرين الأول (أكتوبر)، حضر الاجتماع الرئيس أمين الجميل مع والده بيار الجميل والرؤساء شمعون وفرنجية عن الموارنة، صائب سلام عن السنة ونبيه بري عن الشيعة ومراقبين اثنين سوري وسعودي.

وقبل أن يعطي هذا الاجتماع ثماره، عرفت الحرب اللبنانية شكلاً جديداً من العمليات الانتحارية. ففي ٢٣ تشرين أول هاجمت شاحنات مُعبأة بالمتفجرات مراكز القوات الدولية في عمليات انتحارية لم يسبق لها مثيل: الشاحنة الأولى ضد القوات الأميركية والثانية ضد القوات الفرنسية (٥٨ قتيل و٢٢٣ جريح). في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) عملية انتحارية أخرى استهدفت مركز قيادة القوات «الإسرائيلية» (قتل فيها ٦٢ قتيلاً بينهم ٣١ «إسرائيلياً»)، اتهمت «أمل الإسلامية» بالقيام بهذه العمليات فهاجم الطيران «الإسرائيلي» في اليوم ذاته والطيران الفرنسي في ١٧ تشرين الثاني مواقعها في منطقة بعلبك .

ياسر عرفات من جديد

من جديد تسلل المقاتلون الفلسطينيون أنصار ياسر عرفات إلى شمالي لبنان وخاصة في مدينة طرابلس، واتبعوا سياسة خاصة بهم لم تكن من رأي سوريا، فوقع الخلاف على سيطرة القرار الفلسطيني، فدفعت سوريا بحلفائها (أبو موسى وأحمد جبريل) وبقواتها ضد مقاتلي ياسر عرفات يساندهم مقاتلو سعيد شعبان ومقاتلو «الأخوان المسلمين»، ولكنهم ليسوا بالقدرة لمقاومة القوات السورية. وفي ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣ م. كانت هجرة الفلسطينيين الثانية من لبنان باتجاه الجزائر، تونس، اليمن الشمالية والعراق، وأصبحت سوريا مسيطرة على المنطقة الواقعة من حدودها مع لبنان شمالاً إلى نهر الزهراني جنوباً باستثناء منطقة (الحصر المسيحية réduit chrétien) في وسط لبنان. والخلاف السوري مع عرفات كان بسبب تأليف «جبهة الإنقاذ الوطنية الفلسطينية» في آذار (مارس) ١٩٨٥ م. تجمعت في داخلها كل

المنظمات الفلسطينية المناوئة لعرفات، وما لبث هذا الخلاف السياسي أن تحول إلى قتال بين الأخوة الفلسطينيين على أرض لبنان. ونترك للقارىء أن يستنتج ما يترك هذا المنظر عند «الإسرائيليين» من شعور. . . !

وكأن هذا التذابح الأخوي لا يكفي فأُضيف إليه حرب المخيمات بين «حركة أمل» والفلسطينيين، فطوقت المخيمات: برج البراجنة، صبرا، شاتيلا والرشيدية. . . ودامت حرب المخيمات ثلاث سنوات مع قتلاها وجرحاها التي قدرت بالمئات!

في العاصمة بيروت كان الوضع من سيء إلى أسوأ، القوات الدولية أصبحت عاجزة عن القيام بدورها وأصبحت مستهدفة من بعض المقاتلين. في ٦ شباط (فبراير) ١٩٨٤ م. سيطرت «حركة أمل» على بيروت الغربية، اللواء السادس مؤلف من أغلبية شيعية انفصل واستقر في بيروت الغربية، السلطة المركزية لم تستطع أن تحول دون انشقاق الجيش إلى ثلاث فرق طائفية: شيعية، درزية ومسيحية، القوات الدولية بدأت التحضير بسرعة لمغادرة لبنان، الإنجليز آخر من وصل لبنان وكانوا أول من غادره في ٨ شباط (فبراير)، تلاهم الإيطاليون في ٢٠ شباط والأميركيون في ٢١ شباط فقط الفرنسيون استطاعوا البقاء حتى ٣١ آذار (مارس)! (مغادرة الغربيين لبنان هي اعتراف ضمني بالسيطرة السورية على لبنان)[١].

حرب إقليم الخروب

تراجع الجيش «الإسرائيلي» إلى ما وراء نهر الزهراني ولم تتوقف المقاومة ضده، لا بل زادت وأصبحت مؤلفة من المقاومة الوطنية (العلمانية) والمقاومة الإسلامية (الشيعية).

في حزيران (يونيو) ١٩٨٥ انسحبت «إسرائيل» من لبنان بعد أن سلمت مهمة الأمن والمراقبة لحدودها الشمالية إلى سعد حداد في منطقة الشريط الحدودي، (بعد موت حداد تولى مكانه أنطوان لحد، وتقدر هذه القوات المدربة والمجهزة من «الإسرائيليين» بـ ٩٠٠ شيعي و١٦٠٠ مسيحي). ولكن بسرعة تبين أن منطقة الحدود

---

(١) المصدر السابق. ص ١١١.

هذه، التي حددتها «إسرائيل» لحماية حدودها الشمالية، ليست آمنة مطلقاً، وفي هذه المنطقة سجلت «إسرائيل» أكبر خسائر عسكرية لها في تاريخها الحربي، وبالرغم من سجن آلاف الشباب الشيعي في سجونها لم تضعف المقاومة.

ومع تراجع الجيش «الإسرائيلي» وانسحاب القوات الدولية وانشقاق الجيش اللبناني أصبحت سوريا سيدة الموقف.

IV ـ المرحلة الرابعة: سوريا تركز مكانتها في لبنان

غادر عرفات طرابلس ولكن المدينة كانت لا تزال بأيدي مقاتلي سعيد شعبان و«الأخوان المسلمون»، فساندت القوات السورية أنصارها من الفلسطينيين وانتهت (بتنظيف) المدينة، وسقطت طرابلس بأيدي مؤيدي سوريا في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩٨٥ م.

استطاعت سوريا الضغط على الحكومة اللبنانية فألغت اتفاق ١٧ أيار (المبرم بين لبنان و«إسرائيل») واتفاقية القاهرة المبرمة مع الفلسطينيين سنة ١٩٦٩ م.

انشقاق في صفوف «القوات اللبنانية»

مُنذ عام ١٩٧٦ توحدت القوات المسيحية تحت اسم «القوات اللبنانية»، وفي ١٩٨٥ وقع خلاف بين حزب «الكتائب» وقيادة «القوات اللبنانية» أدى إلى انفصال «الكتائب» والعمل بإمرة قيادتهم، وبقي على رأس «القوات اللبنانية» سمير جعجع وإيلي حبيقة رئيس قسم المخابرات.

في ٩ أيار (مايو) حصل خلاف بين الرجلين، بدَّل على أثره إيلي حبيقة موقفه كلياً، فأبعد سمير جعجع وأعلن موافقته على حل عربي ـ سوري للحرب اللبنانية، وتقرَّب من سوريا.

معارك بين الشيعة

إلى جانب «حركة أمل» ظهر عند الطائفة الشيعية قوة عسكرية سياسية جديدة، أخذت تتصاعد بسرعة، هذه القوة هي «حزب الله» قاعدته الأساسية وانطلاقته كانت

من منطقة بعلبك وأخذ يمتد في الضاحية الجنوبية الشيعية، فحصل الاحتكاك بين القوتين الشيعيتين انتهى بقتال بين أبناء الطائفة الواحدة، وتبادل القذائف بين الشياح وبئر العبد (كلاهما في الضاحية الجنوبية) وخطف طائرة T.W.A. في ١٤ حزيران (يونيو) العام ١٩٨٥ لفت الأنظار إلى منظمة «الجهاد الإسلامية» دون تحديد هويتها إلى جانب مجموعات صعب التعرف عليها، واجتاحت لبنان موجة خطف الأجانب وقتل بعضهم وأخذت ضجة إعلامية ضخمة في جميع وسائل الأعلام العالمية.

الاتفاق الثلاثي في ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٨٥ م.

من الآن وصاعداً لا شيء يحصل في لبنان خارج الإرادة السورية، وليس هناك قوة أخرى قادرة على لعب هذا الدور الصعب في لبنان، فقد تنصلت جميع القوى المعنية الواحدة تلو الأخرى وفقط سوريا تابعت مهمتها حتى النهاية.

في ١٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٨٥ دخل الجيش السوري مدينة زحلة، وتم له السيطرة التامة على خطوط الإمدادات، سوريا القوية بوضعها الجديد، فرضت اتفاقاً بين رؤساء العسكريين السياسيين حينها «أمراء الحرب»: نبيه بري عن الشيعة، وليد جنبلاط عن الدروز، إيلي حبيقة عن المسيحيين.

وتم التوقيع على هذا الاتفاق في ٢٨ كانون أول (ديسمبر) من سنة ١٩٨٥ م، في مدينة دمشق، بحضور نائب رئيس الجمهورية السورية عبد الحليم خدام. ينص هذا الاتفاق على:

- وقف إطلاق النار.
- نزع سلاح الميليشيات وحلها.
- إعادة الجيش اللبناني.
- تصحيح الخلل بين الطوائف.

إلى جانب التقليل من سلطة رئاسة الجمهورية، وزيادة سلطة مجلس الوزراء، حيث التمثيل يكون داخله بالمناصفة بين المسلمين والمسيحيين.

وكالمعتاد في لبنان من الصعب إرضاء الجميع، وكالمعتاد يلجأ المعارضون إلى

السلاح والقتال من جديد: هذا ما فعله جعجع الذي استفاد من هذه الفرصة ليثأر من إيلي حبيقة. ففي ١٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٨٦ م. تمت الغلبة لجعجع فغادر حبيقة المنطقة الشرقية متوجهاً إلى دمشق قبل أن يستقر في مدينة زحلة.

كذلك، هذا الاتفاق لم يرضِ المسلمين واعتبره البعض غير كاف، ولا يلبي مطالبهم. والفلسطينيون لاعتبارات سياسية بينهم وبين سوريا عارض قسماً منهم الاتفاق. وهذا دليل على صعوبة الوضع في لبنان وعلى صعوبة إيجاد حل، هذا الاتفاق الذي لم يُرضِ الجميع أشعل نار القتال من جديد، ولكن سوريا تعرف الوضع اللبناني جيداً وتعلم بأن الوقت لصالحها وما عليها سوى الانتظار، وهذا ما حصل فعلاً، فجاء اجتماع الطائف وموقف الدول الغربية ليبارك هذا الاتفاق، الذي تم في نهايته الاتفاق حول جميع نقاطه، مع زيادة نقاط أخرى سنذكرها لاحقاً.

استمر القتال بين اللبنانيين وأصبح القتال داخل كل طائفة، وداخل الأحزاب ذات اللون السياسي الواحد (هل هكذا تنتهي الحروب؟ بأن تأكل الثورة أبناءها؟ قد يجوز، على كل حال هذا ما حصل في لبنان).

في ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٦ حصلت مواجهة بين «أمل» والفلسطينيين، وفي ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٧ مواجهة بين «أمل» و«الحزب التقدمي الاشتراكي»، والسلطة المركزية في حالة شلل كلي، تمزقت البلاد إلى أجزاء صغيرة تسيطر على كل جزء منها ميليشيا مختلفة، السلطة المركزية سلطتها محدودة للغاية. بصيص الأمل الوحيد في حالة الفلتان هذه هو دخول الجيش اللبناني بيروت الغربية في ٢١ شباط (فبراير) ١٩٨٧ م. ولكنه لم يكن في وضعه ذاك الوقت قادراً على ضبط الأمور كلياً.

في ١١ أيار (مايو) ١٩٨٨ م. حصلت مواجهة من جديد بين بعض مقاتلي «أمل» ومقاتلي «حزب الله»، سيطر على أثرها «حزب الله» على الضاحية الجنوبية... (مواجهة مؤلمة لأنها كانت بين الأهل وبين الأخوة من البيت الواحد)!

حكومتان للبنان واحد

تدهورت الأوضاع، فوصل لبنان إلى حالة تثير العجب، حالة المضحك المبكي.

في خريف ١٩٨٨ م. انتهت رئاسة أمين الجميل وبدأت معركة رئاسة الجمهورية، في غياب الشخصية المارونية البارزة والقادرة على حصول ثقة أكثرية النواب، وبعد أن رفض أكثر أعضاء المجلس قبول ترشيح سليمان فرنجية بالرغم من الدعم السوري والأميركي لشخصه، سارع أمين الجميل وعين قائد الجيش ميشال عون رئيساً للوزراء، بالرغم من وجود سليم الحص في مركز رئاسة الوزراء الانتقالية، بعد اغتيال رشيد كرامي رئيس الوزراء السابق.

طبعاً هذا القرار كما كان متوقعاً لم يكن ليرضى به سليم الحص رئيس الوزراء بالوكالة، كما أنه لا يتماشى مع روح الميثاق الوطني الذي يعطي رئاسة مجلس الوزراء إلى الطائفة السنية وليس للموارنة، فاستنكر الحص هذا التصرف واعتبره غير قانوني، واعتبر أن حكومته فقط لها حق إدارة شؤون البلاد.

وهكذا أصبح للبنان حكومتين تدعي كل منهما الشرعية في إدارة البلاد:

- حكومة برئاسة سني حسب الميثاق (والعرف) هو سليم الحص، تسانده الأغلبية المسلمة.

- حكومة برئاسة ميشال عون، تسانده الأغلبية المسيحية (في أول أيامها).

في المجال التطبيقي وعلى الأرض، كانت الحكومتان مجبرتان على التعاون، على سبيل المثال في المجال الإداري وخاصة في قطاع عمل الإدارات ودفع الرواتب للموظفين، وكان يلتقي في نهاية كل شهر الموظفون من الجهتين لتبادل المصادقات والتوقيع على المعاملات الضرورية، وبأعجوبة لا نجد لها تفسيراً كان يتوقف القتال في هذا اليوم ليسمح لهؤلاء الموظفين بالالتقاء على خطوط التماس وتبادل المعاملات الرسمية (وهذه ميزة أُخرى من ميزات الحرب اللبنانية!).

حاول عون بعد تعيينه من قبل رئيس الجمهورية السابق تثبيت سيطرته على المنطقة الشرقية، ولكن الحذر والصراع كان على أشده بين قوات سمير جعجع وعسكريي عون، انتهى بمواجهة عنيفة بين الطرفين تمت على أثرها السيطرة لعون وتحجم دور جعجع وقواته في المنطقة الشرقية؛ وأثار وقوع الضحايا في الجانب

المسيحي وعلى أيدي عسكريي عون، الحقد في نفوس المقاتلين وخفف من الحماس الشعبي لحكومته.

تصرف عون كرجل عسكري فأخذ قراراً لم يجرؤ أحد على أخذه من قبل، وهو إغلاق المرافىء غير الشرعية. قرار خطير بنتائجه على جميع الميليشيات، لأنه من هذه المرافىء كانت تصل الإمدادات العسكرية والبضائع، وعبر هذه المرافىء تمر المخدرات وتتم جميع أنواع التهريب، التي تعتبر مصدراً للعملات الصعبة وعصب الحرب، وتحتاج إليها الميليشيات لمتابعة القتال ودفع أجور مُقاتليها؛ والكل يعلم أن هناك نوع من الاتفاق الضمني بين هذه الميليشيات على اختلاف ميولها السياسية وانتماءاتها الطائفية، بأن لا يعارض أحد أعمال الآخر في هذا المجال... (نسهل مرور البضائع والمخدرات ونتقاسم الأرباح) (في بعض الأحيان التفاهم جد سهل بين اللبنانيين!).

بعدما تقدم نفهم بسهولة الضجة الكبرى ضد قرار عون بإغلاق هذه المرافىء، ومعارضة «أمراء الحرب» وجميع الميليشيات ومن جميع الطوائف لهذا القرار.

ولكن عون لم يتراجع عن خطه العسكري، فأمر في ٦ آذار (مارس) ١٩٨٩ م. بإغلاق هذه المرافىء بالقوة، وفي كلا المنطقتين الشرقية والغربية، وأمر قوات البحرية بالإشراف على تطبيق هذا القرار حرفياً، وتابع سياسته بشيء من الحماس وأعلن في ١٤ آذار استعداده لـ «حرب التحرير» ضد «الاحتلال السوري» وفجأة جاء العون من الرئيس العراقي صدام حسين ومن «منظمة التحرير الفلسطينية». (أثناء حرب الخليج وإبان مُحاصرة العراق أرسل عون مساعدات بشكل مواد غذائية عرفاناً بالجميل). سوريا لم تنتظر طويلاً فردت على عون بقصف مدفعي مركز على قصر بعبدا وعلى المنطقة الواقعة تحت سيطرته وخاصة مرفأ جونيه حيث تصل الإمدادات، وكان رد عسكريي عون بقصف مضاد، وعاد الظلام والظلم إلى بيروت من جديد، وأصبحت الحياة لا تطاق: لا ماء ولا كهرباء ولا تليفونات وعاد الموت يحصد اللبنانيين في عملهم ومنازلهم وعلى الطرقات، ولم يعد هناك مكان آمن وتجددت المأساة وزادت الهجرة من جديد!

حرب «التحرير» هذه دامت ٦ أشهر، إلى أن توصلت جامعة الدول العربية إلى الحصول على وقف إطلاق النار في ٢٣ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٨٩ م.

هذا القتال بدوره زاد في خراب لبنان المادي وفي خسارته لأبنائه، أكثر من ألف قتيل وستة آلاف جريح وعشرات الآلاف من المهجرين والمهاجرين. لقد اعتاد العالم السماع عن هذه الحرب، وعلى مشاهدة الصور المأساوية فلم يعد يهتم لها ولم تعد تحرك شعوره كالسابق، وأصبح هناك عدم اهتمام إن لم نقل ملل من أخبار الحرب اللبنانية في العالم الغربي. الفرنسيون لم يعودوا على استعداد للتدخل العسكري من جديد، كما أنهم لم يستطيعوا نفض أيديهم كلياً (نظراً للروابط التاريخية، وإن كانت شبه منسية من الشعب الفرنسي والتي تعود إلى الماضي البعيد!) فاكتفوا بمهمة إنسانية تحت رعاية برنار كوشنر Bernard Kouchner بإرسال المحروقات إلى معمل الذوق الحراري وتطبيب بعض الجرحى من الفريقين (بالتساوي) بين المسيحيين والمسلمين، وبعض المظاهر السياسية الفردية، مثل حزب اليمين الفرنسي (R.P.R.) الذي جاء بعض أفراده بطائرة خاصة حطت بهم على الطريق البحري بين جونيه وجبيل، ليؤكدوا مناصرتهم لعون والذي استقبلهم في قصر بعبدا... وأما القوى الكبرى الباقية، فاعتبرت أنها دفعت ما فيه الكفاية من قتلى وجرحى في سبيل السلام في لبنان بدون فائدة، فأدارت ظهرها للحرب اللبنانية. مجلس الأمن لم يُطلب منه التدخل، وما المطلوب منه فعله أمام شكوى من حكومتين يتخاصمان على بلد واحد؟ إنه وضع مزعج للجميع.

الرأي العام العالمي وخاصةً الأوروبي وصل إلى القول: بما أن سوريا هي الوحيدة الآن في لبنان، فعليها تقع مسؤولية إحلال السلام، وعليها أن تتدبر أمرها بنفسها، وإن كانت بحاجة إلى مساعدة فلماذا العودة إلينا؟ ولماذا لا تطلب مساعدة جامعة الدول العربية؟

وهكذا كان أن جاء الفرج من جامعة الدول العربية على أثر مبادرة من المملكة العربية السعودية، التي حضرت وساعدت على إنجاح اجتماعات الطائف الشهيرة.

اتفاق الطائف:

استطاعت المملكة العربية السعودية لما لها من مكانة بين الدول العربية، وبمساعدة الجامعة العربية بالاشتراك مع المغرب والجزائر، أن تدعو النواب اللبنانيين (أو من بقي منهم لأن ٢٠ منهم توفوا وقسم آخر في الخارج، وهكذا حضر الاجتماع ٥٨ نائب فقط من أصل ٩٩ نائباً)، إلى اجتماع في واحة الطائف الواقعة في منطقة الحجاز بين مدينتي جدة ومكة المكرمة. في ٣٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٨٩ م.

بعد اجتماعات متواصلة استمرت اثنان وعشرون يوماً، وقّع أخيراً هؤلاء النواب على الاتفاق الذي عرضته الجامعة العربية، والذي يحتوي على جميع البنود التي وردت في الاتفاق الثلاثي الذي تم الاتفاق عليه في دمشق في ٢٨ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٨٥ م ولكنه لم يُنفذ[١]. وسنكتفي بذكر النقاط المهمة فقط من هذا الاتفاق:

- التركيز على استقلال لبنان ووحدة الأراضي اللبنانية بحدودها الدولية المعترف بها رسمياً.
- لبنان هو بلد عربي الانتماء والهوية وعضو مؤسس في جامعة الدول العربية، وعضو مؤسس في منظمة الأمم المتحدة وكذلك عضو في منظمة دول عدم الانحياز.
- لبنان جمهورية ديمقراطية برلمانية، تحترم حرية الرأي والمعتقد والعدالة الاجتماعية.
- الشعب هو منبع السلطة.
- نظامه الاقتصادي حر يُشجع المبادرات الفردية.
- تطوير المناطق بشكل متوازي في مجال الثقافة، الاجتماع والاقتصاد وهو عماد الدولة.
- على الدولة أن تعمل لتحقيق العدالة الاجتماعية بتعديلات مالية اقتصادية واجتماعية.

---

(١) لمراجعة بنود الاتفاق باللغة الفرنسية راجع صحيفة «L'orient le jour». 24/10/1989.

ـ أرض لبنان لجميع اللبنانيين، وكل لبناني له الحق أن يسكن في أي منطقة يريد ويتمتع بكل حقوقه في ظل القانون. . . لا تهجير ولا تقسيم.

التعديلات السياسية

ـ تعتبر المحافظات دوائر انتخابية.

ـ بانتظار التصويت من قبل النواب على قانون انتخاب خارج النظام الطائفي توزع المقاعد في مجلس النواب كما يلي:

بالتساوي بين المسلمين والمسيحيين، ونسبياً بين الطوائف داخل كل مجموعة، ونسبياً بين المناطق.

ـ يصبح عدد النواب ١٠٨.

ـ بعد أن يصار إلى انتخاب أول برلمان وطني على أسس غير طائفية، يصار إلى تأليف مجلس شيوخ يضم كل العائلات الروحية.

بالنسبة للسلطات الثلاث، فإن رئيس الجمهورية، هو رئيس الدولة ورمز الوحدة الوطنية، وقائد أعلى للقوات المسلحة. . . وبدون الدخول في التفاصيل نشير إلى أنه تم التركيز على التعاون بين السلطات الثلاث (رئاسة الجمهورية، مجلس الوزراء ومجلس النواب).

ـ إلغاء الطائفية السياسية هو هدف وطني حيوي يصار إليه حسب مُخطط وعلى مراحل، ويكلف بالعمل على تحقيق هذا الهدف مجلس النواب، وذلك بتأليف هيئة وطنية برئاسة رئيس الجمهورية وتضم إلى جانب رئيس الوزراء ورئيس المجلس النيابي، شخصيات من عالم السياسة والاقتصاد الثقافي والجامعي، مهمتها دراسة وعرض الوسائل التي تؤدي إلى إلغاء الطائفية على مراحل على مجلسي الوزراء والنواب.

ـ في المرحلة الانتقالية يصار إلى إلغاء طائفية الوظيفة في الدوائر الحكومية، القضاء والمؤسسات العسكرية والأمنية ويستثنى من ذلك موظفي الدرجة الأولى أو ما يعادلها. أما مراكز الدرجة الأولى توزع بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين بدون

الاحتفاظ بالمركز إلى طائفة مُعينة.

- إلغاء تسجيل المذهب على الهوية.

- إعطاء دور أهم للمحافظات، مع إقامة فروع للدوائر الرسمية الأساسية وذلك لتسهيل حياة المواطنين.

- حماية التعليم الخاص وتشديد مراقبة الدولة على الكتب المدرسية.

- تعديل البرامج المدرسية بشكل يساعد على الشعور بالانتماء الوطني والانفتاح الروحي والثقافي، وتوحيد برامج التاريخ والتربية الوطنية.

- نشر سيادة الدولة على جميع أراضيها بواسطة قواتها الشرعية.

- حل الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية، وجمع السلاح خلال فترة ستة أشهر.

- تقوية قوى الأمن الداخلي.

- تقوية القوات المسلحة.

- حل مشكلة المهجرين جذرياً، وإعادتهم إلى المناطق التي هُجروا منها.

- تساعد القوات السورية الدولة اللبنانية على بسط سيادتها خلال فترة سنتين، وبعد هذه المدة تقرر الحكومتان اللبنانية والسورية معاً كيفية تجمع القوات السورية في منطقة البقاع، ومدة بقاء هذه القوات وأهميتها.

- العلاقات السورية ـ اللبنانية: يرتبط لبنان وسوريا بعلاقات مميزة نظراً للموقع الجغرافي بينهما، فلبنان لا يسمح أن تكون أرضه ممراً أو مركزاً لأية قوة ولأية دولة أو منظمة تشكل خطراً عليه وعلى أمن سوريا، بدورها سوريا حريصة على أمن لبنان واستقلاله ووحدته والتفاهم بين أبنائه، ولا تسمح بأي عمل يُهدد أمن واستقلال وسيادة لبنان.

عون وبداية تطبيق اتفاق الطائف

كما كان منتظراً لم يوافق عون على هذا الاتفاق ونفاه جملة وتفصيلاً، واعتبره يؤكد بشكل رسمي «الهيمنة السورية على لبنان» واعتبر نفسه الحاكم الأوحد وقرر حل مجلس النواب في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩ م. إلاَّ أن النواب لم يكترثوا إلى هذا القرار وتابعوا نشاطهم كالمعتاد. ونظراً للظروف الأمنية، اجتمعوا حسب توصيات

اتفاق الطائف في ٥ تشرين الثاني من سنة ١٩٨٩ م. في مطار القليعات الحربي الواقع في شمالي البلاد، واختاروا زميلهم النائب رينه معوض رئيساً للجمهورية اللبنانية.

وللأسف في ٢٢ من الشهر نفسه وقع الرئيس المنتخب رينه معوض ضحية انفجار وضع له أثناء مرور موكبه في أحد شوارع المنطقة الغربية، وقبل استشهاده تسنى له أن يوكل سليم الحص من الطائفة السنية بتأليف حكومة اتحاد وطني.

اغتيال رينه معوض أوجب اجتماعاً آخر للنواب لاختيار رئيس جديد للبلاد، فتم الاجتماع من جديد في شتورا ووقع الاختيار على النائب الماروني الياس الهراوي رئيساً للجمهورية اللبنانية في ٢٥ تشرين الثاني من سنة ١٩٨٩ م.

تألفت الحكومة برئاسة سليم الحص، وأول ما قامت به هو عزل عون عن منصب قيادة الجيش اللبناني وتعيين الجنرال إميل لحود خلفاً له.

عون لم يتوانَ عن إعلان نفسه «رئيس لبنان الحر» ورفض مُغادرة القصر الجمهوري في بعبدا، الذي أُعطي للمناسبة اسم «بيت الشعب، حيث كان مؤيدوه يأتونه يومياً».

وبالرغم من طلب الرئيس الهراوي في ٨ كانون أول (ديسمبر) من عون مُغادرة القصر الجمهوري ضمن مهلة أسبوعين، إلاَّ أن عون لم يأبه لطلبه، ونظراً لحماس مؤيديه الذين كانوا يتجمعون في حديقة القصر، أراد أن يُثبت للجميع أنه الرجل الوحيد القوي في المنطقة الشرقية، فأمر في ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ حل «القوات اللبنانية» التابعة لخصمه سمير جعجع، بتهمة التعامل مع حكومة الحص، مما أشعل نار القتال داخل الصف المسيحي.

في ٣١ كانون الثاني ١٩٩٠ م. أمر عون جنوده بمهاجمة ميليشيا «القوات اللبنانية»، واستولى على موقع ضبيه الستراتيجي الذي يسيطر على الطريق البحرية المؤدية إلى شمالي لبنان، وفي ١٦ شباط (فبراير) استولى على منطقة فرن الشباك، وهكذا أصبح عون يسيطر على القسم الأكبر من المنطقة المسيحية وخاصةً الأكثر كثافة سكانية. في ١٧ شباط ١٩٩٠ م. تمت الموافقة على هدنة بين عون وجعجع بعد

أربعة أشهر من القتال ذهب ضحيته أكثر من ٧٠٠ قتيل و٢٠٠٠ جريح!

وبالرغم من صعوبة الوضع في البلاد استطاعت ـ الترويكا ـ اللبنانية أن تبدأ بتطبيق بعض نصوص اتفاق الطائف.

ففي ٢١ آب (أغسطس) من سنة ١٩٩٠ م. صوّت مجلس النواب على التعديلات اللازمة التي تسمح بخلق توازن السلطات بين الطوائف؛ وفي ٢١ أيلول (سبتمبر) صادق الرئيس الهراوي على هذه التعديلات وأعلن ولادة الجمهورية الثانية.

أثناء هذا الوقت ضعف موقف عون في المنطقة الشرقية وخف الحماس الشعبي لحكومته، وبدأ أخصامه بإعطائه لقب ـ دون كيشوت Don Quichotte ـ! وضعفت ثقته وخف اندفاعه، وخفف بالتالي من حدة مواقفه السياسية وأعلن ما معناه: بعض المصالح السورية لا تتضارب مع المصالح اللبنانية، ولكن سياسة الليونة هذه وصلت متأخرة.

في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) طلب الرئيس الهراوي رسمياً مساعدة القوات السورية (حسب ما تسمح له توصيات اتفاق الطائف) لإخراج عون من قصر الرئاسة في بعبدا؛ وهكذا كان أن تقدمت القوات الحكومية تساندها القوات السورية باتجاه قصر الرئاسة، بعد أن تعرض إلى قصف الطيران السوري في ١٣ تشرين الأول (أكتوبر)، فلجأ عون منذ الصباح الباكر مع بعض مؤيديه إلى داخل حرم السفارة الفرنسية، وتمت السيطرة للقوات الحكومية على المنطقة التي كانت واقعة تحت سلطته.

رفضت الحكومة اللبنانية في البداية السماح لعون ورفاقه مغادرة لبنان، بحجة أن بحوزته مالاً يعود إلى الخزينة اللبنانية، ولكن وبعد محادثات مع الحكومة الفرنسية سمحت الحكومة اللبنانية إلى عون ورفاقه باللجوء إلى فرنسا، تحت شروط منها: الانسحاب من الحياة السياسية، عدم إعطاء أي تصريح وأن لا يعود إلى لبنان قبل خمس سنوات (مضت الخمس سنوات وعون لا يزال في فرنسا. . .!).

انطلاق الجمهورية الثانية

منذ إعلان ولادة الجمهورية اللبنانية الثانية رسمياً في ٢١ أيلول من سنة ١٩٩٠ م.، تحكم لبنان سلطة بـ «ثلاث رؤوس pouvoir tricéphale» أو حسب التسمية المتناقلة بواسطة الإعلام سلطة ـ الترويكا ـ وذلك تطبيقاً لاتفاق الطائف. بهذه المناسبة سأنقل حرفياً ما كتب حول تعدد السلطات في كتاب للبطريرك الماروني أنطوان عريضة سنة ١٩٣٦ ـ تبدل في الجهاز الإداري والتشريعي ـ: «... فرغم ترحيب بعض الأوساط اللبنانية، المسيحية والإسلامية الموالية للفرنسيين، بدستور عام ١٩٢٦ والجمهورية التي أعلنت على أساسه، فإن الممارسات السيئة للمفوضية العليا التي تمثلت بالتعطيل وبالتعديل المستمرين للدستور اللبناني، جعلت الرأي العام اللبناني يدرك حقيقة الديمقراطية الشكلية التي بلغت حد المهزلة في ظل الانتداب الفرنسي. وهذا ما أشار إليه الصحافي اسكندر الرياشي متهكماً: ـ كنا نمسي ولنا رئيس جمهورية ومجلس نواب ومجلس شيوخ، فإذا أصبحنا نجد أن كل شيء قد ألغي أو أُوقف حتى إشعار آخر ـ المأزق في الصيغة الغريبة وتعدد الرؤوس الحاكمة، من داخليه وخارجيه على السواء، وكلها رؤوس تسلطية لا تمت للديمقراطية أو حكم الشعب للشعب وبالشعب نفسه. وقد عبر تقرير للمندوب الإنكليزي في بيروت حول تلك الصيغة بقوله: «دستور صيغت مواده بسرعة مذهلة ولم يلق تجاوباً إلاّ في الأوساط الشديدة التعصب للفرنسيين، في حين كان معارضو الدستور يزدادون حجماً. فقد انتقل الصراع إلى داخل مجلس الشيوخ والنواب، فأزيل مجلس الشيوخ. إذ كيف يمكن للحكم أن يكون بثلاثة رؤوس: رئيس الجمهورية، ورئيس مجلس الشيوخ، ورئيس مجلس النواب في بلد صغير كلبنان؟ ويخضع الثلاثة إلى رئيس أعلى فرنسي هو المفوض السامي»؟[١] (يبدو أن المندوب البريطاني نسي الرأس الخامس الذي هو رئيس الوزراء).

استطاع الجيش اللبناني بمساندة الجيش السوري نشر سيطرته على كل العاصمة

---

(١) البطريرك الماروني أنطوان عريضة «لبنان وفرنسا وثائق تاريخية أساسية» ص ٢١. ١٩٣٦.

في أيار (مايو) ١٩٩١ م. وسلمت الميليشيات سلاحها إلى السلطات الرسمية، وبعض أفراد هذه الميليشيات انضوى تحت راية الجيش النظامي للمحافظة على أمن المواطنين!

وتدريجياً استعادت الدولة اللبنانية المباني الرسمية، وبسطت سيطرتها على أراضيها وأحلت الهدوء في جميع أنحاء البلاد.

في ٢٢ أيار ١٩٩١ م. وعلى أثر اجتماع بين الرئيسين حافظ الأسد والياس الهراوي تم التوقيع على معاهدة الصداقة والأخوة والتعاون المشترك بين البلدين.

يتطلب الشكل الجديد لحكم ـ الترويكا ـ تفاهماً وتنسيقاً مطلقاً بين السلطات الثلاث، لأن أي خلاف يمكن أن يؤدي إلى تجميد عملها، وهذا ما حصل في عدة مرات وفي كل مرة كانت تجب العودة إلى الأخوة السوريين لإعادة النشاط إلى هذه السلطات.

ولكن الجميع يتأقلم مع هذا الوضع الجديد، ومهما اختلفت الآراء حوله فمن حسناته أنه سمح للبنانيين أن يتذوقوا طعم السلام والهدوء، خاصة أن الجميع يعلم أنه ليس من حل نهائي لمشاكل دول الشرق الأوسط دون الوصول إلى حل نهائي للمشكلة الفلسطينية.

الفصل السادس

معاناة شعب



معاناة شعب

لكي نفهم لماذا طالت الحرب ودامت كل هذه السنوات الطويلة، والأسباب التي أدت إلى اندلاعها والعنف الزائد التي اتصفت به، لا بد من العودة إلى الوراء، لنرى ما تركه لنا الأباء والأجداد، من إرث سياسي واجتماعي، حمل في ذاته جرثومة الحرب التي تكاثرت مع الوقت إلى أن قويت فانقضّت على الجسم اللبناني سنة ١٩٧٥ م.

رأينا أنه قبل نشوء الدولة اللبنانية، كان يسكن هذه المنطقة مجموعات بشرية منظمة عشائرياً، من رئيس القبيلة أو وجيه القبيلة الذي يكون عادة رجلاً مُسناً وغنياً، يملك أكثر من بقية أفراد العشيرة من الثروة المنقولة أو الثابتة، ويستمد سلطته من كثرة عدد أبنائه أو أبناء عمومته داخل العشيرة، ويثبت شجاعته بالقتال الذي كان يقوم بين قبيلته والقبائل الأخرى، ويطبق مقولة «أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب». وكانت هذه القبائل تتحالف فيما بينها (تحالفات عسكرية) لأنه في حال الاقتتال كانت تأتي المساندة من القبيلة أو القبائل الحليفة، وسرعان ما يتحول الخلاف البسيط إلى حرب لا تنتهي بين هذه القبائل التي تنسى مع الزمن السبب التي تتقاتل من أجله، ولكن الحقد يتناقل من جيل إلى جيل، وكانت لهذه القبائل أعلامها (بيرق) يحمل اسم العشيرة، وللأمس القريب كان هذا البيرق محمولاً في المناسبات الاجتماعية خاصة مراسيم الغداء والمناسبات الدينية ويسير خلفه أبناء القبيلة، يرددون الأهازيج والأناشيد التي تمتدح العشيرة وتظهر قوتها وبطولاتها السابقة. وكثيراً ما كان يقع في هذه المناسبات القتال بين هذه القبائل، ولأتفه الأسباب، كون الشعور القبلي مشحوناً بالحماس وكون الأنظار مشدودة لما يحصل، إذ كان يكفي أن يتقدم بيرق عائلة، خطوة واحدة على بيرق عائلة أخرى حتى يقع النزاع، وتقع القتلى والجرحى، ويكون انطلاقة لاقتتال لا ينتهي من ـ أخذ الثأر والثأر المعاكس ـ كثيراً ما يذهب ضحيته الأبرياء من الطرفين ممن ليس لهم علاقة بالموضوع، ولم يكونوا حتى

حاضرين ساعة القتال، وذنبهم أنهم ينتمون إلى العشيرة، وبقدر أهمية القيمة الاجتماعية للفرد داخل العشيرة يكون الخطر على حياته.

ارتباط آخر يربط الفرد بمجموعته، هو **الارتباط المذهبي**، وهو أشمل من الارتباط العائلي ولكنه مثله يخلق عصبية جماعية توحد بين عائلات مختلفة، لها نفس المعتقد وتطبق نفس الطقوس الدينية، وتتآزر وقت الشدة، داخل النظام الطائفي ويصبح لأبنائها نفس الهموم ونفس المطالب فيتحدون وراء رئيسهم الديني حتى ولو لم يكونوا مؤمنين.

الولاء للزعامات المحلية: مُنذ القدم كانت الزعامة السياسية ولم تزل ملتحمة مع السلطة المالية الاقتصادية، وخاصة امتلاك الأراضي حيث كانت مجال عمل الفلاحين والمزارعين الفقراء، وكي يستطيع الفرد تأمين لقمة عيشه كان مُجبراً على الولاء للزعيم أو الوجيه أو الملاك ومن هنا بدأت سياسة «التزلم»، ونشأت «الزعامة» ومالك الأرض كان في الوقت نفسه يمتلك آراء من يسكن عليها، يُملي إرادته على فلاحيه كما يشاء، وليس عليهم سوى الطاعة.

هناك ولاءات أخرى مثل **الولاء للمنطقة**: إذ نسمع كثيراً التسميات التالية: ابن بعلبك، ابن إهدن، ابن الجنوب، ابن الجبل، ابن بيروت، مع إعطاء الأوصاف وتحديد طريقة العيش والعادات واللهجات الخاصة لكل منطقة، وكأنه لا يكفي لبنان تعدد الطوائف، فهو مُصاب أيضاً بتعدد اللهجات، حتى يكاد أن يكون لكل منطقة لهجة خاصة بها، وكل هذه التسميات هي من باب التفرقة والتمييز بين أبناء الوطن الواحد.

الولاء لرجال الدين: يلعب رجال الدين عند بعض الطوائف دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فإلى جانب دوره الديني، له دور تعليمي، يشرف على إدارة المدارس وعلى إدارة المستشفيات والمستوصفات الصحية، فهو المربي والمعلم والمشرف والإداري وله دور اقتصادي، يدير أملاك الوقف ويشرف على استغلالها، ويوزع الأراضي، وبالتالي هو يمتلك الغذاء، يُخزن الإنتاج ويعطي من يريد ويأخذ ما يريد.

الفرد في مجتمع كهذا مُقيد، ومن الصعب أن يفلت من شباك العشيرة والطائفة والزعيم والمنطقة ورجل الدين. وهل من مكان للحرية في مثل هذه الولاءات «الإجبارية»؟

لكل فرد تجربة مع هذه العوامل وسأقص تجربتي لما فيها من عبر: ككل شاب لبناني في نهاية دراسته الثانوية يعمل جاهداً للحصول على شهادة البكالوريا «مفتاح الفرج»، ويحلم بالسفر إلى الخارج طبعاً لمتابعة الدراسة، ولكن أيضاً ولا شعورياً طلباً للحرية، والانطلاق نحو عالم آخر بناه في خياله مُنذ غادر أول رفيق دراسة له أرض الوطن إلى أوروبا، وجاء هذا اليوم الذي يظل محفوراً في الذاكرة، يوم إعلان نتائج الامتحان وقراءة الاسم مرات ومرات ليتأكد أن نجاحه حقيقة لا حلم، وكنت من بين السعداء فسعدت بهذا اليوم الذي لا أزال أتذكر لحظاته حتى الآن، وبدأت التحضير إلى السفر، وكان همي الأول الحصول على معلومات بالنسبة للجامعات في فرنسا، فتوجهت في اليوم نفسه إلى «المركز الثقافي الفرنسي»، واستقبلني موظف لبناني وتكلم معي بلغة فرنسية صافية، لم أسمع مثلها من قبل حتى من أستاذ اللغة الفرنسية في مدرستي الحكومية المتواضعة، لذلك فضلت الكلام باللغة العربية التي أتقنها ولكن مواطني أبى الرد إلاّ بلغة موليير والتي بالكاد أفهمها ولكني غير قادر على التكلم بها ومجابهة مواطني الكريم الذي نظر إلي بفوقية وازدراء وهو يقول لي: «إذا كانت هذه قدرتك في اللغة الفرنسية فلا داعي أن تتعذب وتسافر إلى فرنسا لأنه لا أمل لك بالنجاح، ثم على كل حال لقد أتيت مُتأخراً ولا عناوين جامعات لدي». بقدر ما كانت فرحتي بالنجاح كبيرة كانت تعاستي أكبر بسماع نصيحة مواطني الكريم وخاصةً لهجته العدائية، فعدت من حيث أتيت وأنا في حالة نفسية تعيسة لا بل أخذت تعتريني الكآبة إلى أن التقيت بأحد زملاء الدراسة الذي لاحظ تعاستي فسألني عما بي، فرويت له قصتي، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما أخذ يضحك ويهزأ مني، ولم أفهم تصرفه هذا وعندما استفسرت عن سبب ضحكه، أجابني «هل أنت من السذاجة إلى هذه الدرجة، أنت فلان باسمك ومذهبك تأمل المساعدة من القيمين على هذا المركز؟» وشرح لي ما لم أكن أشك بوجوده، هذه التفرقة والتمييز لا لشيء سوى لأني من

الطرف الآخر، صديقي كان على معرفة بكل هذه الأمور لأنه كان يهتم بالسياسة، في حين أنني كنت منصرفاً كلياً إلى الدراسة؛ وتذكرت كلمة والدتي بأن الحياة هي المدرسة الكبيرة وسترى ما سترى، وهذا اليوم كان أول يوم لي في هذه المدرسة اللبنانية الصعبة.

وأخيراً وبدون مساعدة مواطني الكريم، وصلت إلى فرنسا وتسجلت في الجامعة، ولم يسألني أحد عن فصلي وأصلي ولا ديني ولا مذهبي، ووجدت فرنسا الفرنسيين أفضل من فرنسا اللبنانيين. وأخيراً فهمت لماذا قال السياسي الفرنسي غامبته: (العلمانية ليست للتصدير!). قبل أن أنتهي من دراسة الطب، عُدت إلى لبنان على أمل التمرين في مستشفى لبناني كي أعتاد الكلام مع المرضى، وفهم نفسية المريض اللبناني التي بطبيعة الحال تختلف عن نفسية المريض الفرنسي، ولذلك قابلت مدير المستشفى الذي أكتم اسمه واسم مستشفاه خجلاً، وبعد أن عرّفت عن نفسي وعن الغاية من مقابلته، وقبل أن يسألني عن اختصاصي أو عن درجة تحصيلي للطب ليحكم على مقدرتي بادرني بالسؤال: ما هو مذهبك؟ مديرنا المحترم لا يستطيع السؤال عن ديني لأن اسمي كافياً ليدل عليه، ولكن يبقى الشك حول المذهب، وأخي في الدين أراد معرفة مذهبي ليعرف إذا ما كنت من مذهب مؤسسي هذا المستشفى أم لا. وتذكرت كلمة والدتي: (وسترى ما سترى)... طبعاً توقف الحديث بيننا عند هذا الحد وانتهت المقابلة.

وبعد أن أنهيت دراستي واختصاصي عدت إلى لبنان بحماس، لأبدأ حياتي العملية، وطبيعة اختصاصي جعلتني أدق على باب وزارة الصحة اللبنانية، طالباً التعاقد مع الوزارة كجراح، استقبلني مسؤول كبير بكل لطف فاستبشرت خيراً، وبعد أن أفصحت عن سبب مقابلتي له، أجابني وبكل عفوية: تطلب التعاقد كجراح في مستشفى بعبدا الحكومي، لكن مستشفى بعبدا يعود إلى أهل بيروت، أنت شيعي من منطقة جبيل، فقاطعته لألفت انتباهه إلى أنه لا يوجد مستشفى حكومي في منطقة جبيل وما العمل؟ ولكن بنفس السرعة أجابني وبدون أي تردد بأن شيعة جبيل يتبعون شيعة بعلبك (تاريخياً العكس هو الصحيح ـ صاحبنا لا يعرف التاريخ ـ) وأنه ليس لي

سوى هذا المستشفى لأعمل به. . . وهكذا كان، ولكن قبل أن أحصل على مباشرة العمل، مرت أيام وأيام، وتمت لقاءات: أولاً مع نائب بعلبك حبيب المطران الذي رافقني شخصياً إلى منزل الوزير عثمان الدنا، وبناء على نصيحتهما ذهبت لأقدم «أوراق اعتمادي» إلى زعيم المنطقة ورئيس مجلس النواب صبري حمادة. . . كل هذا للحصول على مباشرة عمل، بدون تحديد الراتب وتاريخ الحصول عليه. وانتهى التعاقد بعد ثلاث سنوات بدفع مبلغ ترضية، بحجة أن التعيين كان غير قانوني، ووزارة الصحة غير قادرة على الدفع لأنه لا يوجد لديها المال الكافي.

مجرد تعاقد مع جراح، أوجب إعلام الوجهاء وأخذ موافقة سياسيي المنطقة، والحصول على موافقة النائب والوزير ورئيس مجلس النواب. أين هي الديمقراطية؟ أين هو العدل والمساواة والقانون في مثل هذا الأسلوب في التعامل مع المواطنين؟ ولا أظن أنني الوحيد الذي مر بهذه التجربة، بل مر بها أكثر الطلاب بعد تخرجهم في الخارج وعودتهم إلى لبنان وفي جميع الاختصاصات، فبعد أن ذاقوا طعم الحرية والديمقراطية الغربية الصحيحة، عادوا ليصدموا بحواجز المجتمع اللبناني. وتحت تأثير الأهل والعائلة يخضع المتخرج العائد مُرغماً لهذه الأنظمة والقوانين «غير المكتوبة» فيحمل شهاداته ويدور على أبواب ـ الزعماء ـ ليستعطي مركزاً أو وظيفة في إدارات الدولة، وإذا كان من أصحاب الحظ أو من عائلة لها تأثير انتخابي أو اجتماعي، يحصل على مركز أو وظيفة، ويقع في شباك «المحسوبية» وإن لم يرد شخصياً فالآخرون يصنفونه في خانة «الزعيم» الذي عيّنه أو وظفه، ورغماً عنه يصبح «صوت سيده» يدافع عن مصالحه ويسعى إلى رد الجميل بالعمل على تقوية مكانته السياسية، فيجيِّر سلطته ووظيفته ليخدم مصالح «زعيمه» وهذه حال الجميع؛ وهكذا تُصبح الإدارات الرسمية أجهزة مُستغلة من قبل رجال السياسة لتقوية مراكزهم ولضمانة استمراريتهم في السلطة والحكم، وهذا ما يبين لنا لماذا فشل أكثر رؤساء الجمهورية السابقين في محاولاتهم ـ تطهير الإدارات ـ لأنه من الصعوبة بمكان فك الارتباط بين الزعيم وممثله في هذه الإدارات، فهي علاقة فائدة متبادلة، والزعيم الذي استطاع تجيير الإدارات العامة لمصالحه الشخصية استطاع أيضاً أن يُظهر نفسه بأنه

حامي الطائفة والمدافع عن مصالحها، وبنى علاقات فائدة متبادلة مع رجال الدين، وتقرباً من السلطة الدينية يُغالي في تطرفه الديني بالدفاع عن هذه أو عن تلك الوظيفة بحجة أنها تعود لطائفته، وبذلك يُصبح ممثل طائفة لبنانية وليس ممثل مواطنين لبنانيين (ليس بنائب كل لبنان بل نائب طائفة، وللأسف هذه هي النظرة الطاغية عند اللبنانيين).

المثقف اللبناني أصبح مثل طائر الحمام بعد أن طار في أجواء الحرية والديموقراطية، يرجع ليحط فوق سطح لبنان فيقع أسيراً في شباك الطائفية، وإن لم تروضه الطائفية فسيرى نفسه معزولاً، فيصبح طائراً يغرد خارج سربه، يفتش عن بلد آخر يأوي إليه، ويضطر إلى الهجرة إلى الدول العربية المجاورة وخاصة البلاد المنتجة للبترول، أو إلى البلد الذي تعلَّم فيه، وكثيرون هم طالبي العلم في الخارج الذين يصبحون طالبي زواج أيضاً، وذلك فقط للحصول على جنسية أجنبية تسمح لهم بالبقاء حيث أتموا دراستهم. وعلى سبيل المثال: في فرنسا فقط يوجد ألف ومئتين طبيب من أصل لبناني منتشرون في جميع المدن الفرنسية وقل ما تجد مدينة فرنسية ولو صغيرة دون أن تجد بها طبيباً لبنانياً، ومنهم من استبدل اسمه باسم فرنسي. وبما أنه لا توجد أي علاقة بين اللبنانيين وسفاراتهم في الخارج، أصبح من الصعب التعرف عليهم، كما أن غياب الارتباط الرسمي مع الوطن، جعل أولادهم يرتبطون عاطفياً مع البلد الذي ولدوا فيه، أو مع البلد الذي لجأوا إليه وبالتالي فقدوا الحنين والرغبة في العودة إلى بلدهم الأصلي لبنان. وما يصيب المثقفين يصيب كذلك بقية طبقات المجتمع اللبناني وهذا ما يشرح لنا استمرار النزيف والهجرة بعد الحرب. (أظهر إحصاء شبه رسمي أن اللبنانيين الذين يغادرون لبنان سنوياً ولا يعودون إليه يبلغ مائتي ألف مواطن) حسب مجلة «الحوادث» ـ ١٠ ـ ٢/٧/١٩٩٩ م. مائتا ألف لبناني غادروا لبنان خلال سنة لأنهم لم يستطيعوا العيش في وطنهم، والهجرة لم تعد وقفاً على المثقفين واليد العاملة المتخصصة بل طالت جميع الطبقات ومن كل الطوائف وأصبح اللبناني في الخارج ولأول مرة يقبل العمل حتى في المهن المتواضعة.

الحياة أصبحت صعبة في لبنان: صعبة بالنسبة للمقيم لأنه يواجه غلاء المعيشة

والبطالة (بدون تعويض!)، ومشكلة السير وبطء المعاملات الإدارية والتلوث وانعدام أسباب الراحة والرفاهية (لا حدائق عامة، لا منتزهات ولا نشاطات ثقافية)، وكذلك صعبة بالنسبة للمغترب، لأنه ذاق طعم الحرية، وحسنات الديمقراطية، وعاش في مجتمع القانون واحترام القانون، فيصعب عليه التأقلم من جديد، ليعيش في مجتمع يسوده الفوضى، حيث الأقوياء والأغنياء يأكلون مال الفقراء، ٤ بالمئة من الشعب اللبناني يتباهون بقصورهم وشركاتهم ومجوهراتهم، ويمتلكون ٣٣ بالمئة من الدخل الوطني، في حين أن بقية الشعب اللبناني يعاني من الضائقة المادية، ويسير بخطى سريعة نحو حياة العالم الثالث.

في لبنان المال وحده لا يعرف الطائفية، لأن الأقلية الثرية المسلمة التي تتقاسم الغنائم مع الأكثرية الثرية المسيحية، لا يعنيها الأمر وهمُّ الاثنان (الـ ٤ بالمئة) إبقاء الوضع على ما هو عليه، لأنه من السهل التلاعب على القانون في ظل الفوضى، ولكن من الصعب التلاعب في ظل النظام، وخاصة أن العدل والنظام يقولان بتطبيق «الضريبة التصاعدية»! بدل السؤال ـ من أين لك هذا؟ ـ وكأن بنا لا نستطيع تطبيق القانون بدون الحصول على الجواب؛ أم هي مضيعة للوقت؟

التلاعب على القانون أصبح مقياساً للدرجة الاجتماعية، فالمواطن الغني والقادر وإظهاراً لمكانته الاجتماعية ومقدرته، يتباهى بالقفز فوق القانون مستغلاً مقدرته المادية وعلاقاته السياسية، وكأن القوانين سنت فقط لتُطبَّق على الفقراء والضعفاء. إذاً، من الصعب العيش في مجتمع المظاهر الاستعراضية «مجتمع الطواويس»، في مجتمع لا مكان للكلمة فيه ولا للمثقفين، وإن تكلم بعض المثقفين فسينعتون رأساً (بالمثالية) أو بأنهم متأثرين «بالحضارة الغربية، وهذه لا تصلح لبلادنا»! على كل حال، المكان يشغله حملة الألقاب الموروثة والألقاب المشتراة، وألقاب ما بعد الحرب وأغنياء الحرب الجدد، وما على المثقف سوى الرحيل.

بدأت حرب الـ ١٩٧٥ بالتعدي على القانون، ومشكلة لبنان ليست بقلة القوانين (وهو من أغنى البلاد تشريعاً)، ولكن المشكلة بعدم تطبيق هذه القوانين على الجميع، وبالتالي لم يعد هناك لبنان واحد، بل عدة «لبنانات» تتطور بسرعات مُختلفة:

المقاطعات والمناطق النائية (نائية داخل مساحة ١٠,٤٥٢ كلم مربع!) منسية من قبل الدولة، وتنقصها أبسط الخدمات، والاهتمامات الاجتماعية القليلة التي تقوم بها الدولة تخصصها للعاصمة، وحتى داخل العاصمة، الاهتمام بالمجالات الصحية والاجتماعية والتربوية، لا يسير بنفس السرعة وبالتساوي بين جميع الأحياء، فالضاحية الجنوبية أصبحت كلكيتا لبنان، في حين أن رأس بيروت والأشرفية يضاهيان أحياء باريس.

كما أن هناك فارقاً كبيراً في النمو الاقتصادي وتحقيق المشاريع بين مناطق الطوائف، هناك سياسة تفضيل لم تعد خافية على أحد ولم تعد مقبولة من أحد.

كل هذه العوامل مجتمعة جعلت كل فرد يلجأ لطائفته يحتمي داخلها، علّه من خلالها يحصل على ما يعجز عنه من خلال مواطنيته. إذاً غياب الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين والخوف من المستقبل، تدفع المواطن دفعاً إلى أحضان الطائفة، ليطبق سياسة التعصب (ساند طائفتك ظالمة كانت أم مظلومة!).

كل هذه المشاكل الاجتماعية والسياسية تزيد حدة، في المراحل الاقتصادية الصعبة والتفاوت الطائفي الذي كان مقبولاً سابقاً، لم يعد مقبولاً في ظل الضائقة المادية، وطوائف سنة ١٩٧٥ م ليست نفس طوائف ١٩٢٠ م، وطبعاً مستغلي هذا الوضع كُثر، فهم يوقظون بكلامهم وخطبهم وتصرفاتهم الأحقاد المدفونة في ذاكرة كل طائفة، ويعود الحديث عن أحداث قديمة مُؤلمة جرت بين الطوائف اللبنانية، ويتناسون الصداقات التي نُسجت بعد تاريخ هذه الأحداث، بين أفراد المجتمع من مُختلف الطوائف، ولكن كما قلنا إنه في مجتمع الطائفية لا وجود للمواطن الفرد فهو مُجبر أن ينضوي تحت راية طائفته. ومن المؤسف أن نرى رجال الدين يتركون مذياع المحبة والتسامح ليذيعوا بمذياع الكراهية والبغض، ويزيدون نار الطائفية لهيباً، ويحملون السلام بدل الكتب المقدسة.

كما أن رؤساء الطوائف السياسيين، زادوا في مغالاتهم ومواقفهم الطائفية حفاظاً على مراكزهم، فأشعلوا الحماس في نفوس مُحازبيهم ليأخذوا طرق القتال وهم ينشدون!

عاش الأمير فخر الدين بين ١٥٧٢ و١٦٣٥ م وأثناء الحرب اللبنانية الأخيرة، أي بعد مُضي ثلاثة قرون، حُكم على سياسته أنها كانت ضد الطائفة، فنسف تمثاله! وهذه لم تكن حال طائفة مُعينة بل حال أكثر الطوائف اللبنانية.

لقد اختار اللبنانيون الطائفية نظاماً سياسياً لهم، فوقعوا في شباكها وأصبحوا الضحية يتخبطون فيها دون أن يستطيعوا الإفلات منها، لأن الطائفية تفرز دفاعاتها الذاتية وتحمي نفسها بنفسها وجذورها تمتد وتمتص دفاعات المجتمع وتعمل به كالسرطان، وإن لم تعالج بسرعة وجذرياً فنهاية المجتمع للأسف معروفة مُسبقاً.

أضف إلى هذه الصعوبات الداخلية، ما عاناه اللبناني أيضاً من ردات فعل الحروب العربية ـ الإسرائيلية عامةً ومن المشكلة الفلسطينية خاصة (راجع هذا الفصل)، ومن الخلافات العربية ـ العربية، والصراعات الدولية، وليس بعجب أن ينفجر الوضع بحرب طاحنة، ويهاجر اللبنانيون إلى بلاد الله الواسعة.

الهجرة

أصبحت الهجرة صفحة من صفحات تاريخ سكان لبنان، واللبناني رحالة بطبيعته، كلما ضاقت سبل العيش في وطنه أو شعر بالخطر، وبالرغم من تعلقه العاطفي بوطنه، إلاّ أنه لا يتوانى عن البحث عن أرض رحيمة تستقبله، حتى أصبح عدد اللبنانيين في المهجر اليوم أكثر من عدد اللبنانيين المقيمين في لبنان (حوالي ٨ ملايين، أي أكثر من ضعفي المقيمين)[١]. الواقع أن هذه الأرقام هي تقديرية، ومن الصعب إعطاء عدد حقيقي للمهاجرين، خاصة أن الهجرة تعودة جذورها إلى منتصف القرن التاسع عشر، وكي تكون الأرقام ذات فائدة، وجب التمييز بين من هاجر حديثاً، وظل على ارتباط مع الوطن الأم، وبين من هم من أصل لبناني يعودون إلى عدة أجيال سابقة ولا تربطهم حالياً بلبنان أي علاقة.

تاريخياً بدأت موجات الرحيل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك

---

(١) Joseph Maïla «le Figaro Magazine» 24 - 10 - 1998.

لأسباب اقتصادية، منها انهيار إنتاج الحرير في أوروبا، وبما أن تربية دودة القز كانت النشاط الأساسي لأكثر اللبنانيين، فقد تأثروا بدورهم وأُجبروا على الهجرة، كما أن وصول البضائع الأوروبية، خاصة من مانشستر في إنكلترا وباريس قضت على الصناعات المحلية، كالصباغة والحياكة وصنع السلاسل والخزف والأحذية، ونشأت فئة غنية جديدة فئة التجار المستوردين من أوروبا، وهكذا أصبح مجتمع ذاك الوقت مؤلف من فئة حاكمة (الأمراء والإقطاعيين والأكليروس) وفئة الأغنياء الجدد من تجار ومهن حرة تخرجوا من مدارس غربية أو من مدارس الإرساليات، وفئة محكومة، فئة العمال والفلاحين. هذه الفئة الأخيرة اضطرت إلى النزوح أولاً إلى المدن، ثم إلى الخارج، وأما الفئة الغنية والمثقفة فغادرت طلباً للتجارة والعمل بشروط أفضل في بلاد الاغتراب (طبعاً الأمراء والإقطاعيون ورجال الأكليروس لم يكونوا مضطرين لمغادرة البلاد)!

تجب الإشارة إلى أن المهاجرين اللبنانيين كانوا يُعرفون في الخارج في البداية بـ (الأتراك) (Turcos) ثم عُرفوا بعدها بالسوريين قبل أن يُعرفوا أخيراً باللبنانيين.

المرحلة الأولى، أو بداية الهجرة

كانت مصر أول بلد عربي هاجر إليه اللبنانيون، وهذه الهجرة طالت في البداية المثقفين خريجي مدارس وجامعات الإرساليات الأجنبية الأوروبية، وحوالي عام ١٨٨٢ تبعهم متخرجي الجامعة الأميركية.

كانت مصر بحاجة إلى مثقفين لتحديث الإدارة التي بدأها محمد علي، والتي تابعها الخديوي إسماعيل سنة ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ مع افتتاح قناة السويس، وسوريا ولبنان كانا مصدر المثقفين في الشرق الأوسط، إلى جانب الدور اللذين لعباه في تحديث الإدارة، لعب المثقفون اللبنانيون والسوريون دوراً مهماً في اليقظة والنهضة الفكرية العربية، وتبع هؤلاء المثقفين التجار اللبنانيون، وأصبحت (أرض الكنانة) وطناً ثانياً للبنانيين، حيث أصبح عددهم حوالي ٣٠,٠٠٠ نسمة، واستطاعوا أن يربوا ثروات هائلة، فبلغت ثروتهم ما يقارب عُشر المدخول الوطني المصري!

أحداث ١٨٦٠ م أو ـ مذابح الستين ـ بين الطائفتين الرئيسيتين في جبل لبنان

ذاك الوقت، دفع بالكثير من اللبنانيين إلى الهجرة هرباً من المجازر التي عمت البلاد، والتي قضت على التعايش الدرزي ـ الماروني، فذهب قسم من الموارنة إلى جزيرة قبرص، وقسم من الدروز ذهب إلى حوران وقطن في جبل الدروز، وقسم من الشيعة اتجه شمالاً.

لم تكن مصر وحدها في القرن التاسع عشر قبلة المهاجرين اللبنانيين، بل استهوت أميركا العديد منهم، وذلك على أثر التخالط بين «حجاج الأرض المقدسة» من الأميركيين وسكان البلاد، ولدت فكرة الهجرة إلى أميركا (العالم الجديد) وحسب الإحصائيات زاد عدد المهاجرين اللبنانيين من ٢ فقط في سنة ١٨٦٩ م إلى ٣٧٠٨ مهاجر في سنة ١٨٩٩ م. واختار الكثير من اللبنانيين أميركا الجنوبية (اللاتينية) وخاصة البرازيل، فقد وصل البرازيل ٩٦ مهاجراً لبنانياً بين ١٨٨٤ و١٨٩٣ م وتزايدت الهجرة بعدها فوصل العدد إلى ٧٢١٤ مهاجراً بين ١٨٩٤ م و١٩٠٣ م.

في نفس الفترة بدأت الهجرة إلى أفريقيا الغربية بتشجيع من الحكومة الفرنسية، لأن الفرنسيين المدنيين، لم يقبلوا الإقامة في المستعمرات الفرنسية، فوجدت فرنسا البديل باللبنانيين ذوي الثقافة الفرنسية.

لم تكن حال هؤلاء المهاجرين قسراً، كحال المثقفين والتجار الذين هاجروا إلى مصر، فبقدر ما كانت الإقامة سهلة في مصر كانت الحياة صعبة في البلدان الأجنبية. «كان مُعظم المهاجرِيْن أناساً فقراء معدمين أميين يجهلون لغة البلاد التي يأتونها وكانوا يلاقون ضروباً من الشقاء ويكابدون أنواعاً من شظف العيش. وكان الواحد منهم يبدأ كبائع متجول يحمل صندوقاً خشبياً صغيراً فيه طرائف وبضائع غريبة من البلاد المقدسة وقطع قماش مطرزة»[١].

المرحلة الثانية، مرحلة ما بعد الحرب الأولى سنة ١٩١٤:

كانت هذه الفترة من الفترات العصيبة التي مر بها لبنان، فبسبب الحرب نُكب لبنان اقتصادياً، إذ أُغلق طريق البحر، فانقطع الاتصال مع المغتربين اللبنانيين وتوقفت

---

(١) د. فيليب حتى «تاريخ العرب». ص ٥٧٨.

التحويلات المادية، وخلت الأسواق من البضائع وندر الطعام وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً، وبدأ شبح المجاعة يخيم فوق لبنان، فهاجر من استطاع من الدروز إلى حوران، وغادرت الناس بيوتها بحثاً عن الطعام، وتوجه الكثير إلى داخل البلاد، أطفال مشردة بلا هدف يستعطون الطعام، ومات الكثير جوعاً، ومن تبقى منهم مات من الأمراض التي تفشت بشكل مفزع (الذباب نقل التيفؤيد، والجرذان الطاعون، والبعوض حمى الملاريا، وكأن كل هذا البلاء لا يكفي فجاء الجراد في نيسان ١٩١٥ م وقضى على ما تبقى من خضار، وكانت أرتال الجراد تحجب نور الشمس لكثرتها). وقدرت الخسائر بالأرواح حوالي ١٠٠,٠٠٠ شخص، وهذا الرقم هائل بالنسبة لعدد السكان في ذاك الوقت. في هذه الفترة تدفق على لبنان اللاجئين الأشوريين من العراق والأرمن من أرمينيا (١٥,٠٠٠ لاجىء في مُعسكر اللاجئين التابع لمدينة بيروت فقط، وعدداً موازياً في ضواحي المدينة).

المهاجرون اللبنانيون الأوائل سهلوا هجرة ذويهم، فزادت الهجرة بشكل ملحوظ إلى البرازيل، الأرجنتين، كولومبيا والأوروغواي، وكثيرون توجهوا إلى أفريقيا بتشجيع من قبل فرنسا كما أوردنا سابقاً.

وصل عدد اللبنانيين الذين هاجروا إلى البرازيل إلى أكثر من ٤٥,٠٠٠ مهاجر، أما أفريقيا فقد استوعبت٧,٠٠٠ مهاجر في الوقت نفسه.

ولكن أزمة ١٩٢٩ الاقتصادية العالمية، جعلت الكثير من المهاجرين اللبنانيين يعودون إلى بلادهم.

المرحلة الثالثة من سنة ١٩٧٥ وما بعد:

هي المرحلة الأهم والأكثر ضرراً للبنان، وطبعاً الحرب الأهلية كانت السبب الرئيسي لهذه الهجرة وبهذه الأعداد الضخمة. ومن الصعب إعطاء رقم محدد لهذه الهجرة، خاصة أنها كانت تحصل بشكل مد وجزر، وذلك حسب الوضع العسكري والعمليات العسكرية داخل البلاد، وكانت تزيد وتقوى كلما زادت الحرب ضراوة، وتخف، بل أحياناً يعود الكثير منهم إلى بلادهم في فترات الهدوء، ولكن بعد أن

طالت الحرب أسس الكثير من المغتربين الجدد لحياته في بلاد المنفى، وأصبح يعود إلى بلاده كسائح لا كمواطن. وبعد توقف الحرب، بقي البعض ينتظر تحسن الأوضاع الاجتماعية والحياتية، ووضع مخطط لسياسة مُستقبلية تحميه من عودة الحرب حتى يعود نهائياً، ولكن طال انتظاره، فأدار ظهره إلى بلده وتأقلم مع بلده الجديد؛ وإذا كان غنماء لبنان بأبنائه، فهذه الهجرة هي من أكبر خسائر الحرب اللبنانية، خاصة أن أول من غادر لبنان، هم المتمولون والمثقفون وأصحاب الحرف واليد العاملة المتخصصة، فأُفرغت البلاد من قواها الفاعلة، وتُرك من تبقى، تحت رحمة ـ أصحاب القرار ـ في المنطقة، وبما أن الكثير حصل على جنسية أجنبية فقد أصبح من الصعب عليه العودة إلى الوطن الأم، وهكذا. . . فإنه مع الوقت يزداد عدد المهاجرين ليصبح أكثر من عدد المقيمين ويذوب لبنان المهاجر داخل شعوب العالم.

لقد غادر لبنان بين سنة ١٩٧٥ وسنة ١٩٩٠ م حوالي ٨٧٥,٠٠٠ لبناني، وللأسف أنه وبعد توقف القتال، لا يزال اللبناني الذي لا يجد عملاً له في لبنان طالب هجرة، وكما أشرنا وحسب الإحصاءات الرسمية يغادر لبنان سنوياً ٢٠٠,٠٠٠ ألف لبناني، بالرغم من القيود الموضوعة من قبل البلاد الأجنبية لاستقبالهم، ولكن وجود أقارباً أو معارفاً لهم في الخارج يُسهل هجرتهم، وطالما هناك بطالة ومشكلة اقتصادية في لبنان فلن تتوقف الهجرة، وهذا عذاب آخر يصيب اللبنانيين، لأنه يشتت العائلة ويبعد الأهل عن بعضهم، وتتغير العادات والتقاليد والمفاهيم، فيصبح اللبناني المغترب غريباً في وطنه، وهذه من أصعب أنواع الغربة!

ويقدر عدد المهاجرين اللبنانيين كما يلي:

أميركا الشمالية:

ـ الولايات المتحدة . . . . مليون ونصف

ـ كندا ٢٥٠,٠٠٠

أميركا الجنوبية:

ـ الأرجنتين . . . . مليون ونصف

ـ البرازيل	٣ إلى ٨ مليون
ـ الأكوادور	٥٠,٠٠٠
ـ الغويان الفرنسية	٢ إلى ٣٠٠٠
ـ المكسيك	٨٠,٠٠٠
ـ كولومبيا	٣٠,٠٠٠

أوروبا:

ـ ألمانيا	٦٠,٠٠٠
ـ فرنسا	١٠٠,٠٠٠
ـ إنكلترا	٢٠,٠٠٠
ـ السويد	٢٠,٠٠٠
ـ سويسرا	٢٠٠٠

أفريقيا:

ـ أفريقيا الجنوبية	٣٠,٠٠٠
ـ ساحل العاج	١١٠,٠٠٠
ـ الكونغو	٨,٠٠٠
ـ مصر	١٠,٠٠٠
ـ الغابون	٣,٥٠٠
ـ غانا	٣,٠٠٠
ـ نيجيريا	٢٥,٠٠٠
ـ غينيا	٧,٠٠٠
ـ كاناري	٣,٠٠٠
ـ ليبيريا	٢٠,٠٠٠
ـ سيراليون	١٠,٠٠٠

الخليج العربي:

- العربية السعودية ١٥٠,٠٠٠

- الكويت .... ٥٠ ,٠٠٠

أوستراليا:

- أوستراليا .... ٣٠٠,٠٠٠[١]

في نظرة بسيطة إلى هذه الأرقام، نجد أن لبنان الكبير هو في الخارج وليس داخل الحدود اللبنانية.

بشكل عام، وعكس بقية المغتربين من جنسيات مُختلفة، كان اللبناني للأمس مقبولاً في دول الاغتراب أكثر من غيره، وقل ما يتألم من الشعور العنصري ضده، ولكن للأسف بعد الحرب اللبنانية الأخيرة، وصبغتها الطائفية، تبدلت الصورة خاصة في أوروبا، حيث ولأول مرة، أخذ الأوروبي يسأل اللبناني عن دينه ومذهبه، وبدأ معها نوع من العنصرية الجديدة التي تصيب اللبنانيين بشكل عام والمسلمين بشكل خاص، خاصة حيث التواجد المكثف للبنانيين، لأن البعض حمل انقساماته الداخلية، ليسمم بها أهالي البلاد المضيفة التي تختلف نظرتهم إلى الدين عن نظرة اللبناني، ويستغربون كيف أنه في القرن العشرين لا يزال هناك صراع ديني في الشرق في حين أن الغرب تخلص من هذه الآفة مُنذ قرون وبالذات عندما فصل الدين عن الدولة!

ويجب أن نعترف للمهاجر اللبناني، بسهولة التأقلم في بلاد الاغتراب، إن هاجر بمفرده أو ضمن مجموعات قليلة، وذلك عائد إلى أنه قبل أن يحضر إلى هذه البلاد كان في بلده لبنان على اتصال مع الأجانب، ويتعامل معهم تجارياً وسياحياً ويتكلم لغاتهم. كل هذا ساعد على تأقلم اللبناني بسرعة، ولكن التأقلم كان شبه مستحيل بعد الحرب الأخيرة وفي البلدان التي جمعت اللبنانيين في مجمعات خاصة (باللاجئين السياسيين، أو الهاربين من الحرب)، فظلوا على عاداتهم وطرق عيشهم

---

(١) Joseph Maïla Doyen de l'institut Catholique de Paris «Le Figaro Magazine» 24 - 10 - 1998.

الخاصة، فبدأ نفور أهل البلاد من هؤلاء الغرباء ومن تصرفاتهم، مما جعلهم عُرضة لأعمال عنصرية قام بها المتطرفون الأوروبيون ضدهم وضد أماكن تواجدهم، خاصة في ألمانيا.

أما بالنسبة إلى المغتربين اللبنانيين في فرنسا فوضعهم أفضل، لأن أكثرهم من المثقفين الذين يتكلمون اللغة الفرنسية بطلاقة، ومن أصحاب المهن الحرة (١,٢٠٠ طبيب من أصل لبناني يعملون في المستشفيات الفرنسية أو في عياداتهم الخاصة. في سنة ١٩٧٦ كان يوجد في باريس مطعم لبناني واحد، في سنة ١٩٩٦ أصبح يوجد أكثر من ٢٥٠ مطعم!)، أضف إلى ذلك الروابط العاطفية والتاريخية، كل هذه العوامل، سهلت وساعدت اللبناني على التأقلم في فرنسا التي يحمل جنسيتها ٦٠,٠٠٠ لبناني، كما أن هناك الكثير من الزيجات المختلطة. ويقدر عدد اللبنانيين في فرنسا بحوالي ١٠٠,٠٠٠ بينهم ٨٠ بالمئة مسيحيين و٢٠ بالمئة مسلمين وأكثرهم من الطائفة الشيعية، والأغلبية يسكنون العاصمة باريس. ويجب الاعتراف أيضاً لهؤلاء اللبنانيين ـ الفرنسيين أنهم لم يحملوا معهم خلافاتهم، لا بل على العكس، وجدنا تقارباً بين المسلم والمسيحي في فرنسا نتمنى أن يحصل في لبنان، ولاحظ الفرنسيون ذلك، وشعروا أيضاً بإرادة اللبنانيين المخلصة بالتأقلم مع المجتمع الفرنسي، لذلك، فاللبناني مقبول في جميع الميادين، وينظر الفرنسيون إليه نظرة خاصة.

والملفت للنظر أن نفس هؤلاء اللبنانيين الذين استطاعوا أن يعطوا الصورة الحسنة عنهم، وعن تصرفاتهم في بلاد الاغتراب، ينسون كل هذه القيم عند عودتهم إلى لبنان، وبدل أن يساعدوا مواطنيهم بخبراتهم التي اكتسبوها، لكي يطوروا المجتمع ويحسنوا خدماته، تراهم يسارعون لينغمسوا وبشيء من السرور في مجتمع الوجاهات وأصحاب الحقوق والامتيازات. ولم أنسَ بعد قصة هذا المغترب الذي عاد إلى لبنان، ليزوج ابنه فنقش صورة العروسين على ليرات ذهبية، ورمى بها بدل حبات الأرز. الحادث وقع فعلاً، وهذا دليل أننا نعيش فعلاً في مجتمع مريض، مُجتمع حيث الفرد أغنى من الدولة! وتحدي القانون ضرب من الشطارة، والبحث عن الربح السريع بكل الوسائل أصبح رياضة الجميع المحببة، ونشاط وطني عام، ولتحقيق غايته يدوس على

حرية الآخرين ويقفز فوق القانون، لأن القانون في نظره هو فقط للضعفاء والفقراء. إنه يقتل الناس حتى في دور العبادة لأسباب سياسية، ويختلف على الزعامات المحلية، ولإبعاد منافسيه على الرئاسة. إنه مجتمع القبائل والعشائر والطوائف والجنسيات وأصحاب القرار والزعماء بالوراثة والمتزعمين بالقداسة والزعماء الجدد وأغنياء الحرب ورؤساء الميليشيات من كل الأشكال والألوان. مجتمع حيث نجد كل شيء سوى العدالة! هذا لبنان قبل ما ١٩٧٥ م. فهل من عجب أن تندلع الحرب بعد هذا كله؟

قبل الحرب، كان لبنان يتمتع بازدهار اقتصادي نسبي، وبالرغم من وجود فئة قليلة مسيطرة اقتصادياً تتقاسم الأساسي من الدخل الوطني، فلم يكن هناك فقر وفقراء بالشكل المألوف في العالم الثالث، (يُستثنى من هذا الحكم الفلسطينيون، الذين يعيشون حياة البؤس في المخيمات التعيسة. لبنان وهو أصغر بلد عربي، أُجبر على استقبال أكبر عدد من الفلسطينيين، فمن الطبيعي أن لا يستطيع لبنان أن يستوعب هذا العدد الضخم بالنسبة لسكانه ومن الصعب تأمين حياة لائقة لهم). وكانت الطبقة المتوسطة هي الطبقة الغالبة عددياً، ولكن الحرب اللبنانية أحدثت زلزالاً في الاقتصاد اللبناني وبالتالي في المجتمع اللبناني نفسه، ولنَعُدْ إلى الوراء لنرى كيف كان اللبنانيون يعيشون في حياة البساطة.

في بداية القرن العشرين، لم يكن هناك مشاريع اقتصادية ذات أهمية تجارية تُذكر، لا زراعية ولا صناعية، وكان الاقتصاد يقوم على النشاط الفردي، بمشاريع صغيرة هدفها الاكتفاء الذاتي من الحاجات الضرورية، خاصة أن متطلبات الحياة كانت جد بسيطة. «الزراعة وهي العمل الاقتصادي الرئيسي الذي يتعاطاه أكثر سكان لبنان فقد كانت على مستوى بدائي ضيق يكفل للفلاح قوته اليومي. أي أن الزراعة لم تكن عملاً اقتصادياً من النوع التجاري الذي يكفل للمرء طعامه وأرباحاً أخرى لسد حاجاته الأخرى. ولكن في سهل البقاع حيث التربة خصبة والماء متوفر كان الفلاح يكسب عيشه وعيش عياله. أما الصناع فكانوا صناع قرى، أي أن إنتاجهم لم يكن يتعدى استهلاك أهل قريتهم. وكان لكل بيت نول يدوي لحياكة ما يحتاجون إليه من

الأقمشة. وكانت علاقاتهم التجارية تجري على أساس الجوار الودي ذاته، إن لم نقل العائلي، الذي كانت تجري عليه علاقاتهم الاجتماعية في القرية. وكانت التجارة تجري على أساس شخصي يتميز بالتعاون والثقة»[1]. هذه الحياة البسيطة والسيعدة انتهت، مع قدوم المنتوجات الصناعية الأجنبية، وبدء التجارة بين الشرق والغرب.

الزراعة كانت النشاط الأساسي والأهم وتشغل عمل أغلب سكان لبنان، بعكس الفكرة الشائعة، التي تقول بأن التجارة هي الأساس في الاقتصاد اللبناني. إلى جانب المزروعات الاستهلاكية، كان الاهتمام بتربية دودة القز، لذلك نرى بعض بقايا شجر التوت حتى يومنا هذا، وزراعة التبغ، واستغلال منتوج شجرة الزيتون.

في إحصاء لمنتوجات سوريا ولبنان في بداية القرن كتب ألبير لوندر سنة ١٩٢٦ يقول: «ثلاثة ملايين هكتار من الأرض صالحة للزراعة، ستة عشر مليون شجرة مُثمرة، ثلاثة ملايين شجرة زيتون. محصول التبغ ثلاثة آلاف طن، ثلاثة ملايين كيلو من شرانق دودة القز، وتصدر سوريا من القطن ثلاثين ألف كيس سنوياً» (Cables et Réportages PP. 754). الأرض الزراعية اللبنانية صالحة لإنتاج جميع أنواع الخضار والفواكه وذلك عائد إلى تنوع التربة واختلاف المناخ حسب الارتفاع، من السهول الساحلية الضيقة إلى منحدرات الجبال وسفوح الجبال، وخاصة إلى سهل البقاع حيث التربة الخصبة.

في منطقة بعلبك، كان هناك دائماً إنتاج للمزروعات الممنوعة ولكنها زادت بشكل ملحوظ أيام الحرب. حالة الفقر والحرمان دفعت بالمزارعين البعلبكيين إلى زراعة الحشيش والأفيون، والواقع أن منطقة بعلبك هي المنطقة اللبنانية الأكثر حرماناً من المشاريع الإنتاجية والخدمات العامة، وهي مُهملة ولا ندري إن كان ذلك عن قصد أو غير قصد، نظراً لكون أهلها من طائفة مُعينة. ويكفي أن نشير إلى أن طريق بعلبك ـ حمص هي نفس الطريق التي بناها الفرنسيون أيام الانتذاب! بعلبك المدينة من أشهر مدن لبنان لا بل الشرق بآثاراتها الرومانية، ولكن لا يوجد أي مشروع سياحي

---

(١) د. فيليب حتى «تاريخ العرب». ص ٥٧٢.

في المدينة، فهي تفتقر إلى جميع الخدمات السياحية من فنادق ومقاهي حديثة ومطاعم ومحلات سياحية واستراحات، وفي غياب الاهتمام الرسمي وغياب التخطيط العمراني، شُوهت المدينة بالبناء العشوائي وأصبح الزائر إليها يتخيل نفسه وكأنه خارج لبنان، علماً أن وجود مثل هذه المشاريع، يخلق فرص عمل وينشط التجارة، ويطور من صناعة المنتوجات اليدوية ويرفع من مستوى معيشة سكانها ويحميهم من أن يقعوا ضحية الإيديوليجيات المتطرفة!

استطاعت الضغوطات الدولية، وبالذات الأميركية، أن تؤثر على السلطات السورية واللبنانية، حيث قررا محاربة هذه الزراعة واستطاعا القضاء عليها نهائياً بعد سنة ١٩٩٣، وخسرت المنطقة مدخولها الأساسي من العملات (مدخول غير منظور) مما زادها فقراً، خاصةً أنه لم يُعَوَّض على الخاسرين من المزارعين في إيجاد زراعات بديلة.

نظرة سريعة للقطاع الزراعي نرى أن لبنان لم يستغل هذا القطاع كما يجب ولم يعطه الاهتمام الوجب، فليس هناك تخطيط أو سياسة زراعية، ولا هناك أي توجيه للمزارعين، ولا تزال الزراعة بدائية، لم تدخلها المكننة وطرق الري الحديثة والأدوية الضرورية، والفلاحون لا يستفيدون من التطور العلمي في هذا المجال، ولا زالوا يستعملون طرق الآباء والأجداد، فلذلك نسبة الإنتاج للدنم الواحد لا يوازي نصف إنتاج نفس المساحة المستغلة علمياً، ومدخول المزارع اللبناني مُتدني جداً ولا يكفي لحياة لائقة، وهو لا يستفيد من الضمان الاجتماعي، والقرى تفتقر لمراكز صحية واجتماعية وترفيهية، وإن وجدت فهي شبه خالية من المعدات والضروريات. ومن آفات المجتمع الزراعي، تقاسم الأراضي بين الورثة إلى ما لا حدود له. وهكذا تقل المساحة لتصبح غير كافية للاستغلال الزراعي، ففي إحصاء زراعي للعام ١٩٨٢ م تبين أنه يوجد ٦٤,٠٠٠ مزرعة في لبنان وفقط ٥٠ مزرعة مساحاتها بين الـ ١٠٠ والـ ١٠٠٠ هكتار! لقد أصبح من الضروري وضع قانون يُحدد الحد الأدنى للمساحات القابلة للتقسيم.

لو أُخذت كل هذه التدابير لتوقفت الهجرة نحو المدينة وبالذات بيروت، التي

أصبحت مُحاصرة بحزام البؤس؛ لقد امتصت مشاريع البناء في العاصمة قسماً من اليد العاملة الشابة، ولكن هل تصورنا لحظة، مصير هؤلاء العمال عند انتهاء هذه المشاريع؟

ماذا عملت الدولة من مشاريع في القرى، لتشجع الشباب على البقاء والعمل في المجال الزراعي؟ ٨٨ بالمئة من المزارعين يزيد متوسط العمر لديهم على ٦٠ سنة! «لقد هبط عدد المزارعين من ١٢٧,٠٠٠ مزارع سنة ١٩٧٠ إلى ٦٤,٠٠٠ مزارع سنة ١٩٨١»[1]. والمساحات المزروعة هبطت من ٣٥٠,٠٠٠ هكتار إلى ٢٧٥,٠٠٠ هكتار. بنك التسليف الزراعي الذي تقرر في سنة ١٩٧٧ لم يبدأ عمله بعد!

البناء العشوائي يأكل المساحات الزراعية المنتجة خاصة في السهول الساحلية، وإذا لم توضع وتطبق سياسة زراعية متكاملة، فسيخسر لبنان إمكانية الإنتاج والاكتفاء الذاتي، ويضطر لاستيراد المنتوجات الزراعية، في حين أن مناخه وأرضه تؤهلانه ليكون البلد الزراعي الأول في الشرق الأوسط.

صيد الأسماك ليس بأفضل من الزراعة، فهو مُهمل أيضاً، والتلوث واستعمال الديناميت قضى على الثروة السمكية، وهذا القطاع بدوره بحاجة إلى تنظيم.

أما الصناعات الثقيلة، فهي معدومة الوجود لافتقار التربة من المواد الأولية، والصناعات الموجودة هي صناعات تحويلية، وصناعات خفيفة مثل: صناعات غذائية، أنسجة، خشبية، كرتونية، صناعة الورق، صناعات بلستيكية، كيميائية، أدوات صحية وصناعة الثياب، ويقدر عدد العاملين في هذا القطاع بحوالي ١٤٠,٠٠٠ عامل، وتقدر الصادرات الصناعية بـ ٩٠ بالمئة من الصادرات اللبنانية، التي تُصدر خاصة إلى دول الخليج العربي، العربية السعودية، سوريا، الكويت والأردن. ولكن للأسف فإن الاستيراد الصناعي يوازي خمسة أضعاف الكمية المصدرة، والمدخول العائد من قطاعي الزراعة والصناعة يساوي ٣٠ بالمئة من المدخول الوطني، ويعمل

---

(١) Gérard figuie. édition «le point sur le Liban 96» pp 139.

في هذين القطاعين ٥٢ بالمئة من اليد العاملة اللبنانية.

وبالرغم من وجود لبنان في منطقة الشرق الأوسط المعروفة بغناها في البترول، فلبنان يفتقر إلى هذه المادة، والتنقيب في منطقة بعلبك لم يكشف عن وجود الذهب الأسود، ولا يزال لبنان يستورد البترول بأسعار منخفضة من الدول العربية المنتجة المجاورة والدول الشرقية بالرغم من وجود مصفاتين للبترول الأولى في طرابلس والثانية في الزهراني.

- **مصفاة طرابلس**: بناها الفرنسيون في الأربعينات، وأعطيت إلى لبنان سنة ١٩٤٥ م. والحكومة اللبنانية باعتها إلى الشركة العراقية للبترول «Irak Petrolium Company IPC»، وعندما قرر العراق تأميم الشركة أممت سوريا بدورها خط الأنابيب الذي يمر في أرضها، وقررت الحكومة اللبنانية بدورها تأميم المصفاة. الخلاف بين الشركة من جهة وبين لبنان وسوريا من جهة أخرى لا يزال قائماً ولم يُحسم بعد، والشركة لا تزال تنتظر التعويض. كانت المصفاة تكرر حوالي ٣٥,٠٠٠ برميل من البترول الخام، والآن فهي بالكاد تعمل بنسبة ٤٠ بالمئة من إمكانيتها ولا تكرر أكثر من ٢٠,٠٠٠ برميل!

- **مصفاة الزهراني**: أنشئت سنة ١٩٥٥ من قبل: شركة مدكو «Campagnie Méditerranéenne de Raffinerie»، موبيل أويل «Mobil Oil» وكالتكس «Caltex Petrolium Coorporation» ويصلها البترول الخام من المملكة العربية السعودية، بواسطة أنابيب التابلاين «Trans - Arabian - pipeline». ولكن بعد سنة ١٩٧٠ م تبين أن تكاليف البترول الخام المنقول بواسطة البواخر هو أرخص من تكاليف وصول البترول عبر الأنابيب، فاستغني عنها، وقلّت الكمية المنقولة بواسطة هذه الأنابيب إلى النصف، وأوقفت المملكة العربية السعودية الضخ عدة مرات بين سنة ١٩٧٥ وسنة ١٩٨١ لعدم تسديد الفواتير من قبل الحكومة اللبنانية!

القصف «الإسرائيلي» سبب أضراراً في المصفاة سنة ١٩٨١. وفي اجتياح ١٩٨٢ أكمل «الإسرائيليون» تخريبهم للمصفاة، وأصبحت غير صالحة للعمل، ومُنذ ذلك التاريخ ومصفاة الزهراني لا يصلها البترول الخام لا ضخاً ولا نقلاً بالبواخر. وفي

سنة ١٩٨٩ قررت الحكومة اللبنانية إصلاح المصفاة التي كلفت الخزينة ٢٠ مليون دولار.

ولا يزال لبنان، بالرغم من وجود هاتين المصفاتين، يستورد المشتقات البترولية من سوريا وبعض الدول العربية، فهو بحاجة لهذه المحروقات لتشغيل معملي الذوق والجية لإنتاج الكهرباء، وهذان المعملان أصبحا هدفاً للطيران «الإسرائيلي» وخاصة معمل الجية، تنتقم «إسرائيل» منه كلما تلقت ضربة موجعة من قبل المقاومة الوطنية! لتقطع الكهرباء والنور عن اللبنانيين جميعاً بدون تمييز طائفي!

لن نستعرض بالتفصيل جميع القطاعات الاقتصادية ومشاكلها وهي كثيرة، بل سنكتفي بهذا القدر ونختتم موضوع الاقتصاد بالكتابة عن القطاع المصرفي.

تعمل في هذا القطاع، وهو من القطاعات القليلة المربحة في لبنان، نسبة مرتفعة من اليد العاملة، ويقدر إنتاجه مع قطاع البناء والتجارة بـ ٤٥ بالمئة من الدخل الوطني. يتمتع القطاع المصرفي اللبناني بثقة وشهرة محلية وعالمية، وقد حافظ على ثقة المودعين حتى إبان الحرب الأخيرة، لأنه استطاع التأقلم مع الأحداث وحافظ على سهولة وليونة المعاملات المصرفية، وذلك عائد إلى خبرات المصرفيين اللبنانيين، فاستطاعوا المحافظة على زبائنهم لأنهم تواجدوا معهم حيث وجدوا في الاغتراب القصري، فكانت تتم معاملات التحويل بكل سهولة وسرعة وبالعملة التي يريدها المودع، والمغترب كان يتمم معاملاته أينما وجد وبنفس السهولة في باريس، لندن أو مونتريال. هذه الليونة والتأقلم جعلت القطاع المصرفي يخرج من الحرب بأقل خسائر ممكنة.

اعتمدت الحكومة اللبنانية، على أثر إفلاس بنك أنترا وإغلاق عدة بنوك، سياسة مصرفية جديدة واعتمدت السرية المصرفية، فأصبح لبنان البلد الوحيد في العالم من جهة الاحترام المطلق للسرية المصرفية والتي اعتمدها سنة ١٩٥٦ م.، لأن سويسرا نفسها لم تستطع المحافظة على السرية المصرفية محافظة كاملة، فاستطاعت بعض الحكومات الأوروبية الحصول على أرقام حسابات رعاياها. كما أن الدولة اللبنانية تحمي حسابات التوفير إلى حدود الخمس ملايين ليرة لبنانية حسب القيمة

الشرائية يوم اتخاذ القرار.

كما أن العملة اللبنانية مغطاة بـ ٩,٢ مليون أونصة ذهبية، ٥٥ بالمئة منها مُحتفظ بها في البنك المركزي اللبناني و٤٥ بالمئة موجود في الولايات المتحدة الأميركية في فور كنوكس Fort Knox. كل هذه العوامل ساعدت على تنشيط القطاع المصرفي اللبناني.

يراقب البنك المركزي اللبناني نشاط ٨٠ مؤسسة مالية منها:

- ٥٠ مصرف لبناني.
- ٩ فروع لمصارف عربية.
- ٥ مصارف عربية.
- ٧ مصارف أجنبية.
- ٥ فروع لمصارف أجنبية.
- ٤ مصارف اعتماد متوسط وطويل الأجل.

يعمل في القطاع المصرفي، حسب تقديرات سنة ١٩٩٥ م. حوالي ١٥,٠٠٠ موظف، وبعد توقف الحرب عاد النشاط إلى هذا القطاع من جديد، وعادت رؤوس الأموال اللبنانية والعربية وحتى الأوروبية إلى لبنان، فأصبحت من جديد تمر الأموال العربية وأموال المغتربين بالمصارف اللبنانية لتسديد فواتير البضائع الأوروبية أو للاستثمار في الدول الصناعية. «... إلى أن وصلنا إلى هذا التناقض، وهو أنه ينقص الدولة اللبنانية الأموال اللازمة للمشاريع الاجتماعية، بينما القطاع المصرفي يعطي قروضاً دولية للشركات الفرنسية مثل شركة رينو للسيارات (Renault)»[١].

كان الترانزيت من موارد لبنان الاقتصادية لأن مرفأ بيروت كان نقطة اتصال الداخل العربي بالبحر الأبيض المتوسط، ومن خلاله تمر البضائع إلى سوريا، الأردن والعراق. وكان لبنان يستوفي الرسوم الجمركية على هذه البضائع ويغذي خزينة الدولة، فجاءت الحرب لتقضي على هذا المدخول المهم واستولت الميليشيات على

---

(١) Elizabeth Picard «Liban Etat de discorde» PP 151.
نقلاً عن S. Nasr «The crisis of the Lebanese Capitalis, déce, bre 1978 PP 4.

المرفأ فانتهى عصره الذهبي. والآن وبعد عودته إلى الشرعية وبالرغم من تحديثه، فمن الصعب أن يستعيد دوره السابق خاصة أنه أصبح عرضة لمزاحمة مرفأ اللاذقية.

مورد آخر مهم انقرض نهائياً من جراء الحرب وهو مورد القطاع السياحي. فقد انعدمت السياحة كلياً وأصبحت منطقة الفنادق في العاصمة والمدن السياحية الجبلية ساحة حرب وأصابها الكثير من الخراب، وكذلك على لبنان القيام بمجهود خاص في هذا القطاع ليقاوم المنافسة الشديدة في هذا المجال مع الدول المحيطة: قبرص، تركيا، سوريا والأردن.

وفي تحقيق صحفي عن لبنان لبياتريس كومت «Béatrice Comte. Le Figaro Magazine. Samedi 2 Novembre 1996 PP. 56» نقرأ ما يلي: «من جونية وعلى مسافة ٢٠ كلم شمالي بيروت إلى ما بعد خلدة جنوبي المطار، البناء متلاصق وبشكل متواصل. غابات الباطون والأبنية الخاوية من أي تنسيق، حلَّت مكان بساتين الليمون المعطرة والحقول، والمجمعات البحرية ذات المستوى ـ دوليكس ـ نبتت كالدرنات على وجه الشاطىء، مخبأة وراء الجدران تحرسها أشباك الحديد. الشواطىء أصبحت خراباً وضاعت رائحة البحر أمام رائحة المازوت وغاز السيارات. لم يعد للمدينة في الداخل حدوداً معينة، المناطق القريبة مثل سن الفيل، بعبدا وبيت مري وقعت في شباك العاصمة العملاقة (٦٠٠ كلم مربع). التلال الخضراء اختفت تحت الباطون المنتشر في كل مكان».

البناء يتزايد بغياب أي مراقبة وأي شروط، وبدون تخطيط بلدي، والدولة اللبنانية تمثل توازناً حساساً ودقيقاً بين مختلف زعماء الطوائف، تأخذ القليل من الضرائب، وبالتالي ليس لها الكثير من الإمكانيات. وليس هناك لا الإرادة السياسية ولا الإمكانيات الإدارية لفرض أي قاعدة كانت على أي كان، حتى القليل من القوانين الموجودة قل ما تطبق، ويكفي ـ وبطريقة شرعية ـ (شراؤها) بمجرد دفع مخالفة (الفرد هو قبل الأمة)؛ وللأسف ليست هذه حالة المدن فقط، حتى الجبل طالها التشويه، لأن البعض بحاجة إلى رمال فلا مانع من أن ننهش في جسم جبل لبنان (طريق فاريا وطريق لاسا) حتى أصبح من الصعب التصور أنه كان يوجد هنا قمة جبل

ومراعي وينابيع، وقد أصبحنا بعيدين عن الصورة الجميلة التي رسمها لامارتين عن لبنان وجبل لبنان، حين قال إنه لم ير في العالم كله منظراً أثر في نفسه مثل مناظر لبنان، جبال لبنان هي جبال الألب (Alpes) تحت سماء الشرق!

اللائحة طويلة وتعدادها ممل وسنتوقف هنا لنذكر بما يحلو للبنانيين ترداده: قصة الخبير البلجيكي بول فان زيلند Paul Van Zeeland عندما كلف بدراسة الاقتصاد اللبناني، فقال ما معناه أن هذا الاقتصاد لا يتطابق مع القوانين الاقتصادية المعروفة، وحسب هذه القوانين ليس هناك من وجود إيجابي للاقتصاد اللبناني، ومع ذلك «عندكم أرفع مستوى معيشي في المنطقة، فابقوا كما أنتم». وأظن أن القيِّمون على الاقتصاد اللبناني تقيدوا فعلاً بهذه النصيحة، لأنهم بصورة إجمالية تركوا الأمور الاقتصادية تتفاعل بدون تخطيط أو توجيه!

بعد هذه الحرب الطويلة والضحايا العديدة عند جميع الطوائف اللبنانية والخسائر المادية الفادحة، يستحق لبنان أكثر من مجرد إصلاح نظامه السياسي والاقتصادي، فهو بحاجة إلى تغيير جذري وكلي لنظامه الطائفي وبناء لبنان الحديث بإرادة جميع أبنائه بالحوار الهادىء وعلى أُسس عصرية حديثة فوقية تنمي الانتماء الوطني لا الطائفي. ولبنان غني بالأدمغة التي نجحت حيث فشل الآخرون وهي قادرة على إيجاد النظام الملائم لوطنها شرط أن تعطى حق الكلام.

لأنه كما بيّنا، فإن الطائفية تفرز دفاعاتها الذاتية وتحمي نفسها بنفسها، وتمتد جذورها وتمتص دفاعات المجتمع وتعمل به كالسرطان، وإن لم تعالج بسرعة وجذرياً فنهاية المجتمع للأسف معروفة مسبقاً.



وثيقة
الوفاق الوطني اللبناني



وثيقة
الوفاق الوطني اللبناني

أولاً: المبادىء العامة والإصلاحات

١ ـ المبادىء العامة

أ ـ لبنان وطن سيد حر مستقل، وطن نهائي لجميع أبنائه، واحد أرضاً وشعباً ومؤسسات، في حدوده المنصوص عنها في الدستور اللبناني والمعترف بها دولياً.

ب ـ لبنان عربي الهوية والانتماء، وهو عضو مؤسس وعامل في جامعة الدول العربية وملتزم بمواثيقها، كما هو عضو مؤسس وعامل في منظمة الأمم المتحدة وملتزم بميثاقها. وهو عضو في حركة عدم الانحياز. وتجسد الدولة اللبنانية هذه المبادىء في جميع الحقول والمجالات دون استثناء.

ج ـ لبنان جمهورية ديمقراطية برلمانية، تقوم على احترام الحريات العامة، وفي طليعتها حرية الرأي والمعتقد، وعلى العدالة الاجتماعية والمساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين دون تمايز أو تفضيل.

د ـ الشعب مصدر السلطات وصاحب السيادة يمارسها عبر المؤسسات الدستورية.

هـ ـ النظام قائم على مبدأ الفصل بين السلطات وتوازنها وتعاونها.

و ـ النظام الاقتصادي حر يكفل المبادرة الفردية والملكية الخاصة.

ز ـ الإنماء المتوازن للمناطق ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً ركن أساسي من أركان وحدة الدولة واستقرار النظام.

ح ـ العمل على تحقيق عدالة اجتماعية شاملة من خلال الإصلاح المالي والاقتصادي والاجتماعي.

ط ـ أرض لبنان أرض واحدة لكل اللبنانيين. فلكل لبناني الحق في الإقامة على أي جزء منها والتمتع به في ظل سيادة القانون، فلا فرز للشعب على أساس أي انتماء كان. ولا تجزئة ولا تقسيم ولا توطين.

ي ـ لا شرعية لأيِّ سلطة تناقض ميثاق العيش المشترك.

٢ ـ الإصلاحات السياسية:

أ ـ مجلس النواب:

مجلس النواب هو السلطة التشريعية يمارس الرقابة الشاملة على سياسة الحكومة وأعمالها:

١ ـ ينتخب رئيس المجلس ونائبه لمدة ولاية المجلس.

٢ ـ للمجلس ولمرة واحدة بعد عامين من انتخاب رئيسه ونائب رئيسه وفي أول جلسة يعقدها أن يسحب الثقة من رئيسه أو نائبه بأكثرية الثلثين من مجموع أعضائه بناء على عريضة يوقعها عشرة نواب على الأقل. وعلى المجلس في هذه الحالة أن يعقد على الفور جلسة لملء المركز الشاغر.

٣ ـ كل مشروع قانون يحيله مجلس الوزراء إلى مجلس النواب، بصفة المعجل، لا يجوز إصداره إلاَّ بعد إدراجه في جدول أعمال جلسة عامة وتلاوته فيها، ومضي المهلة المنصوص عنها في الدستور دون أن يبت به، وبعد موافقة مجلس الوزراء.

٤ ـ الدائرة الانتخابية هي المحافظة.

٥ ـ إلى أن يضع مجلس النواب قانون انتخاب خارج القيد الطائفي توزع المقاعد النيابية وفقاً للقواعد الآتية:

أ ـ بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين.

ب ـ نسبياً بين طوائف كل من الفئتين.

جـ ـ نسبياً بين المناطق.

٦ ـ يزاد عدد أعضاء مجلس النواب إلى (١٠٨) مناصفة بين المسيحيين والمسلمين. أما المراكز المستحدثة، على أساس هذه الوثيقة، والمراكز التي شغرت قبل إعلانها، فتملأ بصورة استثنائية ولمرة واحدة بالتعيين من قبل حكومة الوفاق الوطني المزمع تشكيلها.

٧ ـ مع انتخاب أول مجلس نواب على أساس وطني لا طائفي يستحدث مجلس للشيوخ تتمثل فيه جميع العائلات الروحية وتنحصر صلاحياته في القضايا المصيرية.

ب ـ رئيس الجمهورية.

رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة ورمز وحدة الوطن. يسهر على احترام الدستور والمحافظة على استقلال لبنان ووحدته وسلامة أراضيه وفقاً لأحكام الدستور. وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة التي تخضع لسلطة مجلس الوزراء. ويمارس الصلاحيات الآتية:

١ ـ يترأس مجلس الوزراء عندما يشاء دون أن يصوت.

٢ ـ يرئس المجلس الأعلى للدفاع.

٣ ـ يصدر المراسيم ويطلب نشرها. وله حق الطلب إلى مجلس الوزراء إعادة النظر في أي قرار من القرارات التي يتخذها المجلس خلال خمسة عشر يوماً من تاريخ إيداعه رئاسة الجمهورية. فإذا أصر مجلس الوزراء على القرار المتخذ أو انقضت المهلة دون إصدار المرسوم أو إعادته يعتبر المرسوم أو القرار نافذاً حكماً ووجب نشره.

٤ ـ يصدر القوانين وفق المهل المحددة في الدستور ويطلب نشرها بعد إقرارها في مجلس النواب، كما يحق له بعد اطلاع مجلس الوزراء طلب إعادة النظر في القوانين ضمن المهل المحددة في الدستور ووفقاً لأحكامه، وفي حال انقضاء المهل دون إصدارها أو إعادتها تعتبر القوانين نافذة حكماً ووجب نشرها.

٥ ـ يحيل مشاريع القوانين، التي ترفع إليه من مجلس الوزراء، إلى مجلس النواب.

٦ ـ يسمي رئيس الحكومة المكلف بالتشاور مع رئيس مجلس النواب استناداً إلى استشارات نيابية ملزمة يطلعه رسمياً على نتائجها.

٧ ـ يصدر مرسوم تسمية رئيس مجلس الوزراء منفرداً.

٨ ـ يصدر بالاتفاق مع رئيس مجلس الوزراء مرسوم تشكيل الحكومة.

٩ ـ يصدر المراسيم بقبول استقالة الحكومة أو استقالة الوزراء أو إقالتهم.

١٠ ـ يعتمد السفراء ويقبل اعتمادهم. ويمنح أوسمة الدولة بمرسوم.

١١ ـ يتولى المفاوضة في عقد المعاهدات الدولية وإبرامها بالاتفاق مع رئيس الحكومة. ولا تصبح نافذة إلاّ بعد موافقة مجلس الوزراء. وتطلع الحكومة

مجلس النواب عليها حينما تمكنها من ذلك مصلحة البلاد وسلامة الدولة. أما المعاهدات التي تنطوي على شروط تتعلق بمالية الدولة والمعاهدات التجارية وسائر المعاهدات التي لا يجوز فسخها سنة فسنة، فلا يمكن إبرامها إلاّ بعد موافقة مجلس النواب.

١٢ ـ يوجه عندما تقتضي الضرورة رسائل إلى مجلس النواب.

١٣ ـ يدعو مجلس النواب بالاتفاق مع رئيس الحكومة إلى عقد دورات استثنائية بمرسوم.

١٤ ـ لرئيس الجمهورية حق عرض أي أمر من الأمور الطارئة على مجلس الوزراء من خارج جدول الأعمال.

١٥ ـ يدعو مجلس الوزراء استثنائياً كلما رأى ذلك ضرورياً بالاتفاق مع رئيس الحكومة.

١٦ ـ يمنح العفو الخاص بمرسوم.

١٧ ـ لا تبعة على رئيس الجمهورية حال قيامه بوظيفته إلاّ عند خرقه الدستور أو في حال الخيانة العظمى.

ج ـ رئيس مجلس الوزراء

رئيس مجلس الوزراء هو رئيس الحكومة يمثلها ويتكلم باسمها، ويعتبر مسؤولاً عن تنفيذ السياسة العامة التي يضعها مجلس الوزراء. يمارس الصلاحيات الآتية:

١ ـ يرئس مجلس الوزراء.

٢ ـ يجري الاستشارات النيابية لتشكيل الحكومة ويوقع مع رئيس الجمهورية مرسوم تشكيلها. وعلى الحكومة أن تتقدم من مجلس النواب ببيانها الوزاري لنيل الثقة في مهلة ثلاثين يوماً. ولا تمارس الحكومة صلاحياتها قبل نيلها الثقة ولا بعد استقالتها ولا اعتبارها مستقيلة إلاّ بالمعنى الضيق لتصريف الأعمال.

٣ ـ يطرح سياسة الحكومة العامة أمام مجلس النواب.

٤ ـ يوقع جميع المراسيم، ما عدا مرسوم تسمية رئيس الحكومة ومرسوم قبول استقالة الحكومة أو اعتبارها مستقيلة.

٥ ـ يوقع مرسوم الدعوة إلى فتح دورة استثنائية ومراسيم إصدار القوانين، وطلب إعادة النظر فيها.

٦ ـ يدعو مجلس الوزراء للانعقاد ويضع جدول أعماله، ويطلع رئيس الجمهورية مسبقاً على المواضيع التي يتضمنها، وعلى المواضيع الطارئة التي ستبحث، ويوقع المحضر الأصولي للجلسات.

٧ ـ يتابع أعمال الإدارات والمؤسسات العامة وينسق بين الوزراء، ويعطي التوجيهات العامة لضمان حسن سير العمل.

٨ ـ يعقد جلسات عمل مع الجهات المختصة في الدولة بحضور الوزير المختص.

٩ ـ يكون حكماً نائباً لرئيس المجلس الأعلى للدفاع.

د ـ مجلس الوزراء.

تناط السلطة الإجرائية بمجلس الوزراء. ومن الصلاحيات التي يمارسها.

١ ـ وضع السياسة العامة للدولة في جميع المجالات ووضع مشاريع القوانين والمراسيم، واتخاذ القرارات اللازمة لتطبيقها.

٢ ـ السهر على تنفيذ القوانين والأنظمة والإشراف على أعمال كل أجهزة الدولة من إدارات ومؤسسات مدنية وعسكرية وأمنية بلا استثناء.

٣ ـ إن مجلس الوزراء هو السلطة التي تخضع لها القوات المسلحة.

٤ ـ تعيين موظفي الدولة وصرفهم وقبول استقالتهم وفق القانون.

٥ ـ الحق بحل مجلس النواب بناء على طلب رئيس الجمهورية، إذا امتنع مجلس النواب عن الاجتماع طوال عقد عادي أو استثنائي لا تقل مدته عن الشهر بالرغم من دعوته مرتين متواليتين أو في حال رده الموازنة برمتها بقصد شل يد الحكومة عن العمل. ولا يجوز ممارسة هذا الحق للأسباب نفسها التي دعت إلى حل المجلس في المرة الأولى.

٦ ـ عندما يحضر رئيس الجمهورية يترأس جلسات مجلس الوزراء.

مجلس الوزراء يجتمع دورياً في مقر خاص. ويكون النصاب القانوني لانعقاده هو أكثرية ثلثي أعضائه. ويتخذ قراراته توافقياً، فإذا تعذر ذلك فبالتصويت. تتخذ

القرارات بأكثرية الحضور. أما المواضيع الأساسية فإنها تحتاج إلى موافقة ثلثي أعضاء مجلس الوزراء. ويعتبر مواضيع أساسية ما يأتي:

حالة الطوارىء وإلغاؤها، الحرب والسلم، التعبئة العامة، الاتفاقيات والمعاهدات الدولية، الموازنة العامة للدولة، الخطط الإنمائية الشاملة والطويلة المدى، تعيين موظفي الفئة الأولى وما يعادلها، إعادة النظر بالتقسيم الإداري، حل مجلس النواب، قانون الانتخابات، قانون الجنسية، قوانين الأحوال الشخصية، إقالة الوزراء.

هـ ـ الوزير.

تعزز صلاحيات الوزير بما يتفق مع السياسة العامة للحكومة ومع مبدأ المسؤولية الجماعية ولا يقال من منصبه إلاّ بقرار من مجلس الوزراء، أو بنزع الثقة منه إفرادياً في مجلس النواب.

و ـ استقالة الحكومة واعتبارها مستقيلة وإقالة الوزراء

١ ـ تعتبر الحكومة مستقيلة في الحالات التالية:

أ ـ إذا استقال رئيسها.

ب ـ إذا فقدت أكثر من ثلث عدد أعضائها المحدد في مرسوم تشكيلها.

ج ـ بوفاة رئيسها.

د ـ عند بدء ولاية رئيس الجمهورية.

هـ ـ عند بدء ولاية مجلس النواب.

و ـ عند نزع الثقة منها من قبل المجلس النيابي بمبادرة منه أو بناء على طرحها الثقة.

٢ ـ تكون إقالة الوزير بمرسوم يوقعه رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة بعد موافقة مجلس الوزراء.

٣ ـ عند استقالة الحكومة أو اعتبارها مستقيلة يعتبر مجلس النواب حكماً في دورة انعقاد استثنائية حتى تأليف حكومة جديدة ونيلها الثقة.

ز ـ إلغاء الطائفية السياسية

إلغاء الطائفية السياسية هدف وطني أساسي يقتضي العمل على تحقيقه وفق خطة مرحلية، وعلى مجلس النواب المنتخب على أساس المناصفة بين المسلمين والمسيحيين اتخاذ الإجراءات الملائمة لتحقيق هذا الهدف وتشكيل هيئة وطنية برئاسة رئيس الجمهورية، تضم بالإضافة إلى رئيس مجلس النواب ورئيس مجلس الوزراء شخصيات سياسية وفكرية واجتماعية. مهمة الهيئة دراسة واقتراح الطرق الكفيلة بإلغاء الطائفية وتقديمها إلى مجلسي النواب والوزراء ومتابعة تنفيذ الخطة المرحلية.

ويتم في المرحلة الانتقالية ما يلي:

أ ـ إلغاء قاعدة التمثيل الطائفي واعتماد الكفاءة والاختصاص في الوظائف العامة والقضاء والمؤسسات العسكرية والأمنية والمؤسسات العامة والمختلطة والمصالح المستقلة وفقاً لمقتضيات الوفاق الوطني باستثناء وظائف الفئة الأولى فيها وفي ما يعادل الفئة الأولى فيها وتكون هذه الوظائف مناصفة بين المسيحيين والمسلمين دون تخصيص أية وظيفة لأية طائفة.

ب ـ إلغاء ذكر الطائفة والمذهب في بطاقة الهوية.

٣ ـ الإصلاحات الأخرى.

أ ـ اللامركزية الإدارية

١ ـ الدولة اللبنانية دولة واحدة موحدة ذات سلطة مركزية قوية.

٢ ـ توسيع صلاحيات المحافظين والقائمقامين وتمثيل جميع إدارات الدولة في المناطق الإدارية على أعلى مستوى ممكن تسهيلاً لخدمة المواطنين وتلبية لحاجاتهم محلياً.

٣ ـ إعادة النظر في التقسيم الإداري بما يؤمن الانصهار الوطني وضمن الحفاظ على العيش المشترك ووحدة الأرض والشعب والمؤسسات.

٤ ـ اعتماد اللامركزية الإدارية الموسعة على مستوى الوحدات الإدارية الصغرى (القضاء وما دون) عن طريق انتخاب مجلس لكل قضاء يرئسه القائمقام، تأميناً

للمشاركة المحلية.

٥ ـ اعتماد خطة إنمائية موحدة شاملة للبلاد قادرة على تطوير المناطق اللبنانية وتنميتها اقتصادياً واجتماعياً، وتعزيز موارد البلديات والبلديات الموحدة والاتحادات البلدية بالإمكانات المالية اللازمة.

ب ـ المحاكم.

أ ـ ضماناً لخضوع المسؤولين والمواطنين جميعاً لسيادة القانون وتأميناً لتوافق عمل السلطتين التشريعية والتنفيذية مع مسلمات العيش المشترك وحقوق اللبنانيين الأساسية المنصوص عنها في الدستور:

١ ـ يشكَّل المجلس الأعلى المنصوص عنه في الدستور ومهمته محاكمته الرؤساء والوزراء. ويُسنّ قانون خاص بأصول المحاكمات لديه.

٢ ـ يُنشأ مجلس دستوري لتفسير الدستور ومراقبة دستورية القوانين والبت في النزاعات والطعون الناشئة عن الانتخابات الرئاسية والنيابية.

٣ ـ للجهات الآتي ذكرها حق مراجعة المجلس الدستوري في ما يتعلق بتفسير الدستور ومراقبة دستورية القوانين:

أ ـ رئيس الجمهورية.

ب ـ رئيس مجلس النواب.

جـ ـ رئيس مجلس الوزراء.

د ـ نسبة معينة من أعضاء مجلس النواب.

ب ـ تأميناً لمبدأ الانسجام بين الدين والدولة يحق لرؤساء الطوائف اللبنانية مراجعة المجلس الدستوري في ما يتعلق بـ:

١ ـ الأحوال الشخصية.

٢ ـ حرية المعتقد وممارسة الشعائر الدينية.

٣ ـ حرية التعليم الديني.

ج ـ تدعيماً لاستقلال القضاء: ينتخب عدد معين من أعضاء مجلس القضاء الأعلى من قبل الجسم القضائي.

ج ـ قانون الانتخابات النيابية

تجري الانتخابات النيابية وفقاً لقانون انتخاب جديد على أساس المحافظة، يراعي القواعد التي تضمن العيش المشترك بين اللبنانيين وتؤمن صحة التمثيل السياسي لشتى فئات الشعب وأجياله وفعالية ذلك التمثيل، بعد إعادة النظر في التقسيم الإداري في إطار وحدة الأرض والشعب والمؤسسات.

د ـ إنشاء المجلس الاقتصادي والاجتماعي للتنمية.

يُنشأ مجلس اقتصادي اجتماعي تأميناً لمشاركة ممثلي مختلف القطاعات في صياغة السياسة الاقتصادية والاجتماعية للدولة وذلك عن طريق تقديم المشورة والاقتراحات.

هـ ـ التربية والتعليم.

١ ـ توفير العلم للجميع وجعله إلزامياً في المرحلة الابتدائية على الأقل.

٢ ـ التأكيد على حرية التعليم وفقاً للقانون والأنظمة العامة.

٣ ـ حماية التعليم الخاص وتعزيز رقابة الدولة على المدارس الخاصة وعلى الكتاب المدرسي.

٤ ـ إصلاح التعليم الرسمي والمهني والتقني وتعزيزه وتطويره بما يلبي ويلائم حاجات البلاد الإنمائية والإعمارية. وإصلاح أوضاع الجامعة اللبنانية وتقديم الدعم لها وبخاصة في كلياتها التطبيقية.

٥ ـ إعادة النظر في المناهج وتطويرها بما يعزز الانتماء والانصهار الوطنيين، والانفتاح الروحي والثقافي وتوحيد الكتاب في مادتي التاريخ والتربية الوطنية.

و ـ الإعلام

إعادة تنظيم جميع وسائل الإعلام في ظل القانون وفي إطار الحرية المسؤولة بما يخدم التوجهات الوفاقية وإنهاء حالة الحرب.

ثانياً: بسط سيادة الدولة اللبنانية على كامل الأراضي اللبنانية

بما أنه تم الاتفاق بين الأطراف اللبنانية على قيام الدولة القوية القادرة المبنية على أساس الوفاق الوطني. تقوم حكومة الوفاق الوطني بوضع خطة أمنية مفصلة مدتها سنة، هدفها بسط سلطة الدولة اللبنانية تدريجياً على كامل الأراضي اللبنانية بواسطة قواتها الذاتية، وتتسم خطوطها العريضة بالآتي:

١ ـ الإعلان عن حل جميع الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية وتسليم أسلحتها إلى الدولة اللبنانية خلال ستة أشهر تبدأ بعد التصديق على وثيقة الوفاق الوطني وانتخاب رئيس الجمهورية وتشكيل حكومة الوفاق الوطني. وإقرار الإصلاحات السياسية بصورة دستورية.

٢ ـ تعزيز قوى الأمن الداخلي من خلال:

أ ـ فتح باب التطوع لجميع اللبنانيين دون استثناء والبدء بتدريبهم مركزياً ثم توزيعهم على الوحدات في المحافظات مع أتباعهم لدورات تدريبية دورية ومنظمة.

ب ـ تعزيز جهاز الأمن بما يتناسب وضبط عمليات دخول وخروج الأشخاص من وإلى خارج الحدود براً وبحراً وجواً.

٣ ـ تعزيز القوات المسلحة:

أ ـ إن المهمة الأساسية للقوات المسلحة هي الدفاع عن الوطن وعند الضرورة حماية النظام العام عندما يتعدى الخطر قدرة قوى الأمن الداخلي وحدها على معالجته.

ب ـ تستخدم القوات المسلحة في مساندة قوى الأمن الداخلي للمحافظة على الأمن في الظروف التي يقررها مجلس الوزراء.

ج ـ يجري توحيد وإعداد القوات المسلحة وتدريبها لتكون قادرة على تحمل مسؤولياتها الوطنية في مواجهة العدوان الإسرائيلي.

د ـ عندما تصبح قوى الأمن الداخلي جاهزة لتسلم مهامها الأمنية تعود القوات المسلحة إلى ثكناتها.

هـ ـ يعاد تنظيم مخابرات القوات المسلحة لخدمة الأغراض العسكرية دون سواها.

٤ ـ حل مشكلة المهجرين اللبنانيين جذرياً وإقرار حق كل مهجر لبناني منذ العام ١٩٧٥ م بالعودة إلى المكان الذي هجر منه ووضع التشريعات التي تكفل هذا الحق وتأمين الوسائل الكفيلة بإعادة التعمير.

وحيث أن هدف الدولة اللبنانية هو بسط سلطتها على كامل الأراضي اللبنانية بواسطة قواتها الذاتية المتمثلة بالدرجة الأولى بقوى الأمن الداخلي. ومن واقع العلاقات الأخوية التي تربط سوريا بلبنان، تقوم القوات السورية مشكورة بمساعدة قوات الشرعية اللبنانية لبسط سلطة الدولة اللبنانية في فترة زمنية محددة أقصاها سنتان تبدأ بعد التصديق على وثيقة الوفاق الوطني وانتخاب رئيس الجمهورية وتشكيل حكومة الوفاق الوطني، وإقرار الإصلاحات السياسية بصورة دستورية، وفي نهاية هذه الفترة تقرر الحكومتان، الحكومة السورية وحكومة الوفاق الوطني اللبنانية إعادة تمركز القوات السورية في منطقة البقاع ومدخل البقاع الغربي في ضهر البيدر حتى خط حمانا المديرج عين داره، وإذا دعت الضرورة في نقاط أخرى يتم تحديدها بواسطة لجنة عسكرية لبنانية سورية مشتركة. كما يتم الاتفاق بين الحكومتين يجري بموجبه تحديد حجم ومدة تواجد القوات السورية في المناطق المذكورة أعلاه وتحديد علاقة هذه القوات مع سلطات الدولة اللبنانية في أماكن تواجدها. واللجنة الثلاثية العربية العليا مستعدة لمساعدة الدولتين في الوصول إلى هذا الاتفاق إذا رغبتا في ذلك.

ثالثاً: تحرير لبنان من الاحتلال الإسرائيلي

استعادة سلطة الدولة حتى الحدود اللبنانية المعترف بها دولياً تتطلب الآتي:

أ ـ العمل على تنفيذ القرار ٤٢٥ وسائر قرارات مجلس الأمن الدولي القاضية بإزالة الاحتلال الإسرائيلي إزالة شاملة.

ب ـ التمسك باتفاقية الهدنة الموقعة في ٢٣ آذار ١٩٤٩ م.

ج ـ اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتحرير جميع الأراضي اللبنانية من الاحتلال الإسرائيلي وبسط سيادة الدولة على جميع أراضيها ونشر الجيش اللبناني في

منطقة الحدود اللبنانية المعترف بها دولياً والعمل على تدعيم وجود قوات الطوارىء الدولية في الجنوب اللبناني لتأمين الانسحاب الإسرائيلي ولإتاحة الفرصة لعودة الأمن والاستقرار إلى منطقة الحدود.

رابعاً: العلاقات اللبنانية السورية

إن لبنان، الذي هو عربي الانتماء والهوية، تربطه علاقات أخوية صادقة بجميع الدول العربية، وتقوم بينه وبين سوريا علاقات مميزة تستمد قوتها من جذور القربى والتاريخ والمصالح الأخوية المشتركة، وهو مفهوم يرتكز عليه التنسيق والتعاون بين البلدين وسوف تجسده اتفاقات بينهما، في شتى المجالات، بما يحقق مصلحة البلدين الشقيقين في إطار سيادة واستقلال كل منهما. استناداً إلى ذلك، ولأن تثبيت قواعد الأمن يوفر المناخ المطلوب لتنمية هذه الروابط المتميزة، فإنه يقتضي عدم جعل لبنان مصدر تهديد لأمن سوريا وسوريا لأمن لبنان في أي حال من الأحوال. وعليه فإن لبنان لا يسمح بأن يكون ممراً أو مستقراً لأي قوة أو دولة أو تنظيم يستهدف المساس بأمنه أو أمن سوريا. وإن سوريا الحريصة على أمن لبنان واستقلاله ووحدته ووفاق أبنائه لا تسمح بأي عمل يهدد أمنه واستقلاله وسيادته.

مكتبة البحث

المصادر والمراجع العربية

١ ـ مكي، محمد. «لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني» دار النهار للنشر. الطبعة الثانية ١٩٧٩. بيروت ـ لبنان.

٢ ـ الطويل، محمد أمين. «تاريخ العلويين». دار الأندلس. بيروت ـ لبنان.

٣ ـ د. حتي، فيليب ـ د. جرجي، إدوار ـ د. جبور جبرائيل. «تاريخ العرب». دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ـ لبنان.

٤ ـ الحسيني، هاشم. «الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ» دار الكتب الشعبية. بيروت ـ لبنان.

٥ ـ الحسيني، هاشم. «أصول التشيُّع». دار القلم. بيروت ـ لبنان.

٦ ـ آل كاشف الغطاء، الشيخ محمد الحسيني. «أصل الشيعة وأصولها» دار الأضواء.

٧ ـ المهاج، الشيخ جعفر. «التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا». دار الملاك. بيروت ـ لبنان.

٨ ـ صليبي، كمال. «تاريخ لبنان». مؤسسة نوفل ١٩٩٢. بيروت ـ لبنان.

٩ ـ زهر الدين، د. صالح. «تاريخ المسلمين الموحدين الدروز». المركز العربي للأبحاث والتوثيق. الطبعة الثانية ١٩٩٤. بيروت ـ لبنان.

١٠ ـ شعيب، علي. «تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء ١٩١٨ ـ ١٩٤٦». دار الفارابي ١٩٩٤. بيروت ـ لبنان.

١١ ـ نخلة، رشيد. «المنفى». المكتبة العصرية ١٩٥٦. بيروت ـ لبنان.

١٢ ـ شاهين، د. فؤاد. «الطائفية في لبنان». دار الحداثة. الطبعة الثانية ١٩٨٦. بيروت ـ لبنان.

١٣ ـ الناصري، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد. «الاستقصاء». الدار البيضاء ـ المغرب ١٩٥٤.

منطقة الحدود اللبنانية المعترف بها دولياً والعمل على تدعيم وجود قوات الطوارىء الدولية في الجنوب اللبناني لتأمين الانسحاب الإسرائيلي ولإتاحة الفرصة لعودة الأمن والاستقرار إلى منطقة الحدود.

رابعاً: العلاقات اللبنانية السورية

إن لبنان، الذي هو عربي الانتماء والهوية، تربطه علاقات أخوية صادقة بجميع الدول العربية، وتقوم بينه وبين سوريا علاقات مميزة تستمد قوتها من جذور القربى والتاريخ والمصالح الأخوية المشتركة، وهو مفهوم يرتكز عليه التنسيق والتعاون بين البلدين وسوف تجسده اتفاقات بينهما، في شتى المجالات، بما يحقق مصلحة البلدين الشقيقين في إطار سيادة واستقلال كل منهما. استناداً إلى ذلك، ولأن تثبيت قواعد الأمن يوفر المناخ المطلوب لتنمية هذه الروابط المتميزة، فإنه يقتضي عدم جعل لبنان مصدر تهديد لأمن سوريا وسوريا لأمن لبنان في أي حال من الأحوال. وعليه فإن لبنان لا يسمح بأن يكون ممراً أو مستقراً لأي قوة أو دولة أو تنظيم يستهدف المساس بأمنه أو أمن سوريا. وإن سوريا الحريصة على أمن لبنان واستقلاله ووحدته ووفاق أبنائه لا تسمح بأي عمل يهدد أمنه واستقلاله وسيادته.

مكتبة البحث

المصادر والمراجع العربية

١ ـ مكي، محمد. «لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني» دار النهار للنشر. الطبعة الثانية ١٩٧٩. بيروت ـ لبنان.

٢ ـ الطويل، محمد أمين. «تاريخ العلويين». دار الأندلس. بيروت ـ لبنان.

٣ ـ د. حتي، فيليب ـ د. جرجي، إدوار ـ د. جبور جبرائيل. «تاريخ العرب». دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ـ لبنان.

٤ ـ الحسيني، هاشم. «الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ» دار الكتب الشعبية. بيروت ـ لبنان.

٥ ـ الحسيني، هاشم. «أصول التشيُّع». دار القلم. بيروت ـ لبنان.

٦ ـ آل كاشف الغطاء، الشيخ محمد الحسيني. «أصل الشيعة وأصولها» دار الأضواء.

٧ ـ المهاج، الشيخ جعفر. «التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا». دار الملاك. بيروت ـ لبنان.

٨ ـ صليبي، كمال. «تاريخ لبنان». مؤسسة نوفل ١٩٩٢. بيروت ـ لبنان.

٩ ـ زهر الدين، د. صالح. «تاريخ المسلمين الموحدين الدروز». المركز العربي للأبحاث والتوثيق. الطبعة الثانية ١٩٩٤. بيروت ـ لبنان.

١٠ ـ شعيب، علي. «تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء ١٩١٨ ـ ١٩٤٦». دار الفارابي ١٩٩٤. بيروت ـ لبنان.

١١ ـ نخلة، رشيد. «المنفى». المكتبة العصرية ١٩٥٦. بيروت ـ لبنان.

١٢ ـ شاهين، د. فؤاد. «الطائفية في لبنان». دار الحداثة. الطبعة الثانية ١٩٨٦. بيروت ـ لبنان.

١٣ ـ الناصري، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد. «الاستقصاء». الدار البيضاء ـ المغرب ١٩٥٤.

١٤ ـ «حياة الرسول وأهل بيته» تأليف نخبة من العلماء. دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٣. بيروت ـ لبنان.
١٥ ـ تدمري، د. عمر عبد السلام. «دراسات في تاريخ الساحل الشامي» (لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية) جروس برس ١٩٩٠. طرابلس ـ لبنان.

المجلات والصحف العربية

١ ـ الحوادث.
٢ ـ السفير.
٣ ـ النهار.

المراجع باللغة الفرنسية

1 - Figuie, Gerard «Le Point sur le Liban» Anthologie Beyrouth 1996.
2 - Chedid, Andrée «Liban, Petit Planète» Seuil 1974.
3 - Nerval, Gerard «voyage en Orient Imprimérie». Nationale Editions 1997.
4 - Alem Jean - Pierre et Bourrat «Presses Universitaires de France 1991 Que sais - je» 4è Edition.
5 - Picard, Elizabeth «Liban etat de discorde». Flammarion 1998.
6 - Dedeyan, Gerard «Histoire des Arméniens» 1982.
7 - Londres, Albert.«Cables et Reportages» Le Seuil. Juin 1993.
8 - Rabbath «La Formation Historique du Liban».
9 - Hijazi A. R. «La Paix au Liban: Une Utopie?» 1983.
10 - L'Orient le jour 24 Octobre 1989.
11 - Maïla, Joseph. «le Figaro Magazine». 24 Octobre 1998.
12 - Au Liban Guides visa 1995.
13 - Pinta, Pierre. «Le Liban editions - Terre et Paroles DDB 1985 - Kartala 1995.
14 - Le Proche. Orient Arabe que sais - je Presses. Universitaires de France 1982.
15 - Histoires des Arabes. Que sais - je Presses. Universitaires de France.
16 - L'Islam Que Sais. Je presses Universitaires de France.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني

المشكلة الفلسطينية

الأرمن

الفصل الثالث

مشكلة التعليم في لبنان

الفصل الرابع

نشوء لبنان

الفصل الخامس
الحرب اللبنانية

الفصل السادس

معاناة شعب



الدكتور
علي سليمان المقداد

عاش الأحداث اللبنانية بكل جوارحه، فشارك اللبنانيين آلامهم وقدم لهم ما استطاع من خدمات طبية، وعانى ما عاناه إلى أن أُجبر على الهجرة قسراً بعد أن تضرر مستشفاه في الضاحية الجنوبية.

وفي بلاد الاغتراب، بقي المتابع والمراقب الدقيق لأخبار لبنان والباحث عن أسباب وجذور الحرب اللبنانية.

فهو يدعوك في كتابه إلى رحلة عبر التاريخ مع التوقف في المحطات الهامة التي تساعدنا على فهم ما جرى في لبنان.

يحتوي الكتاب على معلومات هامة كُتبت بأسلوب علمي بعيد عن الانفعالات، يوضح نشأة الطوائف اللبنانية وكيفية استقرارها في لبنان وعن تفاعلها وانفعالاتها التي أدت إلى خضات أمنية خطيرة على امتداد تاريخ منطقة الشرق الأوسط.